مهرجان المصطفى الدّولي للقرآن والحديث

مهرجان المصطفى الدّولي للقرآن والحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

سورة ص، الآية: ٢٩

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن هذا القرآن فيه منارُ الهدى و مصابيح الدجى، فليجل جالٍ بصره، و يفتح للضياء نظره، فإنّ التفكّر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور».

الكافي، ج٢، ص: ٥٩٦

الفهرس

المقدمة ٧

تفسير الكاشف:

سورة الكهف ١١

سورة مريم ٦١

مباحث المعنى من مجمع البيان في تفسير القرآن:

سورة الكهف ٩١

سورة مريم ١٤٣

المقدمة

يمهّد القرآن الكريم لسعادة الدارين الدنيا والآخرة؛ فإنّه يفتح أمام الإنسان طريق السلامة والأمن والاستقرار والاستقامة والإطمئنان والسموّ الروحي والتكامل المعنوي، بل يمثّل أقصر الطرق وأفضل الأنظمة والمناهج والأساليب في سبيل تحقيق سعادة الفرد والمجتمع الإنساني. فهو يحتوي على الكثير من المعارف والعلوم المختلفة الإلهية والكونية التي تلبّي احتياجات البشرية جمعاء، وذلك ضمن أطر وقوالب لفظية ومعنوية قوية ومتماسكة تتسم بالبلاغة والفصاحة وتتمتع بشمولية في الخطاب وعالمية في الدعوة. وفي زمن إلتبست فيه الفتن كقطع الليل المظلم وتعدّدت فيه الطرق والسبل التي أفقدت البشرية سعادتها يبقى القرآن الضمان الوحيد لسلوك الطريق الصحيح للوصول إلى السعادة الحقيقية.

وانطلاقاً من الدور الرسالي الذي أخذته جامعة المصطفىﷺ على عاتقها في نشر ثقافة القرآن والحديث في مجالاتها المتنوعة والعديدة، والتي تعد الخطوة الأولى في مسيرة تجهيز متعلّمي العلوم الدينية والمعارف القرآنية والحديثية الأصيلة ضمن منهج تطبيقي متكامل وذلك عبر تزويد الطلاب بالمعارف القرآنية والحديثية ودعم تطبيق تعاليمهما المتعالية. وعليه تمّ تأسيس دار للقرآن والحديث في الجامعة، وقد تمحورت سياساته وأهدافه حول تأهيل الشّخصية الإسلاميّة المتزنة والملتزمة من خلال إحياء ذاتها الإنسانية بالمعارف القرآنية والحديثية التي هي المنبع الأساس والحجّة الأصيلة في كل العلوم الإسلامية، وفي كل الدروس والمواضيع المطروحة وخصوصاً العصرية منها. لذا يُعنى الدار بتحفيظ القرآن الكريم وترتيله وتفسيره، ويهتمّ بكتابي نهج البلاغة والصّحيفة السجادية حفظاً للخطب والأدعية وشرحاً لمتونها عبر دورات مستمرة مترافقة مع فترة الدراسة في كافة المراحل الدراسية فضلًا عن تأهيل كوادر من المدرّسين والمدرّسات لهذا الكتاب العظيم، كما يهتم بإقامة الندوات والمسابقات الثقافية. هذا فضلاً عن إعتنائه بإقامة الدورات بكل مستوياتها ولاسيما التخصّصية منها، وذلك عبر الاستفادة من الأساتذة المتخصّصين الموجودين في لبنان والمستقدَمين من الجمهورية الإسلامية الإيرانية أو مصر والعراق وغيرها.

ويتميّز دار القرآن والحديث إلى جانب مشاركاته الخارجية في المسابقات القرآنية والحديثية والدورات التأهيلية بإقامة مسابقات دورية متنوعة، وعلى رأسها إقامة المهرجان الدولي للقرآن والحديث، الذي تنظمه وتقيمه جامعة المصطفىﷺ في الجمهورية الإسلامية الإيرانية سنوياً وفي الفروع التابعة لها في العالم. وهو عبارة عن سلسلة مسابقات قرآنية وحديثية تُجرى بين طلبة العلوم الدينية والطلاب الجامعيين وخريجي المراكز الدينية والمدارس القرآنية والثقافية، حيث تعدّ هذه المسابقات فريدة من نوعها بصفتها أكبر نشاط قرآنيّ وحديثيّ عالمي من حيث تنوّع أقسامها، وعدد المشاركين فيها.

– أما أهداف إقامة هذا المهرجان وسياساته فهي الآتية:

أولاً: الأهداف:

١– التعريف بتعاليم القرآن والعترة الطاهرة وأهميتها في بناء الذات الإنسانية؛ لنشرها والترويج لها وخلق أرضيّة خصبة للتمسك بها.

٢- تأصيل أجواء الألفة بالقرآن والحديث والأدعية بين المخاطبين والارتقاء بها والتعريف بالإنجازات والقدرات المعرفية للحوزات العلميّة وجامعة المصطفىﷺ في مجال القرآن والحديث.

٣- الكشف عن المواهب والكفاءات الواعدة لعشّاق القرآن والحديث وتكريمهم والتعريف بالشخصيات والنماذج القرآنيّة والحديثيّة الموفّقة.

٤- ايجاد علاقة وثيقة بين الخرّيجين والباحثين والكوادر العاملة في مختلف المجالات القرآنية والحديثية.

٥- إعادة تقييم الدورات التعليميّة للقرآن والحديث والنشاطات المتعلقة بهما في مختلف أقسام جامعة المصطفىﷺ؛ وذلك لإشاعة الانسجام بينها وترشيدها وترسيخها.

ثانياً: السياسات:

١- التأكيد على الحركة في مسيرة تحقّق الرسالات الحوزوية لجامعة المصطفىﷺ في التخطيط للمهرجان وإقامته.

٢- الاهتمام بموضوع معيّن في كل عام ويكون هو الشعار الخاص بالمهرجان، ويتمّ التركيز على محوريّته في مواد المهرجان ومضامينها.

٣- الاهتمام بتوزيع متوازن لمواد المهرجان في مجال الحديث والأدعية وبخاصّة نهج البلاغة والصحيفة السجادية إلى جانب القرآن الكريم.

٤- التعريف بالقدرات العلميّة والتنفيذيّة واستثمارها في مراكز المصطفىﷺ داخل البلد وخارجه.

٥- وبحمد الله والثناء عليه، والتمسّك بحبله المتين وسراجه المنير والعترة الطاهرةعليهم السلام، وبمشاركة عُشّاق العلوم الأصيلة للثقلين المباركين تفتتح جامعة المصطفىﷺ العالميّة ورقة ذهبيّة جديدة من النشاطات القرآنية والحديثية بإقامتها المهرجان الثالث والعشرين تحت شعار «**القرآن الكريم نهج حياة واستقامة**»، وتأمل أن تكون هذه المبادرة العالمية والثقافية والتربوية المتمحورة حول القرآن الكريم والحديث الشريف باعثاً على تقدّم وسموّ شاملين لأسرة المصطفىﷺ الكبيرة في سماء العلوم الإسلامية والمناهج القرآنية والحديثية الأصيلة، وخطوة موفقة في مسيرة تحقّق نهضة قرآنيّة متكاملة في العالم.

وقد أعدّ خدّام الثقلين المباركين في جامعة المصطفىﷺ مادة علميّة في حقلي التفسير والحديث – مع رعاية الفوارق بين الطلاب ومستوياتهم– وجمعوا هذه المادة في هذا الكتاب فجاءت موزعة على مضامين عديدة كالآتي:

- تفسير سورتي الكهف ومريم من تفسير الكاشف للشّيخ محمد جواد مغنية. (لمرحلة الإجازة)
- تفسير سورتي الكهف ومريم من تفسير مجمع البيان للشيخ الطبرسي. (للماجستير)

ختاماً نتقدم بالشكر من جميع القيّمين على إقامة هذا المهرجان، والمنظّمين له والعاملين على تطويره؛ ليكون شعلة منيرة في زمن التَبَسَتْ فيه الفتن.

المسيرة الدراسية فى تفسير القرآن الكريم

تفسير
الكاشف

تفسير سورتي الكهف - مريم

المجلّد الخامس

سورة الكهف

[الآيات ١ الى ٨]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ﴿١﴾ قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴿٢﴾ ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴿٤﴾ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾

اللغة

العوج بفتح العين يختص بالأعيان، و بكسرها بالمعاني، تقول: في ساقه عوج بالفتح، و في رأيه عوج بالكسر. و القيم المستقيم المعتدل. و البأس هنا العذاب. و من لدنه من عنده، و الضمير يعود اليه تعالى. و بخع نفسه انهكها و كاد يهلكها من الغم و الغضب. على آثارهم اي بعدهم. و الصعيد هنا التراب. و الجرز الأرض التي لا نبات فيها.

الإعراب

الحمد مبتدأ و خبر و الجملة مفعول لفعل محذوف اي قولوا الحمد للّه. قيما مفعول لفعل محذوف اي بل جعله قيما، او حال من الكتاب اي انزل على عبده الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا. و لينذر منصوب بان مضمرة بعد اللام، و المصدر المجرور باللام متعلق بقيم او بأنزل. و ماكثين حال ضمير (لهم). و ابدا ظرف منصوب بماكثين. و من علم (من) زائدة اعرابا و علم مبتدأ مؤخر، و لهم به خبر.

و فاعل كبرت محذوف يدل عليه ﴿ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ او كلمة، و التقدير كبرت المقالة كلمة او كبرت الكلمة كلمة. و كذبا صفة لمفعول مطلق محذوف اي قولا كذبا. و أسفا مفعول من اجله لباخع. و أيهم مبتدأ؛ و احسن خبر، و عملا تمييز.

المعنى

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ ـ محمد ـ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً ـ اي بل جعله مستقيما ـ لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ اي خالدين في ذلك الأجر، و هو الجنة لا ينتقلون عنها بحال ..

ذكر سبحانه القرآن في العديد من آياته، و وصفه بالحق و الهدى و النور، و هنا وصفه بالاستقامة و عدم الاعوجاج، و انه يبشر الصالحين و المصلحين بالثواب و النعيم الدائم، و ينذر الفاسدين و المفسدين بالعذاب و الجحيم الخالد، و الغرض من ذلك ان يبين سبحانه انه انزل القرآن لنسير على منهجه، لا لنحفظ آياته و كلماته، و نحسن تجويدها و تفسيرها فقط، كما هو شأننا .. قال الرسول الأعظمﷺ، و نحن المعنيون بما قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الايمان الا رسمه، و لا من القرآن الا درسه». و اقسم ما قرأت هذا الوعيد و التهديد من نبي الرحمة الا اقشعر جسمي .. و اي تهديد و وعيد أعظم من ان نكون المقصودين بهذا الوصف؟ .. لا شيء فينا من الايمان الا الاسم، و من الإسلام الا الرسم، و من القرآن الا الدرس. لقد طعن في القرآن من طعن، و كفروا به من الأساس، و آمنا به نحن، و لكن خالفنا أحكامه و تعاليمه جهارا نهارا .. و الفرق بيننا و بين من طعن و جحد تماما كالفرق بين يقول: انا لا ارى هذا حقا، و لو علمته حقا لعملت به، و بين من قال: اما انا فاعتقد انه الحق الذي لا ريب فيه، و مع ذلك لا التزم به و لا احترمه.

﴿وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ﴾. و ينذر الذين معطوف على لينذر بأسا شديدا، و الانذار الاول عام لكل من عصى و استحق العقاب، و الانذار الثاني خاص بمن نسب الولد الى اللّه تعالى علوا كبيرا، و كثيرا ما يعطف الخاص على العام للتنبيه على ان الفرد المعطوف أفضل من بقية الافراد، مثل الملائكة و جبريل، او أقبح مثل العاصين و القائلين ان للّه ولدا ..

لان هذا القول أقبح انواع المعصية. قال الرازي: الذين قالوا هذا ثلاث طوائف «الاولى كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات اللّه. و الثانية النصارى الذين قالوا المسيح ابن اللّه. الثالثة اليهود الذين قالوا: العزير ابن اللّه». و المراد بقوله: ما لهم به من علم انهم لا يعتمدون في هذا القول على دليل، بل قام الدليل على العكس، اما قوله: و لا لآبائهم فهو مبالغة في الذم، تماما كما تقول: جاهل ابن جاهل، و ملعون ابن ملعون.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾. لا شيء أعظم من الكذب، و أعظمه الكذب على اللّه، و نسبة التحليل و التحريم اليه من غير دليل، و أعظم الكذب عليه نسبة الولد اليه.

﴿ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾. على آثارهم أي على بعدهم و إعراضهم، و المراد بالحديث هنا القرآن بالاتفاق، و في وصف القرآن بالحديث دليل على فساد قول من قال: ان القرآن قديم .. و ما من شك أن النبيﷺ يريد الخير و الهداية لكل انسان بلا استثناء، تماما كما تريدها انت لولدك، و أريدها أنا لولدي .. و كان النبي يتألم و يحزن إذا سلك سالك سبيل الهلاك و الضلال، كما يتألم الوالد لهلاك ولده .. و في هذه الآية عاتب اللّه سبحانه نبيه الكريم على وجده و حسرته المهلكة من اجل اعراض من أعرض عن الهداية و اتباع الحق، و قال له: لا تحزن عليهم .. ان إلينا إيابهم ثم ان علينا حسابهم.

﴿ إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾. الزينة تعم الجاه و المال و الأولاد، و كل ما يتهالك عليه الناس، و يتطاحنون من اجله ..

و هذه المغريات هي المحك الذي يميز الخبيث من الطيب، فمن قنع منها بنصيبه، و عاش بكده وجده فهو طيب كريم، و من حاول أن يحتكر كل شيء لنفسه، و يعيش على حساب غيره بكل طريق، و لو باثارة الحروب و الفتن فهو معتد اثيم، و معنى ابتلاء اللّه الناس بزينة الأرض أن تظهر بسببها و تبرز الى الوجود أفعالهم و أعمالهم التي يستحقون بها الثواب و العقاب. و تكلمنا عن ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٩٤ من المائدة، فقرة معنى الاختبار من اللّه ج ٣ ص ١٢٦.

﴿ وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً ﴾. ضمير عليها يعود للأرض، و الصعيد التراب، و الجرز الأرض التي لا تنبت شيئا، و المعنى كل من عليها فان، و السعيد من أطاع اللّه، و الشقي من انخدع لهواه.

[الآيات ٩ الى ١٢]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً ﴿١٢﴾

اللغة

المغارة المحفورة في الجبل يقال لها كهف ان كانت كبيرة، و إلا قيل لها: مغارة و غار. و الرقيم بمعنى المرقوم من الرقم، و من معانيه الكتابة، قال تعالى: ﴿ كِتابٌ مَرْقُومٌ ﴾ ـ ٩ المطففين أي مكتوب، و المراد بالرقيم هنا اللوح الذي كتبت فيه اسماء أصحاب الكهف. و الفتية جمع الفتى من الفتوة و الشباب. و ضربنا على آذانهم أي أنمناهم نومة عميقة لا تنبههم معها الأصوات.

الإعراب

أم حسبت (أم) هذه منقطعة أي بل أحسبت. و سنين ظرف و العامل فيه ضربنا. و عددا صفة لسنين أي معدودة أو ذوات عدد. و قيل: مصدر أي تعدها عددا. و أي الحزبين مبتدأ، و احصى خبر، و أمدا مفعول لأحصى مثل أحصيت الأيام و عددت الشهور، و لا يصح جعله تمييزا لأن التمييز في مثله بمعنى احسن وجها، و اكثر مالا أي حسن وجهه و كثر ماله، و الأمد لا يحصي نفسه.

المعنى

نفسر المعنى الظاهر من الآيات المتعلقة باصحاب الكهف، في ضوء ما دلت عليه بالدلالة الصريحة، أو بدلالة الاقتضاء و طبيعة الحال[1] و نطرح ما عداها من المصادر أو الأساطير، فلقد ذكرنا اكثر من مرة أن الحوادث التاريخية و أمثالها لا تثبت إلا بنص القرآن أو بحديث متواتر، و ان اخبار الآحاد ليست بشيء و ان صحت أسانيدها إلا في الأحكام الشرعية.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً ﴾. الكهف المغارة الكبيرة، و الرقيم اللوح الذي رقمت فيه اسماء اهل الكهف، و طريف قول من قال: ان الرقيم اسم كلبهم .. و المعروف عند الرواة ان اسمه قمطير ..

و مهما يكن فقد جاء في الكتب القديمة قصة اصحاب الكهف، و تعجب الذين قرأوها أو سمعوها: كيف ظلوا نائمين السنين الطوال، و بقوا احياء بلا غذاء!.

فقال سبحانه في هذه الآية لكل من تعجب و استغرب: لا تعجب من ذلك، فكل آيات اللّه عجب يحير العقول .. ان الذي أوجد اصحاب الكهف و الكون بما فيه من لا شيء يهون عليه أن يبقي فتية في النوم أمدا طويلا، ثم يبعثهم كما كانوا، و لكن اكثر الناس لا يعلمون.

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً ﴾. يشير سبحانه في هذه الآية و اللتين بعدها الى قصة اهل الكهف على الإجمال، ثم يشرع بالتفصيل .. تقول هذه الآية: كان فيما مضى فتية تركوا كل شيء في هذه الحياة و آووا الى الكهف، و طلبوا من اللّه ان يرحمهم، و يدبر شئونهم، و هم في الكهف.

و لم يشر سبحانه في هذه الآية الى السبب الذي دعاهم ان يتركوا كل شيء، و يلوذوا بالكهف، و يطلبوا من اللّه ان يدبر أمورهم .. و الذي نفهمه من طبيعة الحال، و ما تشير اليه الآيات الآتية هو ان هؤلاء الفتية اهتدوا بفطرتهم السليمة الى ان مجتمعهم على ضلال في عبادة الأصنام، و انهم رفضوا ان

---

١. الدلالة الصريحة مثل اسأل أهل القرية، و دلالة الاقتضاء مثل اسأل القرية، فان الكلام لا يصح إلا بتقدير اهل القرية.

يعبدوا ما يعبد آباؤهم، فحاول المترفون ـ كما هو ديدنهم ـ ان يقتلوا الفتية او يفتنوهم عن دينهم، و لما انسدت على الفتية جميع المسالك، و لم يجدوا آية وسيلة الا اللجوء الى الكهف آووا اليه، و قالوا للّه: لقد أوذينا فيك حتى بلغ بنا الأمر الى ما ترى، و نحن في أشد الحاجة الى عونك و رحمتك، فإياك نسترحم، و بك نستعين.

﴿ فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ أنمناهم نوما لا ينبههم معه شيء. و بقوا كذلك سنين معدودة، و يأتي الكلام عن عدد هذه السنين في الآية ٢٥ ﴿ ثُمَّ بَعَثْناهُمْ ﴾ أيقظناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً ﴾.

عرف الناس قصة اهل الكهف، و هم ما زالوا غارقين في سباتهم، و تداولت اخبارهم الأجيال، و اختلفوا في مدة لبثهم، فمن مقل و من مكثر، فايقظ اللّه اهل الكهف ليعرف الفريقان ان اهل الكهف لبثوا في نومهم أمدا غير قصير فيؤمنوا او يزدادوا ايمانا بقدرة اللّه على إحياء الموتى، و قوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ معناه ليظهر علمنا للناس بمقدار ما لبث اهل الكهف. تقدم نظيره في تفسير الآية ١٤٠ من آل عمران ج ٢ ص ١٦٢.

و **تسأل**: من اين علم الناس مدة لبثهم، و المفروض انهم كانوا نياما و حين استيقظوا تساءلوا و قال بعضهم لبعض لبثنا يوما او بعض يوم؟.

الجواب: لقد عرف الناس مدة مكثهم من الدراهم التي كانت معهم، فقد ذهب بها أحدهم الى المدينة ليشتري طعاما، و لما رآها اهل المدينة تبين انها من عهد احد الملوك السابقين، و يأتي البيان في الآية ١٩.

[الآيات ١٣ الى ١٨]

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً ﴿١٤﴾ هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ

وَلِيًّا مُرْشِداً ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَذاتَ الشِّمالِ وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴿١٨﴾

اللغة

النبأ الخبر العظيم. و ربطنا على قلوبهم قوّينا عزائمهم. و الشطط التجاوز عن الحد. و السلطان البين الحجة الظاهرة. و الاعتزال التنحّي، و التعزل مثله. و المراد بالمرفق هنا كل ما ينتفع به مأخوذ من الرفق و اللطف .. و تزاور تميل. و تقرضهم تجاوزهم. و الفجوة المتسع من الأرض. و الأيقاظ جمع يقظ. و الرقود جمع راقد. و من معاني الوصيد عتبة البيت و فناؤه، و كل من المعنيين جائز هنا.

الإعراب

إذ ظرف بمعنى وقت، و محلها النصب بربطنا. و إذا حرف جواب و جزاء. و شططا صفة لمفعول مطلق محذوف أي قولا شططا. و هؤلاء مبتدأ و قومنا عطف بيان و جملة اتخذوا خبر. و لو اداة طلب بمعنى هلا. و كذبا مفعول مطلق لافترى لان الكذب و الافتراء بمعنى واحد. و إذ اعتزلتموهم (إذ) متعلقة بمحذوف أي و قال بعضهم لبعض إذ اعتزلتموهم. و ما يعبدون عطف على مفعول اعتزلتموهم اي و اعتزلتم ما يعبدون. و الا اللّه (الا) بمعنى غير مثل لو كان فيهما إلا اللّه لفسدتا، و هي و ما بعدها بمنزلة الكلمة الواحدة، و يعرب الاسم الذي يليها بحسب العامل المتقدم و لذا نصب لفظ الجلالة في قوله: و ما يعبدون الا اللّه. و قيل: إن (لا) هنا اداة استثناء، و لفظ الجلالة بعدها منصوب على انه مستثنى متصل ان كان القوم يعبدون مع اللّه إلها آخر، و منفصل ان كانوا يعبدون الأصنام فقط. و تزاور أصلها تتزاور. و ذات اليمين و ذات الشمال ظرفان لان المعنى جهة اليمين و جهة الشمال. و ذراعيه مفعول باسط، و عمل هنا اسم الفاعل مع انه ماض لأنه حكاية حال. و فرارا مفعول مطلق لان ولّى وفرّ بمعنى واحد. و رعبا تمييز عند الطبرسي، و مفعول ثان عند أبي البقاء و أبي الحيان الاندلسي.

المعنى

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾. كان الناس قبل رسول اللّهﷺ يتداولون قصة اهل الكهف، و قد دونت في بعض الكتب، و جاء ذكر اهل الكهف في الشعر، فمن قصيدة لأمية بن أبي الصلت:

و ليس بها الا الرقيم مجاورا و صيدهم و القوم في الكهف هجد

و بالمناسبة كان رسول اللّهﷺ يسأل رواة الشعر ان يقرءوا له من شعر ابن أبي الصلت هذا، فيستمع اليه و يقول: هذا رجل آمن لسانه و كفر قلبه.

و قد انشأ الناس الأساطير حول اصحاب الكهف، كما انشأوها حول كثير من الغابرين، و لذا قال تعالى لنبيه الكريم: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِ الذي لا رَيْبَ فِيهِ .. وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً. و بعد ان أجمل سبحانه قصتهم في الآيات السابقة بدأ بالتفصيل، و تنقسم قصة اهل الكهف ـ كما جاءت في الآيات ـ الى اربعة فصول: الاول اهتداء اهل الكهف الى اللّه. الثاني حالهم مع قومهم و فرارهم الى الكهف. الثالث ايقاظهم من النوم الطويل. الرابع موتهم و البناء عليهم .. و الآيات التي نحن الآن بصددها تتضمن الفصل الاول و الثاني، و المقطع الآتي من الآيات يتضمن الفصلين الآخرين.

الفصل الاول

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ ﴾. من الشباب من هو تام و كامل في عقله و تفكيره، تماما كما هو قوي و تام في جسمه و نشاطه، و هذا النوع و ان كان قليلا نادرا، و لكنه موجود، و منه اهل الكهف، فقد كانوا فتية يعيشون في مجتمع و ثني فاسد، و مع هذا رفضوه و لم يهضموه، و اهتدوا بصفاء فطرتهم الى ان قومهم على ضلال، و قالوا: كيف تكون الأحجار آلهة، و هي لا تغني شيئا؟. و كيف تمنح المترفين القوة و الغنى، و تسلطهم على الضعفاء و المعدمين ـ كما يزعم الأقوياء ـ و هي لا تملك لنفسها نفعا و لا ضرا؟ ..

و انتهى الفتية من هذا الشك و التساؤل الى عقيدة التوحيد و البعث، و لما علم اللّه منهم الصدق في النية، و الإخلاص للحق ثبتهم على ايمانهم، و زادهم بصيرة في أمرهم.

﴿ إِذْ قامُوا ﴾. لم يبين سبحانه اين قاموا، و لذا اختلف المفسرون، فمن قائل: انهم قاموا بين يدي ملك زمانهم دقيانوس الجبار، و هو يحاكمهم على ايمانهم باللّه، و من قائل: انهم قاموا من النوم .. و غير بعيد ان يكون المراد بقيامهم خروجهم على عادات قومهم، و تمردهم على ما هم فيه من الشرك و الفساد ..

و هذا هو شعار ثورتهم و تمردهم على عادات قومهم: ﴿ فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً، هؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾.

آمن الفتية باللّه الواحد الأحد، و أعلنوا ايمانهم على الملأ، و قالوا: ان الطغاة من قومهم يفترون الكذب على اللّه و على عقولهم ايضا، لأنهم أضافوا على الأصنام صفة الآلهة، و هم يعلمون انها لا تضر و لا تنفع .. و لكنهم يموهون على البسطاء بأن هذه الآلهة هي التي اختارتهم، و منحتهم الامتياز و التفوق على الناس، و ان من خالفها في ذلك فلا جزاء له إلا القتل و التعذيب .. بهذا الزعم أراد الطغاة أن يقتلوا الفتية، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا باللّه، و كفروا بالأصنام أي بامتياز الطغاة و تفوقهم على المستضعفين.

تنبهت، و انا اكتب هذه الكلمات، الى تفسير ظاهرة غريبة برزت في أيامنا، و هي هذا الجيش العرموم من المعممين الذين لا يمتون بسبب قريب أو بعيد الى الدين و اهله .. تنبهت الى أن هناك يدا خبيثة تعمل في الخفاء، و تضع التصاميم، و تخصص الأموال لتجنيد المزيفين عن طريق المأجورين و العملاء، و حشدهم أو حشرهم في صفوف اهل العلم، فيلبسونهم العمائم، لا لشيء إلا ليحموا مصالح الطغاة و المستعمرين باسم الدين، تماما كما اضفى عتاة الشرك صفة الآلهة على الأصنام ليقولوا للبسطاء انها هي التي اختارتهم، و أعطتهم السلطان و الأموال، و حرمت البؤساء و المستضعفين.

الفصل الثاني

﴿ وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾. ضاق بالفتية المؤمنين الطغاة من قومهم، و حاولوا أن يفتنوهم عن دينهم .. فقال بعض الفتية لبعض: لا نجاة لنا من القوم الظالمين إلا بالفرار منهم و مما يعبدون و يفعلون. و بعد التداول و التشاور اتفقوا على اللجوء الى الكهف، حيث لا يملكون مقرا سواه .. فدخلوه و أوكلوا أمرهم الى اللّه راضين بما يختاره لهم، حتى و لو أماتهم جوعا و عطشا .. و هكذا المؤمن الصادق يبقى مع إيمانه وفيا له، و لا يبالي بما يحدث و يواجه الصعاب بثقة و امل و حماسة، و متى بلغ الإنسان من الايمان هذا المبلغ كان اللّه معه أينما يكون، و جعل له فرجا عاجلا، حتى و لو تظاهر عليه أهل السماء و الأرض كما فعل مع اصحاب الكهف بعد ان انسدت امامهم جميع المسالك و المذاهب، فاختار لهم الراحة و الأمن و التحرر من هم الحياة و آلامها، فأنامهم نومة لا ينبههم معها شيء، و لا يخافون من شيء.

﴿ وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ ـ أي تنحرف ـ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ـ أي تعدل عنهم ـ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أي في مكان واسع من الكهف، فقد كان كبيرا، و له كوة ينفذ منها الهواء الطيب و نور الشمس، و كانت الشمس لا تصل الى أجسامهم، لا عند طلوعها، و لا عند غروبها، لأنهم كانوا في مكان من الكهف لا يصل اليه نور الشمس، أو لأن اللّه كان يصرفها عنهم بقدرته (ذلك من آياته) ذلك اشارة الى انحراف الشمس عنهم كأنها متعمدة، و الى وضعهم لا إيقاظ يحسون بمرور الزمن و ما فيه، و لا أموات بغير حراك و أنفاس .. و لا تفسير لهذا إلا قدرة اللّه و حكمته.

﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾. المراد بمن يهد اللّه هنا اهل الكهف، و بمن يضلل من أراد التنكيل بهم. انظر تفسير ١٧٨ من الأعراف ج ٣ ص ٤٢٣.

﴿ وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾. كانت عيونهم مفتوحة كأنها تنظر الى الامام، و أجسادهم طرية يجري الدم في عروقها،

يتقلبون من جنب الى جنب، و كلبهم بفناء الكهف أو ببابه باسط ذراعيه يحرسهم كالبواب الأمين (لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ لأنهم في وضع عجيب و غريب لا عهد لأحد بمثله.

[الآيات ١٩ الى ٢٢]

وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴿٢٠﴾ وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٢٢﴾

اللغة

الورق بفتح الواو و كسر الراء، و كسر الواو و سكون الراء ايضا، و المراد بها هنا الدراهم المضروبة. و لا يشعرن من الإشعار، و هو الإعلام. يظهروا عليكم يطلعوا عليكم. و أعثرنا عليهم أطلعنا عليهم. و الرجم بالغيب القول بغير علم، و منه قول الشاعر: «و ما هو عنها بالحديث المرجّم». و المراد بالمراء هنا الجدال. و الاستفتاء السؤال.

الإعراب

كم في موضع نصب مفعول مقدم للبثتم، و المميز محذوف أي كم يوما لبثتم. و لينظر اللام للطلب و أيها مبتدأ و ازكى خبر و طعاما تمييز. إذ يتنازعون (إذ) متعلقة بليعلموا، و قيل: يجوز تعلقها باعثرنا. و ضمير سيقولون عائد الى المتنازعين. و ثلاثة خبر لمبتدأ محذوف أي هم ثلاثة اشخاص. و رابعهم كلبهم مبتدأ و خبر الجملة صفة لثلاثة، و مثله خمسة سادسهم كلبهم. و رجما مفعول مطلق ليقولون لأنه هنا بمعنى يرجمون، أي هم سبعة اشخاص، و ثامنهم كلبهم مبتدأ و خبر و الجملة عطف على ما قبلها، فان الصفة إذا تعددت يجوز فيها العطف و عدمه، تقول: هو الرجل العالم العاقل، و هو الرجل العالم و العاقل.

الفصل الثالث

أشرنا فيما سبق الى أن الآيات المتعلقة بأهل الكهف تنقسم الى اربعة فصول، و قد تضمن المقطع السابق من الآيات الفصلين الأول و الثاني، و هذا المقطع يتضمن الفصلين الأخيرين الثالث و الرابع، و من الفصل الثالث قوله تعالى: ﴿ وَ كَذٰلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ استمروا في نومهم ثلاثمائة و تسع سنين، كما يأتي في الآية ٢٥، ثم أيقظهم اللّه من هذا النوم الطويل العجيب، و يدل ظاهر الآية أن اللّه أيقظهم ليتساءلوا عن مدة نومهم، و متى انكشفت لهم الحقيقة ازدادوا ايمانا باللّه و بالبعث.

و **تسأل**: قال اللّه تعالى في الآية ١٦ أن الغرض من بعثهم أن يعلم مدة مكثهم في الكهف الذين تنازعوا في ذلك قبل ايقاظهم، و قال في هذه الآية: انه أيقظ أهل الكهف ليتساءلوا هم عن أمد مكثهم، فما هو وجه الجمع بين الآيتين؟.

الجواب: لا تصادم بين الآيتين لنحتاج الى عملية الجمع، فإن اللّه أيقظ أهل الكهف للأمرين معا، أشار الى أحدهما في الآية السابقة، و إلى ثانيهما في هذه الآية، و عليه يكون معنى الآيتين ان اللّه أيقظ أهل الكهف ليعلموا هم و غيرهم ان اللّه قادر على إحياء الموتى، مهما طال الزمن.

﴿ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ﴾. حين استيقظوا قال بعضهم: أ تدرون كم لبثنا في الكهف؟. فأجابه البعض الآخر يوما أو بعض يوم، و في هذا القول إيماء إلى أنّه لم يتغير شيء من ثيابهم و أشعارهم و اظفارهم و وجوههم و أبدانهم و ألوانهم على الرغم من طول الأمد، و لو تغير شيء من ذلك ـ كما في تفسير الرازي ـ لظهر للعيان، و لم يقل قائلهم يوما أو بعض يوم .. ثم قالوا: دعونا من هذا التساؤل .. لا يعلم كم لبثنا إلا اللّه .. و جائز أن يكونوا في الظلام لا يرى أحدهم الآخر.

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾. المراد بالورق الدراهم المضروبة، و كان عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم، و قيل: اسمه دقيانوس، و اسم المدينة طرسوس ..

استيقظوا فأحسوا بالجوع بعد ذاك الأمد الطويل، فاختاروا واحدا منهم ليشتري لهم طعاما شهيا، و أوصوه باليقظة و الحذر كيلا يشعر أحد بمكانهم، فيقتلهم الطغاة أو يفتنوهم عن دينهم، و هم لا يدرون انهم في أمة غير أمتهم، و عالم غير عالمهم.

الفصل الرابع: ﴿ وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ

مَسْجِداً ﴾. و كذلك إشارة الى انه كما زدناهم هدى، و ربطنا على قلوبهم و أنمناهم ثم أيقظناهم أيضا، أعثرنا عليهم، أي أطلعنا الناس أو اهل المدينة المجاورة على حقيقة أصحاب الكهف، و الضمير في يتنازعون و في أمرهم يعودان الى أهل المدينة المجاورة للكهف، لأنهم اختلفوا: هل أهل الكهف نائمون أو ميتون؟. وقع هذا الاختلاف بين أهل المدينة لما رأوا النقود القديمة مع الذي أراد أن يشتري بها الطعام، و ذهبوا الى الكهف و رأوا أجساما على الأرض لا تتحرك و لا تتكلم. أما قوله تعالى: ﴿ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ .. الخ ﴾ فإنه يشير الى أن أهل المدينة انقسموا في شأن أهل الكهف، فمن قائل: نتركهم كما هم عليه. و قائل: بل نسد الكهف عليهم. و قال فريق ثالث: نبني عليهم مسجدا يصلي فيه الناس. و قد غلب هذا الرأي على بقية الآراء.

و بعد بيان المراد من كلمات الآية نبدأ بالتفصيل .. من عادة القرآن الكريم أن يحذف كل ما يمكن فهمه من سياق الكلام، أو من اللوازم التي لا تنفك عن طبيعة الحادثة، و على هذا الأساس حذف هنا عددا من الجمل لأنها تعرف من السياق و طبيعة الحال، و تتلخص الجمل المحذوفة بأن أحدهم ذهب الى المدينة لشراء الطعام، و كان حذرا كما أوصاه الرفاق، و لكنه فوجئ بأمر لم يكن في الحسبان و ذلك انه حين أعطى الدراهم لصاحب الطعام تأملها هذا، و قال: هذه النقود قديمة، و هي من عهد الملك «دقيانوس» كما قيل. و لا أحد يتعامل الآن بها.

قال الرجل صاحب النقود: كيف من الأمس الى اليوم؟. و شاع الخبر بين أهل المدينة، و لما سألوا عن شأنه و شأن النقود أخبرهم انه خرج و أصحابا له هربا بدينهم من الطغاة و آووا الى الكهف، فقال قائل من الحاضرين: أجل، سمعت ان جماعة فروا في الزمن القديم بدينهم خوفا من ملكهم دقيانوس المرسوم على هذه النقود، و لجأوا الى الكهف، و لعلهم هؤلاء، فهرع الناس الى الكهف بعد أن سبقهم اليه صاحب النقود، و أخبر أصحابه بما كان.

و خاتمة القصة انه بعد أن انكشف أمرهم تضرعوا الى اللّه، كما تضرعوا اليه حين دخلوا الكهف، و طلبوا منه أن يشملهم برحمته، و يختار ما فيه للّه رضا، و لهم فيه صلاح، و ما أتموا دعاءهم هذا حتى وقعوا جميعا أجساما هامدة، و انتقلت أرواحهم الطاهرة الى ربهم حيث النعيم الخالد، فاتخذ الناس عليهم مسجدا.

و الشاهد في هذه القصة دلالتها الحسية على ما أشار اليه سبحانه بقوله: ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها ﴾ و ان الإنسان خالد بخلود خالقه، و انما ينتقل من دار الى دار، و الويل كل الويل لمن ترك دار الباقية الى دار الفانية، و هو يجحد الآخرة، أو و هو لم يعد العدة لها.

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾. اختلف الناس في مكان الكهف: أين كان؟

فقيل: كان في فلسطين بالقرب من بيت المقدس. و قيل: في الموصل. و قيل: في الأندلس من جهة غرناطة، الى غير ذلك من الأقوال. و أيضا اختلفوا في زمانهم: هل كان قبل السيد المسيح أو بعده؟. بل و في الطعام الذي أوصى أهل الكهف أحدهم أن يشتريه لهم، هل هو التمر أو الزبيب أو اللحم. بل و في لون الكلب: هل كان أسمر أو أنمر أي فيه بقع سوداء و أخرى بيضاء، الى كثير من هذه الخلافات .. اذن، فلا غرابة إذا وقع النزاع و الاختلاف في عدد أهل الكهف.

و في تفسير الرازي و الطبرسي انه لما وفد نصارى نجران الى النبيﷺ جرى ذكر أهل الكهف، فقال اليعقوبية منهم: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. و قال النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. فقال المسلمون: بل سبعة و ثامنهم كلبهم .. ثم قال الرازي: و أكثر المفسرين على انهم سبعة و ثامنهم كلبهم، و ذكر أربعة أوجه لصحة هذا القول، ثلاثة منها فيها نظر، و الرابع له وجه، و يتلخص بأن اللّه سبحانه وصف كلا من القول بالثلاثة و القول بالخمسة بأنه رجم بالغيب، دون القول بالسبعة، فوجب أن يكون هو الحق.

﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾. بعد أن أشار سبحانه الى اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف، و ان أقوالهم كلها أو بعضها رجم بالغيب ـ قال لنبيه الكريم: ان هذا الاختلاف لم يقع في شيء هام، و ان على الإنسان أن يوكل علمه الى اللّه تعالى، و أن يعتبر بما جرى لأصحاب الكهف، و يتخذ منه دليلا على البعث، لا أن يجادل في عددهم أو مكانهم أو زمانهم ..

فإن الغرض من هذه القصة هو الاعتبار و الاتعاظ، بل ان جميع قصص القرآن تخضع لهذا الغرض الديني، فهو الأول و الأخير: ﴿ لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ﴾ ـ ١١١ يوسف.

﴿ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾. فلا تمار أي لا تجادل، و ضمير فيهم يعود الى أهل الكهف، و ضمير منهم يعود الى أهل الكتاب كما في التفاسير، و لا تستفت لا تسأل. و المعنى إذا جادلك يا محمد في عدد أهل الكهف أحد من أهل الكتاب فلا تهتم بشأنه، و لا تسأل العلماء منهم لتحتج بقوله على من جادل، فإن هذه المسألة ليست بذات بال، بل قل للمجادل قولا لينا، مثل اللّه أعلم، أو لا جدوى من هذا الجدال، و نحو ذلك.

[الآيات ٢٣ الى ٢٦]

وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدادُوا تِسْعاً ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾

الإعراب

ذلك مفعول (فاعل). و المصدر من ان يشاء اللّه مفعول لاسم فاعل محذوف، و هو حال من ضمير لا تقولن أي لا تقولن .. إلا ذاكرا مشيئة اللّه. و يهدين الأصل يهديني، و المصدر من ان يهدين فاعل عسى، و هي هنا تامة. و رشدا تمييز أي اقرب من الرشد. و ثلاثمائة قرئ بتنوين تاء مائة، و عليه تكون سنين بدلا من ثلاثمائة، و قرئ بإضافة مائة الى السنين على ان تكون سنين في موضع سنة، لأن مائة لا تضاف إلا الى مفرد. و تسعا مفعول ازدادوا. أبصر به الضمير في (به) يعود الى اللّه تعالى، و اسمع و ابصر للتعجب أي ما أبصره و ما أسمعه!.

المعنى

﴿ وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ﴾. بعد ان قال سبحانه لنبيه الكريم: ﴿ فَلا تُمارِ فِيهِمْ ﴾ أمره ان يعلق كل شيء بمشيئة اللّه، و وجه المناسبة بين النهي عن الجدال و بين الأمر بالتعليق على مشيئة اللّه ان الإنسان قد يذهل، فيفعل ما كان قد عزم على تركه، او يترك ما كان قد عزم على فعله، و يجوز هذا حتى في حق المعصوم على شريطة ان لا يكون في الفعل أو الترك معصية للّه، لأن المعصية لا تجتمع مع العصمة بحال، تماما كما لا يجتمع العلم بالشيء و الجهل به في آن واحد.

المشيئة العليا

ان للظروف تأثيرها، ما في ذلك ريب، و لكنها لا تعاكس الإنسان في كل شيء و لا تسعفه في كل شيء .. و أي انسان حقق كل ما أراد، مهما بلغت قدرته، و امتد سلطانه؟. و من الذي استطاع ان يجعل امرأته أو ولده كما يشاء خلقا و خلقا؟. و اعطف على هذا المثال ما شئت من الأمثلة .. و أيضا ما من أحد عاندته الظروف في كل ما طلب و أراد، حتى في الكلام و النوم ـ مثلا ـ اذن، فإرادة الإنسان قائمة، و لها تأثيرها و عملها.

و لكن هذه الارادة محكومة بمشيئة عليا، و هي تقول للإنسان: إذا أردت شيئا فاطلبه من أسبابه الكونية التي جعلتها طريقا اليه، و إياك أن تنسى أو تتجاهل ذكري، و انت تسير على طريقي هذا، فأنا الذي خلقتك و هيأت لك الأسباب، و أرشدتك اليها، و أمرتك باتباعها .. و أيضا لا تنس ان الطريق الذي مهدته لك لا يؤدي بك حتما و على كل حال الى ما تطلبه و تبتغيه كلا .. حتى و لو اجتهدت و بالغت لأني خلقت أيضا ظروفا معاكسة تعرقل السير، و ما هي بحسبانك و لا بحسبان سواك، لأنها في يدي، و أنا أرسلها و أمسكها، فلا تجزم بأنك بالغ ما تريد، و علق كل شيء على المشيئة العليا .. ما شاء كان، و ان لم يشأ لم يكن. انظر المخبآت و المفاجئات ج ١ ص ٣١٢.

﴿ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ ﴾. كل انسان معرض للنسيان، و بالخصوص إذا تراكمت عليه الأشغال و الأحزان. بل قيل: «سميت إنسانا لأنك ناسيا».

و قد أمرنا اللّه سبحانه ان نذكره عند النسيان، و علّمنا كيف نذكره، حيث قال عز من قائل: ﴿ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ أي و ان لم يذكّرني اللّه الذي نسيت فإنه يذكّر ما هو أصلح و أنفع منه، و في نسيان بعض الأمور فوائد جمة.

و لهذه الآية قصة طريفة تعكس تحاسد بعض أهل العلم بالدين، تماما كتحاسد التجار و أرباب المهن .. فقد روي ان المنصور كان يفضل أبا حنيفة على سائر الفقهاء، فحسده على ذلك محمد بن اسحق، و في ذات يوم اجتمعا معا عند المنصور، فسأل محمد أبا حنيفة بقصد إفحامه و تعجيزه، قال له: ما تقول في رجل حلف باللّه ان يفعل كذا، و بعد ان سكت الحالف أمدا قال: ان شاء اللّه؟.

قال أبو حنيفة: تصح اليمين و يلزم بها الحالف لأن قوله: ان شاء اللّه منفصل عن اليمين، و لو اتصل بها لم تنعقد.

فقال محمد بن اسحق: كيف و عبد اللّه بن عباس جد أمير المؤمنين ـ يقصد المنصور ـ كان يقول، يعمل الاستثناء، و ان كان بعد سنة لقوله تعالى: ﴿ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ ﴾؟.

فالتفت المنصور الى أبي حنيفة و قال له: أ صحيح هكذا قال جدي؟.

قال أبو حنيفة: نعم.

فقال له المنصور: أ تخالف جدي يا أبا حنيفة؟.

قال أبو حنيفة: ان لقول جدك تأويلا يخرج على الصحة، و لكن محمد بن إسحاق و أصحابه لا يرونك أهلا للخلافة، لأنهم يبايعونك، ثم يخرجون و يقولون: ان شاء اللّه، و معنى هذا على مذهبهم انه لا

بيعة لك في عنقهم على اعتبار ان اللّه لم يشأ لك الخلافة. فامتلأ المنصور غضبا، و قال لجلاوزته خذوا هذا مشيرا إلى محمد بن إسحاق، فجعلوا رداءه في عنقه، و جروه الى الحبس.

و بهذه المناسبة نشير الى انه إذا قال قائل: بعتك هذا ان شاء اللّه، أو امرأتي طالق ان شاء اللّه، أو و اللّه لأفعلن كذا ان شاء اللّه و نحو ذلك، إذا قال مثل هذا ينظر: فإن أراد مجرد التبرك باسم اللّه تعالى فعليه أن يلتزم بما قال، و يكون بيعه أو يمينه أو طلاقه صحيحا، لأن الكلام و هذه هي الحال، يكون في حكم المطلق المجرد عن كل قيد، و ان قصد التعليق حقيقة فلا يلزمه شيء، و يكون كلامه و عدمه سواء من حيث الأثر الشرعي، لا لأن التعليق من حيث هو يبطل الشيء المعلق.

بل لأن المعلق عليه، و هو مشيئة اللّه، من عالم الغيب لا من عالم الشهادة.

و **تسأل**: بأي شيء نعلم انه أراد التعليق، أو أراد مجرد التبرك باسم اللّه تعالى؟.

الجواب: نرجع في معرفة ذلك الى المتكلم نفسه لأن القصد لا يعرف إلا من جهة صاحبه، و على القضاء أن يأخذ بقوله.

﴿ وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَ ازْدَادُوا تِسْعاً ﴾. بعد أن استطرد سبحانه بذكر الآيتين عاد الى أهل الكهف، و بيّن انهم مكثوا في نومهم العميق ٣٠٩ سنوات.

و **تسأل**: لما ذا قال: و ازدادوا تسعا، و لم يقل ثلاثمائة و تسعا؟.

و أجاب بعض المفسرين بأنه تعالى أشار بقوله: و ازدادوا الى أن أهل الكهف مكثوا ٣٠٠ سنة بحساب السنين الشمسية، و ٣٠٩ بحساب السنين القمرية لان التفاوت بينهما في كل مائة سنة ثلاث سنوات.

﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾. أجل، هو أعلم لأنه خلقهم و هداهم و أنامهم و أيقظهم و أماتهم، و قد أخبر انهم مكثوا ٣٠٩ سنوات، و قوله الحق، و حكمه الفصل (أبصر به و أسمع) أي ما أبصره تعالى لكل ما يرى، و ما أسمعه لكل ما يسمع، و الغرض ان اللّه لا يخفى عليه شيء.

﴿ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾. ضمير لهم يعود الى الخلق، و ضمير من دونه الى الخالق، و الولي الناصر، و المعنى لا ناصر لمن خذله اللّه، و لا خاذل لمن نصر، و لا مانع لما أعطى، و لا معط لما منع، لأنه وحده لا شريك له، بيده الملك و هو على كل شيء قدير.

[الآيات ٢٧ الى ٢٩]

وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴿٢٧﴾ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً ﴿٢٩﴾

اللغة

ملتحدا ملجأ. و الغداة و العشي الصباح و المساء. و فرطا مجاوزا للحد. و السرادق الفسطاط «الخيمة». و المهل خثارة الزيت. المرفق المتكأ، من اتكأ على مرفقه.

الإعراب

الحق خبر لمبتدأ محذوف أي هذا الحق، أو مبتدأ و الخبر من ربكم. و كالمهل الكاف بمعنى مثل صفة للماء، و جملة يشوي صفة ثانية. و المخصوص بالذم محذوف أي بئس الشراب هو. و مرتفقا تمييز.

المعنى

﴿ وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ ﴾. يقول المولى لنبيه الكريم: بلغ ما أنزلناه اليك فيما يتعلق بأصحاب الكهف و غيرهم مما جاء في القرآن الكريم، و كن على يقين بما أخبرناك به .. و صدق اللّه العظيم، و نبيه الكريم، فقد أثبتت الأيام و الأحداث أن محمداﷺ رحمة مهداة من السماء لأهل الأرض، و كلما تقدم الزمان و طال قدّم الشواهد و الدلائل على هذه الحقيقة ﴿ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ أي ملجأ يمنعك من اللّه. و الخطاب لمحمدﷺ، و معناه الظاهر انك مسؤول يا محمد أمام اللّه، و لا ينجيك منه شيء ان شككت في حقيقة من حقائق القرآن، أو قصرت في تبليغها .. و حاشا نبي الرحمة أن يشك أو يقصر، كيف و اللّه أعلم حيث يجعل رسالته!. و إنما القصد هو التعريض بمن شك في نبوة محمدﷺ، أو خالفه فيما جاء به من عند اللّه.

﴿ وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَ اتَّبَعَ هَواهُ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾. يقال اصبر نفسك مع فلان أي كن معه. و المراد بالذين يدعون ربهم المؤمنون المخلصون. و الغداة و العشي كناية عن مداومتهم على طاعة اللّه. و المراد بوجهه تعالى مرضاته. و لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا

معناه لا تحوّل اهتمامك عن أهل الدين الى أهل الدنيا. و من أغفلنا قلبه هم الكافرون و المجرمون. و كان أمره فرطا أي تجاوز في أقواله و أفعاله حدود الحق و العدل.

روي ان عيينة الفزاري ـ أحد رؤوس المشركين ـ أتى النبيﷺ فرأى عنده جماعة من فقراء أصحابه، فيهم سلمان الفارسي، و عليه شملة قد عرق فيها، و بيده خوص ـ ورقة النخل ـ فقال عيينة لرسول اللّهﷺ: أما يؤذيك ريح هؤلاء، و نحن سادات مضر و أشرافها، فإن أسلمنا أسلم الناس، و ما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء، فنحّهم عنك حتى نتبعك، أو اجعل لهم مجلسا، و لنا مجلسا .. فنزلت الآية.

و نحن لا نعلم مكان هذه الرواية من الصحة سندا، و مع هذا نرجحها لأنها مطابقة لمقتضى الحال، و نعني به طبيعة المترفين، و خلقهم الذميم، و الاستعلاء على الضعفاء و البؤساء، و قد نص القرآن على ذلك في الآية ٢٧ من سورة هود: ﴿ وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا ﴾.

و قبل أن يجيب الرسولﷺ عيينة و أمثاله بلا أو بنعم قال له العلي الأعلى: كن مع المؤمنين المخلصين، لأنهم معي و أنا معهم، و اصبر نفسك على ما فيهم مما ينفر المترفين لأن صبرك عليهم صبر في اللّه و على طاعة اللّه .. ألا ترى الى ايمانهم و إخلاصهم لي و لك في كل شيء طلبا لثوابي و مرضاتي؟. أما الكفرة الفجرة الذين أعمت الأهواء قلوبهم، و لا يعملون إلا بوحي منها و من مصالحهم، و يرفضون العيش مع غيرهم بالحق و العدل، و يأبون إلا الكبرياء و الاستعلاء متجاوزين كل حدود اللّه و الانسانية، أما هؤلاء فلا تصغ الى قولهم، فإنه الجهل و الغرور و الكذب و الضلال، بل عليك أن تجاهدهم، و تغلظ عليهم بالقول و الفعل: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ ـ ١٢٣ التوبة.

﴿ وَ قُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾. قل خطاب لرسول اللّهﷺ. و ربكم خطاب للذين أغفل اللّه قلوبهم، أو للناس أجمعين، و المعنى المراد تأكيد لما جاء في الآية السابقة، و هو قوله تعالى: ﴿ وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ ﴾. ﴿ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً ﴾ ـ ٣ الدهر. و تدل هذه الآية على ان الإنسان مخير، لا مسير، و ردّ الرازي على من استدل بها بأن مشيئة الإنسان ليست من صنعه، بل من صنع اللّه، و عليه فالإنسان مسير، لا مخير.

و نقول في جوابه: ان مشيئة الإنسان وليدة الظروف و الأسباب المغرية ـ مثلا ـ يرى الرجل المرأة الجميلة فتميل اليها نفسه، و قد أوجب الدين على الإنسان في مثل هذه الحال أن يكبح شهوته و لا يندفع وراءها، و ليس من شك ان هذا في مقدوره، و قد عبّر الرسولﷺ عن ذلك بالجهاد الأكبر، فقد روي انه

بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحبا بقوم قضوا الجهاد الأصغر، و بقي عليهم الجهاد الأكبر. فقيل له: و ما الجهاد الأكبر يا رسول اللّه؟ قال: جهاد النفس، ان أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه.

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَ ساءَتْ مُرْتَفَقاً ﴾. هذا تهديد و إنذار لمن آثر الكفر على الايمان و الباطل على الحق .. و السرادق الخيمة، و القصد ان العذاب محيط بهم من جميع الجهات، تماما كما تظلل الخيمة من فيها من كل جهاته. و المهل خثارة الزيت، و هو شديد الاشتعال، و المرفق المتكأ، و المعنى ان للطاغين شر العذاب، و بئس المآب.

[الآيات ٣٠ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴿٣١﴾

اللغة

العدن الاقامة، يقال: عدن في المكان إذا أقام فيه. و الأساور جمع أسوار و سوار، و أصل الجمع أساوير و حذفت الياء للتخفيف. و السندس ضرب من الحرير الرقيق. و الإستبرق الغليظ منه. و الأرائك جمع أريكة السرير.

الإعراب

ان الذين آمنوا خبر ان الجملة من انّا لا نضيع و العائد محذوف أي منهم. و عملا مفعول أحسن أي من عمل الحسن. و من ذهب متعلق بمحذوف صفة لأساور، و من سندس صفة ثانية للثياب. و متكئين حال من ضمير يلبسون.

المعنى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾. بعد ان ذكر سبحانه الظالمين و عقابهم ذكر الصالحين و ثوابهم، و بيّن نوع هذا الثواب بقوله: ﴿ أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴾. يحلون من حليت المرأة إذا لبست حليها، و ضمير فيها للجنة، و الأساور و الثياب و الأرائك و ما اليها تندرج في قوله تعالى: ﴿ وَ فِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَ تَلَذُّ

الْأَعْيُنُ ﴾ ـ ٧١ الزخرف، و قال الامام علي عليه السلام: كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية، و تقدم نظيره مرات، منها الآية ٨٢ من سورة البقرة و ٥٧ من سورة النساء و ١٧١ من سورة آل عمران.

و طريف قول بعض الصوفية: ان المراد بالحلي التوحيد، و بالثياب الخضر الصفات الموجبة للسرور، و بالسندس المواهب الذاتية، و بالاستبرق الأخلاق المكتسبة، و بالأرائك أسماء اللّه .. و لا جرأة على اللّه أعظم من تفسير مقاصده بالوهم و الخيال، أو بالهوى و الغرض.

[الآيات ٣٢ الى ٤٤]

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ﴿٣٣﴾ وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾ وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً ﴿٣٦﴾ قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لكِنَّا هُوَ اللّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴿٣٨﴾ وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً ﴿٣٩﴾ فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴿٤١﴾ وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿٤٢﴾ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً ﴿٤٣﴾ هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً ﴿٤٤﴾

اللغة

الجنة البستان. و احف به أطاف به، و المراد هنا بحففناهما ان اللّه جعل النخل محيطا بالبساتين. و المحاورة مراجعة الكلام قال و قلت. و النفر الأنصار و الأعوان.

و تبيد تفنى. و قائمة كائنة. و المنقلب المرجع. و الحسبان السهام و الحساب و المراد به هنا الآفة المهلكة. و الصعيد وجه الأرض. و الزلق ما تزلق فيه الأقدام و لا تثبت عليه. و غورا ذهب و غار في الأرض. و أحيط بثمره كناية عن الهلاك.

و يقلب كفيه كناية عن الندم. و خاوية خالية أو هاوية. و العروش جمع عرش، و هو السقف و المراد هنا ان الكروم سقطت على الأرض. و العقبى العاقبة.

الإعراب

رجلين على حذف مضاف أي قصة رجلين، و القصة مفعول أول لاضرب و مثلا مفعول ثان. و ضمير لهم يعود الى المشركين. و كلتا مبتدأ، و جملة آتت خبر، و أفرد الضمير في آتت مراعاة للفظ كل، و يجوز كلتا بالتثنية حملا على المعنى. و مثل آتت لم تظلم في إفراد الضمير، و شيئا مفعول تظلم. و خلالهما ظرف لأنه بمعنى وسط أو بين، و هو منصوب بفجرنا. و مالا تمييز، و مثله نفرا و منقلبا. و لكنّا هو اللّه ربي الأصل لكن انا هو اللّه ربي و انا مبتدأ أول، و هو مبتدأ ثان، و اللّه مبتدأ ثالث، و ربي خبر للثالث و هو و خبره خبر للثاني و هو و خبره خبر للأول. و لو لا بمعنى هلا. و ما شاء اللّه (ما) اسم موصول بمعنى الذي خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر ما شاء اللّه، أو مبتدأ و الخبر محذوف أي ما شاء اللّه كائن. و ان ترن الأصل ترني و الياء مفعول أول، و انا تأكيد لها، و أقل مفعول ثان. و مالا تمييز. و هنالك ظرف مكان للبعيد خبر مقدم، و الولاية مبتدأ مؤخر، و للّه متعلق بمحذوف حالا من الولاية، و الحق صفة للّه. و ثوابا تمييز، و مثله عقبى.

خلاصة القصة: عند تفسير الآية ٢٧ من هذه السورة ذكرنا ان عتاة المشركين اشترطوا لايمانهم برسول اللّهﷺ أن يطرد المؤمنين الفقراء، أو يعين لكل منهما مجلسا، بحيث لا يجمعان عند النبيﷺ في مكان واحد، لأنهم سادة و أمراء، و الناس عبيد لهم و إماء .. و تأتي الآيات التي نحن بصددها لترسم صورة للأغنياء المتكبرين في شخص غني يملك المال و العقار، و صورة للفقراء المؤمنين في شخص فقير لا يملك شيئا، و لكنه يعتز بخالقه، و الغني يعتز بماله .. و يدور حوار بينهما يعكس الصراع بين الحق و الباطل، و في النهاية ينتصر الحق، و يزهق الباطل، و يصدق الحكيم القائل: من صارع الحق صرعه.

و يتلخص معنى الآيات بأن الذي يعتز بماله من دون اللّه يملك بستانين عظيمين، فيهما زرع كالحنطة و غيرها من الحبوب، و فيهما أيضا أشجار كثيرة من نخيل و أعناب، و كل بستان تتفجر في أرضه المياه، و يخلب الألباب بهجة و جمالا، و يؤتي ثمره و نتاجه في أوانه كاملا حبوبا و فاكهة، لا ينقص منها شيء، أما الذي يعتز بخالقه فلا يملك شيئا .. فقال الكافر للمؤمن في زهو و غرور: أنا أكثر منك مالا و جاها .. أنظر إلى ما أملك من زرع و أشجار، و ثمار و أنهار .. هذا هو الملك الدائم الذي يبقى للأولاد و الأحفاد، لا الجنة التي تزعمون أيها المساكين، و هل بعد الموت جنان و نيران؟. و ان صح الخبر فان حظي في الآخرة سيكون أوفى منه في الدنيا، لأن المترف هنا مترف هناك أيضا.

فقال المؤمن للكافر مقرعا و موبخا: أتقول هذا بغيا و كفرا بالذي سواك رجلا؟

أ تجهل أصلك و فرعك؟ أ لست من آدم، و آدم من تراب؟. ألم تك نطفة من مني يمنى؟ .. أما أنا فأؤمن باللّه و أوحّده و أحمده على الهداية إلى صراطه و مرضاته ..

و لو كنت من ذوي الرشد و البصيرة لتواضعت للّه و شكرته على آلائه، و لم تأخذك العزة بالإثم .. و ما الذي جعلك تأمن المفاجئات و المخبآت؟. و إذا أملى اللّه للعاصين بحلمه و رحمته فقد يعاجلهم بغضبه و نقمته.

و ما أتم المؤمن كلامه حتى سقطت الأشجار، و غارت الأنهار، و هلك الزرع و باد كل شيء في جنة الكافر التي نظر اليها و قال مغترا: ما أظن ان تبيد هذه أبدا .. و بعد أن رأى صنع اللّه، و انقطع أمله من زرعه و أشجاره قال في حسرة و انكسار: يا ليتني لم أشرك بربي أحدا .. الآن و قد عصيت من قبل و كنت من المفسدين .. هذا ملخص ما جاء في الآيات، و القصد منها ان يؤمن الإنسان قولا و عملا بأنه لا حول و لا قوة إلا باللّه الواحد القهار، و انه، جلت حكمته، يحوّل ساعة يشاء العز الى ذل، و الغنى الى فقر، و العافية الى أسقام و آلام و بالعكس، و ان ملك المخلوق مهما بلغ من العظمة فما هو بشيء إلا إذا تحول عملا من أعمال الخير. و بعد هذا التلخيص نشرع بالتفصيل و تفسير الآيات، مع العلم بأن أكثرها واضح لا يحتاج الى تفسير.

المعنى

﴿ وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْناب وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ﴾.

الخطاب في اضرب للنبيﷺ، و ضمير لهم للمشركين الذين قالوا لرسول اللّهﷺ: اطرد المؤمنين، أو يعود الضمير لكل مترف متكبر، و المراد بالرجلين الغني و الفقير اللذان وقع بينهما الحوار الآتي، و المعروف من طريقة القرآن انه كثيرا ما يضرب الأمثال للأفكار المجردة و المبادئ العامة، و يشبهها بالأشياء المحسوسة، كتشبيه الايمان بالنور، و الكفر بالظلمات .. و قد يشبه المحسوس بمحسوس آخر أوضح منه و أبين، كتشبيه المرتد عن الدين بالكلب اللاهث، و الغاية من ذلك الجلاء و التوضيح بالاضافة الى العبرة و العظة: ﴿ وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً. وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ ﴾ ـ ٣٩ الفرقان.

و قد شبه سبحانه هنا حال الطغاة المترفين بمتكبر كافر جهول يملك بستانين، فيهما نهر و زرع من الحبوب، و أشجار تحمل الفاكهة المفضلة آنذاك و هما الرطب و العنب، و كل من الزرع و الشجر يؤتي نتاجه في أوانه كافيا وافيا لا ينقص منه شيء .. و شبه سبحانه المؤمنين بمتواضع مؤمن عارف، و لكنه

فقير لا يملك شيئا، و قد وقع بين الاثنين الحوار التالي: ﴿ فَقالَ لِصاحِبِهِ ﴾. القائل هو الغني الجاحد المتكبر، و صاحبه المؤمن العارف المتواضع ﴿ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ ﴾ يراجعه في الكلام: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالًا وَ أَعَزُّ نَفَراً ﴾.

و إذا كان أكثر مالا و رجالا فهو أعظم و أكمل، لأن المال و الجاه هو مقياس العظمة و الكمال، أما الايمان و الإخلاص فكلام بلا معنى .. هذا هو منطق الفسقة الفجرة قديما و حديثا .. فقيمة كل امرئ ـ عندهم ـ ما يملك، لا ما يحسن علما و عملا .. هذا هو بالذات المنطق الذي جر على الانسانية الويلات، و هو الدافع الأول على التفنن بأسلحة الخراب و الدمار، و صرف الملايين على صنعها من أقوات الجائعين .. يسلب الاستعمار مقدرات الشعوب، و يحولها إلى قنابل و صواريخ لا لشيء إلا ليلقيها على تلك الشعوب بالذات، الشعوب التي يدمرها المستعمرون بقنابل من أرزاقها و خيراتها.

﴿ وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ لأنه استجاب لاهوائها و شهواتها، و عرّضها للتهلكة، تماما كمن يستجيب لطفله فيما يضره و يهلكه ﴿ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ﴾. قال الرازي: «كيف قال: ما أظن ان تبيد هذه أبدا مع ان الحس يدل على ان الدنيا بأسرها ذاهبة غير باقية؟. قلنا، ان المراد انها لا تبيد مدة حياة صاحبها و وجوده».

و الجواب الصحيح: ان الجهل و الغرور أعميا صاحب الجنة عن كل شيء حتى عن المحسوسات و المرئيات، قال عز من قائل: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بها وَ لَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ ﴾ ـ ١٧٩ الاعراف. ﴿ وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ﴾. و لا يستند هذا الظن إلا الى بطره و غروره، و وهمه و خياله بأن نعمته خالدة لا يفنيها شيء، و بهذا نجد تفسير انكار من أنكر يوم الحساب من الطغاة و المترفين ﴿ وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً ﴾. لأن المترف هنا مترف هناك و في كل مكان في منطقه و مفهومه قياسا للغائب على الشاهد .. و ما درى ان النجاة يومئذ للمتقين، لا للطغاة و المترفين: ﴿ ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ ﴾ ـ ٢٨ الحاقة.

(قال صاحبه و هو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا). قال المؤمن للكافر مقرعا و موبخا: أ تجحد خالقك، و دلائله ظاهرة فيك؟. من أين جاءتك الحياة بعقلها و سمعها و بصرها، و لم تك من قبل شيئا مذكورا؟. ﴿ لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾. أما أنا فقد اهتديت بفطرتي و عقلي الى خالقي و خالق كل شيء و آمنت بأنه هو وحده الخالق الرازق.

ثم قال المؤمن مذكّرا الكافر بنعمة اللّه عليه، و بوجوب شكرها و حمد اللّه عليها: ﴿ وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾. لو كنت من ذوي الرشد و البصيرة لأدركت ان الخير و الفضل

أن يكثر علمك، لا مالك، و ان تباهي الناس بأخلاقك لا بجاهك، و ان تعلم انه لا حول و لا قوة إلا باللّه الواحد القهار، فهو وحده الذي يهب العز و الجاه، و يحوّل الغنى الى فقر، و الفقر الى غنى. ما شاء كان، و ما لم يشأ لم يكن.

﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالًا وَ وَلَداً فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾. استطال الكافر على المؤمن، و تعالى عليه بماله، فقال له المؤمن: ان الغنى و الفقر بعد العرض على اللّه، و ما يدريك اني لديه أغنى منك و أكرم، و انه قد ادخر لي في دار البقاء ما هو خير من جنتك هذه التي تفخر بها و تتعاظم، بل ما يدريك أن يجعلني غنيا، و يجعلك فقيرا بين عشية و ضحاها؟.

انك تزهو و تفخر بمالك لأن الناس يغبطونك عليه، و لكن هل تدفع عنك غبطتهم هذه ما يخبئه الدهر لك من العواقب؟. و هل أنت في مأمن من اللّه و غضبه؟ ألا تخشى أن ينزل عليك و على جنتك صاعقة من السماء فتصبح أنت و ما تملك أثرا بعد عين؟.

﴿ وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ﴾. هلك الزرع، و هوت الأشجار من كل جانب، و غار الماء حتى آخر نقطة منه، و أصبحت الأرض زلقا لا تثبت عليها قدم .. كأن لم يكن شيء، و حل الفقر محل الغنى، و الكآبة محل الفرح، و الذل و الانكسار محل التعاظم و الكبرياء ..

و هذه هي ثمرة الكفر و البغي و الفساد، بل و ثمرة الغفلة و الغرور .. حسرة و ندامة على الجهود و الأموال، و التفريط و الإهمال.

﴿ وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾. كأنه أراد بهذا القول أن تعود جنته الى روائها و عطائها، و لكن هيهات .. ﴿ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً ﴾ ـ ١٥٨ الأنعام.

﴿ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً ﴾. أبدا لا صاحب و لا عشيرة و لا جاه و لا مال .. لا شيء على الإطلاق إلا اللّه: ﴿ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَ لَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ ـ ٢٢ الجن أي ملجأ ﴿ هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَ خَيْرٌ عُقْباً ﴾. هنالك اشارة الى يوم القيامة، و الولاية بفتح الواو النصرة، و ضمير هو يعود الى اللّه، و العقبى العاقبة، و المعنى ان الإنسان إذا وجد في حياته هذه من يناصره و يدفع عنه، أو يعينه بشيء فإنه يوم القيامة لا يجد حيلة و لا وسيلة و لا ناصر إلا اللّه وحده، و اللّه سبحانه مع المتقين، و قد أعد لهم أجرا كريما، و حسن مآب.

[الآيات ٤٥ الى ٤٦]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴿٤٥﴾ الْمالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾

اللغة

الهشيم النبت اليابس المتكسر. و تذروه تنثره و تفرقه.

الإعراب

قال أبو البقاء في كتاب الاملاء: يجوز ان تجعل اضرب بمعنى اذكر، فتتعدى اضرب الى مفعول واحد، و هو مثل الحياة، و كماء متعلق بمحذوف خبرا لمبتدأ محذوف أي هو كائن كماء، و يجوز ان تجعل اضرب بمعنى صيّر و عليه يكون كماء مفعولا ثانيا.

المعنى

﴿ وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّياحُ ﴾. الدنيا حلوة خضرة في منظرها، و غرّارة ضرارة في مخبرها، لا خير في شيء من أزوادها إلا التقوى، كما قال الإمام علي عليه السلام، و هذا هو معنى الآية، حيث شبه سبحانه الدنيا في نضرتها بمطر نزل على الأرض، فأخصبت و أنبتت من كل زوج بهيج، و لكن ما أسرع أن ذوى و جف يابسا و هشيما تنثره الرياح، و هكذا زينة الحياة الخاصة: منظر جميل، و مخبر عليل ﴿ وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴾. يقدر على إزالة الكون و إفنائه، تماما كما قدر على خلقه و إيجاده .. قال ابن عربي في الفتوحات المكية: «ان اللّه قادر من حيث الأمر، و مقتدر من حيث الخلق يريد ان اللّه يتصف بالقدرة من حيث انه يقول للشيء «كن فيكون» سواء أقال له ذلك، أم لم يقل، و يتصف بالاقتدار من حيث انه قال بالفعل و وجد الشيء كذلك.

المال و البنون زينة الحياة

﴿ الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾. زينة الحياة على نوعين، عامة و خاصة، و العامة كتيسير المواصلات و بناء السدود، و ما اليه من مشاريع الري، و كإنشاء الجامعات للعلوم، و الروضات للأطفال، و المصانع لسد الحاجات، و نحوها مما ينفع الناس بجهة من الجهات. أما الزينة الخاصة فهي كالدار و السيارة الفارهة، و الولد الناجح المطيع، و المكانة الاجتماعية و ما الى ذلك من المنافع الشخصية، و هذه

الزينة ليست محرمة، كيف و هو القائل جلت حكمته: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ ـ ٣٢ الأعراف ج ٣ ص ٣٢٠. و لكن الزينة الخاصة لا تستأهل أن يعتز بها الإنسان و يفخر، لأن عظمته لا تقاس بها، و انما تقاس بالزينة العامة، بما ينفع الناس، و يبقى جيلا بعد جيل، و هذه هي التي عناها اللّه بقوله: ﴿وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلًا﴾ لأن فاعلها ينال في الآخرة ما يأمل، الى جانب الاحترام و خلود الذكر في هذه الحياة.

و الخلاصة ان المال وسيلة، لا غاية، فيوزن و يقدر بنتائجه و آثاره، ان خيرا فخير، و ان شرا فشر، فإذا صرف في وجوه الشر و الفساد كسباق التسلح فهو شر، و ان صرف في سد الحاجات فهو خير، و الخير على نوعين: فإن دفع عن صاحبه ضرا أو جلب له نفعا و كفى فهو خير خاص يزول بزوال وقته، و ان عاد بالنفع على الجميع فهو خير عام، و من الباقيات الصالحات.

[الآيات ٤٧ الى ٤٩]

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴿٤٩﴾

اللغة

غادر الشيء تركه. و المراد بالكتاب هنا صحيفة العمل التي تعطى للإنسان غدا بيمينه أو بشماله. و مشفقين خائفين. و الويل الهلاك.

الإعراب

يوم منصوب بفعل محذوف أي و اذكر يوم نسير الجبال. و بارزة حال من الأرض لأنّ ترى هنا بصرية. و صفّا حال أي و حشرناهم مصفوفين. و كما خلقناكم الكاف بمعنى مثل صفة لمصدر محذوف، و ما مصدرية أي جئتمونا مجيئا مثل مجيء أول مرة، و أول ظرف منصوب بخلقناكم. و بل للانتقال من شيء الى شيء، و ليست لإبطال ما قبلها. و ان لن نجعل (ان) مخففة من الثقيلة و اسمها محذوف أي انه و ما بعدها خبر. و مشفقين حال من المجرمين لأن ترى هنا بصرية. و ويلتنا منادى أي يا هلاكنا احضر. و ما لهذا الكتاب (ما) استفهامية في محل رفع بالابتداء، و لهذا الكتاب خبر.

المعنى

﴿ وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً ﴾. لهذه الأرض التي نعيش عليها يوم، ذكره اللّه سبحانه في العديد من الآيات؛ منها هذه الآية، و قد وصفه تعالى فيها بوصفين: الأول ان اللّه يقتلع الجبال من أماكنها، و يسيرها في الجو كما يسير السحاب. الوصف الثاني: ان جميع أطراف الأرض و أجزائها تكون ظاهرة بارزة لا يحجبها شيء، و عندئذ يكون المحشر الذي أشار اليه بقوله: ﴿ وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ يجمع اللّه سبحانه في ذلك الأولين و الآخرين لنقاش الحساب و جزاء الأعمال.

﴿ وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا ﴾. ذكرنا فيما سبق ان البعث و الحساب و الجزاء حق لا ريب فيه، و أثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة، و بأساليب شتى عند تفسير الآيات التي تعرضت الى اليوم الآخر، و منها الآية ٤ من سورة يونس، فقرة الحساب و الجزاء حتم ج ٤ ص ١٣٢. و تقول الآية التي نحن بصددها: ان الخلائق يعرضون غدا على اللّه صفا، و المراد بالعرض الوقوف بين يدي اللّه للحساب، أما المراد بالصف فقد اختلف المفسرون فيه على أقوال، فبعضهم أبقى الظاهر على دلالته، و بعضهم تصرف و حمّل اللفظ ما لا يحتمل.

و الذي نراه نحن ان الصف هنا كناية عن الترتيب و النظام، و ان الخلائق يعرضون على خالقهم بوضع محكم و دقيق.

﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ بهذا يبدأ اللّه سبحانه محاكمة الذين ينكرون البعث: لقد أخرجناكم من بطون أمهاتكم عراة حفاة عزلا من كل شيء، و كذلك أخرجناكم من قبوركم، و لا فرق إلا في انكم خرجتم أولا غير مسؤولين عن شيء، و ثانية لتسألوا عما كنتم تعملون و تعتقدون و تقولون .. و من ذلك قولكم: البعث خرافة و أساطير .. فما ترون الآن؟.

﴿ وَ وُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾. بعد أن قال اللّه لمنكري البعث: ﴿ فَهذا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ أعطى كل واحد منهم صحيفة أعماله، و قال له: ﴿ اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً» ـ ١٤ الاسراء. اقرأ صحيفة أعمالك، و حاسب نفسك بنفسك .. فيقرأها، و هو يرتجف من الخوف الذي لا رجاء معه و لا أمل بالنجاة، و لو خاف عذاب الحريق من قبل، و ابتعد عن طريقه لكان اليوم في أمن و أمان، و لكنه أمن هناك فخاف هنا.

﴿ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها ﴾. و من قبل هذا قالوا: لا كتاب و لا حساب، و لم يستجيبوا لعقل و لا دين ﴿ وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ﴾ من غير زيادة أو

نقصان، كيف ﴿ وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ لا في ثواب و لا في عقاب بل يضاعف الثواب لمن أحسن، و قد يعفو عمن أساء.

[الآيات ٥٠ الى ٥٣]

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً ﴿٥٣﴾

اللغة

الفسق الخروج. و العضد ما بين المرفق الى الكتف، و المراد به هنا النصير و المعين، كما يراد ذلك من اليد كثيرا. و الوبق الهلاك و الموبق المهلك و الموبقة المهلكة. و مواقعوها أي واقعون فيها أو داخلوها. و مصرفا محولا، و مكانا ينصرفون اليه.

الإعراب

كان من الجن الخبر محذوف أي كان أصله من الجن. بئس للظالمين بدلا فاعل بئس ضمير مستتر و بدلا تمييز أي بئس البدل بدلا، و المخصوص بالذم محذوف، و هو إبليس و ذريته. و يوم منصوب بفعل محذوف أي و اذكر يوم يقول.

المعنى

﴿ وَ إِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ تقدم في الآية ٣٤ من سورة البقرة و ١١ من سورة الأعراف و ٦١ من سورة الاسراء ﴿كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أي خرج عن طاعة اللّه، و قلنا أكثر من مرة: اننا نؤمن بوجود الجن لأن الوحي يثبته، و العقل لا ينفيه، و اننا ندع التفاصيل لعلام الغيوب ﴿ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي ﴾. القرآن ينطق بعضه ببعض، و يشهد بعضه على بعض: و قد عبّر عن الذين يلبسون الحق بالباطل بأنهم جنود إبليس و أولياؤه في العديد من الآيات. و قال هنا عز من قائل: ﴿ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ ﴾ فجاز لنا ـ و هذه هي الحال ـ ان نفسر ذرية إبليس بجنوده و أعوانه، و ان ذرية إبليس و جنوده و أولياءه هم الذين يلتمسون الباطل بالكذب و الافتراء على

الحق .. و ليس ببعيد أن يكون التعبير عن هؤلاء بذرية إبليس للاشارة الى قوة الشبه بين أعمالهم و أعماله.

و من الطريف قول من قال: ان لإبليس ذكرا في فخذه الأيمن، و فرجا في فخذه الأيسر، فيدخل ذاك بهذا فيأتي النسل و الذرية.

﴿ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ ﴾. و كل من يموه عليك، و يغريك بالباطل، أو يثني عليك بما ليس فيك فهو عدو لك، شعر بذلك أم لم يشعر، أما من يبتدع الأساطير حول إبليس و غيره فهو عدو اللّه و رسوله و الانسانية ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾. و الظالمون هم الذين يستبدلون طاعة الشيطان بطاعة الرحمن، و منهم الذين يختارون المفسدين لمنصب من المناصب، و يفضلونهم على الصالحين.

﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾. ضمير أشهدتهم راجع الى إبليس و ذريته. و ما أشهدتهم أي ما أحضرتهم حين خلقت الكون و خلقتهم، و العضد النصير و المعين، و المقصود بالكلام العاصون الذين فسقوا عن أمر اللّه، و المعنى ان اللّه سبحانه إذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، لا يستشير أحدا، و لا يستعين بأحد لأنه غني عن العالمين، و حين خلق الكائنات لم يحضر واحدا منها، حتى و لو كان أتقى الأتقياء، فكيف إذا كان ضالا مضلا كإبليس و جنوده، و ما دام الأمر كذلك فكيف يعصى خالق السموات و الأرض، و يطاع من لا يملك لنفسه نفعا، و لا يدفع عنها ضرا؟.

﴿ وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً ﴾ أي مهلكا، و المعنى ان اللّه يقول غدا لمن يشرك في طاعته: أين الذي أطعته و زعمت انه يجديك نفعا في هذا اليوم العصيب؟. ادعه و انظر هل يستجيب لك؟. كلا، انه في شغل شاغل عنك و عن غيرك .. انه في عذاب الحريق .. و قوله تعالى: نادوا شركائي .. فدعوهم فلم يستجيبوا هو كناية عن يأس المجرمين و انقطاع آمالهم ممن كانوا يرجون و يأملون ﴿ وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً ﴾. المراد بالظن هنا العلم و اليقين، و بالمصرف المكان الذي ينصرفون و يهربون اليه من النار .. و الهروب غدا من عذاب اللّه تماما كالهروب من الموت في هذه الحياة.

[الآيات ٥٤ الى ٥٦]

وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً

﴿٥٥﴾ وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آياتِي وَما أُنْذِرُوا هُزُواً ﴿٥٦﴾

اللغة

المراد بصرّفنا هنا ترديد المعنى و توضيحه بأساليب مختلفة. و المراد بالجدل هنا الخصومة بالباطل بدليل قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ ﴾.

و قبلا بضم القاف و الباء المواجهة و المعاينة. و المراد بالدحض الزلق.

الإعراب

جدلا تمييز. و المصدر من ان يؤمنوا مجرور بمن محذوفة. و المصدر من ان تأتيهم فاعل منع. و قبلا حال من العذاب. و ما أنذروا (ما) اسم موصول في محل نصب عطفا على آياتي. و هزوا مفعول ثان لاتخذوا.

المعنى

﴿ وَ لَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾. المراد بالإنسان هنا أكثر الناس لقوله تعالى في العديد من الآيات: أكثر الناس لا يعقلون .. أكثر الناس لا يعلمون .. أكثر الناس لا يؤمنون. أما القرآن الكريم فهو كتاب اللّه الى عباده يهديهم بدلائله و مواعظه، و يحثهم على التمسك بأحكامه و تعاليمه. و قد أوضح سبحانه هذه المواعظ و الدلائل بشتى الأساليب، و ضرب عليها من أجل ذلك الكثير من الأمثال، منها الرجلان المذكوران في الآية ٣٢، و تشبيه الحياة بالماء في الآية ٤٥ من هذه السورة، و لكن أكثر الناس لا يعقلون و يخاصمون في أوضح الواضحات، و يحاولون إبطال الحق و دحضه بالمماراة و الأكاذيب.

﴿ وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلًا ﴾. المراد بالهدى القرآن و بيناته الواضحة، و بالاستغفار التوبة، و بسنة الأولين الإهلاك كما حدث لقوم نوح و لوط و عاد و ثمود، و المعنى ان المشركين لا يحاولون ان يؤمنوا باللّه أو يفكروا بالايمان إلا عند ما يوجد احد أمرين، الأول أن ينزل بهم عذاب الاستئصال كما نزل بمن كان قبلهم، فيؤمنوا حيث لا يغني الايمان عنهم شيئا، كفرعون الذي آمن باللّه لما أيقن بالهلاك و الغرق. الأمر الثاني أن يروا العذاب عيانا وجها لوجه.

و بكلام آخر ان اللّه سبحانه بعد أن بيّن في الآية السابقة انه قدّم الدلائل الواضحة، و أبى أكثر الناس الا الكفر و الجدال بالباطل، بعد هذا قال في هذه الآية: و ما تغني الآيات و النذر عند قوم لا يؤمنون الا عند سكرات الموت، أو حين يهدّدون بالعذاب الذي يرونه بأعينهم و يعتقدون انه نازل بهم لا محالة إذا خالفوا الرسل.

﴿ وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ﴾. هذه هي مهمة الرسل تبشير من أطاع بالنعيم، و إنذار من عصى بالجحيم. و تكرر هذا المعنى أكثر من مرة.

أنظر تفسير الآية ١٦٥ من سورة النساء ج ٢ ص ٤٩٢ ﴿ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً ﴾. أوضح اللّه الحق، و أثبته بالبينات و الدلائل، و لكن الذين كفروا خاصموه و جادلوا فيه، و حاولوا إبطاله و دحضه بالمماراة و الأكاذيب، و بالهزء و السخرية، و ليس المراد من الهزء بآيات اللّه من يسخر بها بلسانه فقط، بل كل من عرف حكما من أحكام اللّه و لم يعمل به فهو من الذين اتخذوا القرآن و دين اللّه لعبا و هزوا، قال الإمام علي عليه السلام: «من قرأ القرآن فمات فدخل النار ـ لأنه لم يعمل بالقرآن ـ فهو ممن اتخذ آيات اللّه هزوا».

[الآيات ٥٧ الى ٥٩]

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴿٥٩﴾

اللغة

أكنة أغطية. و الفقه الفهم. و الوقر الثقل في السمع. و الموئل الملجأ.

الإعراب

المصدر من ان يفقهوه مفعول من أجله لجعلنا أي مخافة ان يفقهوه. و وقرا مفعول لفعل محذوف أي و جعلنا في آذانهم و قرا. و إذا حرف جواب و جزاء. و تلك مبتدأ و القرى عطف بيان، و أهلكناهم خبر، و يجوز ان تكون تلك مفعولا لفعل محذوف يفسره الفعل الموجود أي و أهلكنا تلك القرى أهلكناهم.

المعنى

﴿ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ﴾. أوضح سبحانه الدلائل على وجوده و وجوب طاعته بشتى الأساليب، و ضرب الكثير من الأمثال على ذلك، و أمر الإنسان بالخير و نهاه عن الشر، و ان يتوب مما أسلف من الذنوب، و حذره من مخالفة الأمر و النهي و الإصرار على الذنب، و لكنه أعرض و نأى بجانبه، و أهلك نفسه بفساده و عناده ﴿ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً ﴾. تقدم نظيره مع التفسير في الآية ٢٥ من سورة الأنعام ج ٣ ص ١٧٦ و الآية ٤٦ من سورة الإسراء.

﴿ وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾. و كيف يهتدون؟ و على قلوبهم أغطية، و في آذانهم صمم. و كل من لا ينتفع بالموعظة الحسنة فهو و أعمى القلب و العين و الأصم سواء.

﴿ وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ﴾. تقدم نظيره مع التفسير في الآية ٦١ من سورة النحل ج ٤ ص ٥٢٥ ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ أي ملجأ، و المراد بالموعد هنا وقت اللقاء عند اللّه الذي لا خلف له، و لا مفر عنه، قال الإمام علي عليه السلام مخاطبا ربه: «انت الأبد لا أمد لك، و انت المنتهى لا محيص عنك، و أنت الموعد لا ملجأ منك إلا اليك، بيدك ناصية كل دابة، و اليك مصير كل نسمة».

﴿ وَ تِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾. المراد بالقرى قرى عاد و ثمود و غيرهما من الأمم الخالية، و المهلك الهلاك، و المعنى ان اللّه جعل لهلاك الظالمين وقتا معينا، فإذا جاء لا يستأخرون ساعة و لا يستقدمون.

[الآيات ٦٠ الى ٦٤]

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً ﴿٦٢﴾ قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلاَّ

الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴿٦٣﴾ قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً ﴿٦٤﴾

اللغة

فتاه صاحبه أو خادمه. لا أبرح لا أزال. و الحقب بضم الحاء و القاف، و بضم الأولى و سكون الثانية الدهر و الزمان. و مجمع البحرين المجمع المكان الذي يلتقي فيه البحران، و يصيران بحرا واحدا، و في البحرين أقوال، منها انهما البحر الأبيض و البحر الأحمر، و لو كنت من علماء الجغرافيا لقارنت بين الأقوال و اخترت الصحيح أو الأصح منها. و السرب المسلك. و النصب التعب. فارتدا على آثارهما قصصا أي رجعا في طريقهما يتبعان أثرهما الأول.

الإعراب

لا أبرح من أخوات كان ترفع الاسم و تنصب الخبر، و اسمها ضمير مستتر و خبرها محذوف أي لا أبرح سائرا. و حقبا ظرف منصوب بأمضي. و سربا مفعول ثان لاتخذ، أو في البحر يتعلق بمحذوف مفعولا ثانيا، و سربا منصوب على المصدرية أي سرب الحوت سربا. و هذا عطف بيان من سفرنا. و المصدر من ان اذكره بدل اشتمال من هاء أنسانيه أي ما انساني ذكري إياه إلا الشيطان.

و عجبا صفة لمفعول مطلق محذوف أي اتخاذا عجيبا. و قصصا منصوب على المصدرية أي يقصان الأثر قصصا أو في موضع الحال أي مقتصين.

المعنى

﴿ وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴾. اختلفوا في موسى بطل هذه القصة: هل هو موسى بن عمران أو غيره؟. نقل الرازي عن اليهود انه موسى بن ميشا بن يوسف بن يعقوب، و هو أقدم من موسى بن عمران و اكثر العلماء و المفسرين على انه ابن عمران الشهير، و هو الظاهر. أما فتاه فالمعروف انه يوشع بن نون ابن اخت موسى بن عمران و تلميذه المقرب و خليفته من بعده على بني إسرائيل، أما الذي قال له موسى: هل أتبعك على ان تعلمن مما علمت رشدا .. فالمعروف بين الناس انه الخضر، و لكن اللّه سبحانه سكت عن اسمه، و اسم فتى موسى، فيجمل بنا نحن ان نعبر عن هذا بفتى موسى، و عن ذاك بصاحبه.

و قيل: ان الخضر لقب، أما اسمه فبليا بن ملكان، و اختلفوا: هل هو نبي أو ولي؟. و أيضا قيل: انه من المعمرين الأحياء الى يوم يبعثون، أما نحن فنلتزم السكوت عن نبوته و حياته إذ لا دليل قاطع للشك من

الكتاب أو السنة على واحدة منهما، و لا يمتان الى عقيدتنا و حياتنا بصلة. و قال البعض: انه من الملائكة. و هذا أبعد الأقوال.

و في رواية ان سائلا سأل موسى: أي الناس أعلم؟ قال: أنا .. فأراد اللّه سبحانه ان يعلمه التواضع، و انه فوق كل علم عليم، فأوحى اللّه اليه ان في مجمع البحرين رجلا يعلم أشياء لا تعلمها. فقال له موسى: و كيف لي به؟

قال: تحمل معك حوتا لا حياة فيه، فحيث تفقد الحوت فالعالم هناك، فحمل موسى الحوت، و اصطحب معه فتاه، و جدّا في السير حتى بلغا مجمع البحرين إذ أخذت موسى سنة فنام، و في أثناء نومه انتفض الحوت و قفز الى البحر، فكانت هذه آية من آيات اللّه لموسى.

و سواء استند الراوي الى العيان أو الاستنتاج فإن روايته هذه تلقي ضوء على ما ذكرناه من كلام اللّه بين قوسين في صدر هذا الكلام.

﴿ فَلَمَّا جاوَزا قالَ ـ موسى ـ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً ﴾. بعد أن استراح موسى و فتاه قليلا عند مجمع البحرين استأنفا السير الى أن أدركهما التعب، و أحسا بالجوع، فطلب موسى من فتاه الغداء، و كان الفتى قد شاهد انتفاضة الحوت و قفزته الى البحر، و لكنه نسي أن يخبر موسى بأمره، و لما طلب منه أن يأتي بالغداء تذكر و ﴿ قالَ ـ لموسى ـ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾.

و لما سمع هذا موسى لاحت له دلائل الفوز ببغيته، و ﴿ قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً ﴾ رجع موسى و فتاه الى المكان الذي قفز منه الحوت الى البحر، و سارا على الطريق الذي جاءا منه يتبعان أثرهما الأول.

[الآيات ٦٥ الى ٧٠]

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾ قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴿٦٦﴾ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴿٦٩﴾ قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٧٠﴾

اللغة

الخبر بضم الخاء المعرفة. و الذكر البيان.

الإعراب

تعلّمن أصلها تعلمني، و رشدا مفعول لتعلمن. و خبرا تمييز لأنه بمعنى الفاعل أي لم يحط خبرك به، أو مفعول مطلق لأن لم تحط بمعنى لم تخبر. و عليه يكون المعنى لم تخبر به خبرا.

المعنى

﴿ فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾. من في قوله تعالى: ﴿ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ للتبعيض، و المراد بالعلم هنا علم الغيب أي آتيناه شيئا من علم الغيب، و يومئ بذلك الى خرقه السفينة، و قتله الغلام، و يعتمد الصوفية على هذه الآية لصحة مذهبهم القائل بالعلم اللدني أي العلم تلقائيا و بلا واسطة.

و المعنى ان موسى و فتاه حين وصلا الى المكان الذي كانا فيه وجدا رجلا من عباد اللّه الصالحين، رحمه اللّه و أنعم عليه بعلم وافر نافع، فحياه موسى فرد التحية بأحسن منها .. قال له موسى: انت بغيتي، فهل تصحبني معك، و تعلمني ما أسترشد به و انتفع؟. و قد استدل القائلون بنبوة هذا الرجل الصالح، استدلوا بقوله تعالى: ﴿ آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ﴾ لأن الرحمة هي النبوة .. و يلاحظ بأن الرحمة أعم من النبوة، و وجود العام لا يدل على وجود الخاص، فإذا قلت: أكلت فاكهة فان قولك هذا لا يدل على انك أكلت عنبا، لأن كلمة الفاكهة تشمل العنب و غيره من الفواكه.

﴿ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾. قال الرجل الصالح لموسى: لو صحبتني لرأيت عجبا يثقل عليك السكوت عنه و عدم الاعتراض عليه لأنه منكر في ظاهره، و واقعه مجهول لديك، و أنت لا تستطيع صبرا على المنكرات ﴿ قالَ ـ موسى ـ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾. استثنى موسى في الصبر بقوله ان شاء اللّه خشية أن لا يملك نفسه على السكوت و عدم الاعتراض كما حدث بالفعل ﴿ قالَ ـ صاحب موسى ـ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾. اشترط الرجل الصالح على موسى أن لا يسأله عما يفعل كائنا ما كان، و قبل موسى الشرط لأنه انطلق معه كما يتضح مما يلي:

[الآيات ٧١ الى ٨٣]

فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴿٧١﴾ قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٢﴾ قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴿٧٤﴾ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٥﴾ قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٧٧﴾ قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٨٣﴾

اللغة

المراد بالإمر هنا بكسر الهمزة المنكر الفظيع. و لا ترهقني لا تحملني. و العسر ضد اليسر، و المعنى عاملني باليسر. و استطعما طلبا الطعام. و يريد أن ينقض أشرف على السقوط. و أقامه سوّاه. و التأويل التفسير. و زكاة طهارة. و المراد بالرحم هنا الرحمة. و الكنز المال المدفون. و يبلغا أشدهما يكبرا و يعقلا.

الإعراب

عسرا مفعول ثان لترهقني لأنها بمعنى تحملني. و بغير نفس متعلق بقتلت. و عذرا مفعول بلغت. و المصدر من أن ينقض مفعول يريد أي يريد الانقضاض. و هذا مبتدأ و فراق خبر، و بيني و بينك بمنزلة الكلمة الواحدة أي فراق بيننا. و مساكين ممنوعة من الصرف لأنها على وزن مفاعيل. و غصبا مصدر في موضع الحال أي يأخذها غاصبا، أو قائم مقام المفعول المطلق أي أخذا غصبا. و زكاة تمييز، و مثله رحما، و قال أبو حيان الأندلسي: ان رحما مفعول له لأقرب.

الوقوف عند الشبهة: تدل هذه الآيات ان هناك أمورا ظاهرها الرحمة، و باطنها العذاب، و أخرى بالعكس، و ان الحكم فيها هو التوقف عن الحكم إيجابا و سلبا حتى ينكشف الواقع، و قد تواتر عن الرسول الأعظمﷺ انه قال: «حلال بيّن، و حرام بيّن، و بينهما أمور مشتبهات، لا يدري كثير من الناس أمن الحلال هي أم الحرام؟.

فمن تركها استبراء لدينه و عرضه فقد سلم، و من واقع شيئا منها يوشك أن يقع في الحرام». و في حديث ثان: «الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة».

و روي ان لقمان الحكيم دخل على داود، و هو يصنع الدروع، و لم يكن قد رآها من قبل، و همّ أن يسأله، ثم رأى الصبر أجمل، و لما فرغ داود لبس الدرع، و قال: نعم لباس الحرب. ففهم لقمان ان الدرع وقاية من الطعن و الضرب، فقال: الصمت حكمة، و قليل فاعله .. و قدم العبد الصالح ثلاثة شواهد على هذه الحقيقة، و هي: ١ـ ﴿ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها ﴾. سار موسى و صاحبه على ساحل البحر، و لما وجدا سفينة طلبا من صاحبها أن يحملهما معه، فاستجاب ..

و لكن ما ان توسطت في لجة البحر حتى خرقها العبد الصالح في مكان يمكن أن يتسرب الماء منه، و يتعرض من فيها للغرق، فذعر موسى من هذا المنكر و ﴿ قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي فظيعا، و أخذ موسى ثوبه و حشا به الخرق على عهدة المفسرين ﴿ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾.

يذكره بالشرط، و هو أن لا يسأله عن شيء، فاعتذر اليه موسى و ﴿ قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ ﴾ لأن النسيان لا يقتضي المؤاخذة ﴿ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ لا تضيق عليّ في صحبتي لك.

٢ـ ﴿ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ ﴾. ففزع قلب موسى من القتل و ﴿ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴾. ما ذا جنى هذا المسكين؟ أ تقتله متعمدا دون أن يأتي بجناية؟ ان هذا هو المنكر بعينه. ﴿ قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾. مرة ثانية يذكره بالشرط، و أيضا مرة ثانية يعتذر موسى ﴿ قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي ﴾. من قبل اشترط العبد الصالح على موسى أن لا يسأله، و الآن يشترط موسى على نفسه أن يجعله في حل من صحبته ان سأله، و المؤمنون عند شروطهم، فكيف الأنبياء؟. ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾. قطعت عليّ كل عذر أتعلل به.

٣ـ ﴿ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾. قيل: هي انطاكية، و في رواية عن الإمام جعفر الصادقعليه السلام: انها الناصرة ﴿ اسْتَطْعَما أَهْلَها ﴾ طلبا منهم الطعام ضيافة ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما ﴾. قال المفسرون: انما قال: فأبوا أن يضيفوهما و لم يقل: فأبوا أن يطعموهما ـ للاشارة الى ان أهل القرية كانوا لئاما، لأنه لا يرد

الضيف إلا لئيم، بخاصة إذا كان الضيف غريبا ﴿ فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ ﴾. ضمير فيها للقرية، و ضمير فأقامه للعبد الصالح، و يريد هنا بمعنى يكاد، و كلّ من أراد و كاد تستعمل بمعنى الثانية، و المعنى ان موسى و صاحبه رأيا في القرية حائطا أوشك على السقوط، فسوّاه الثاني و أصلحه بلا مقابل، فعجب موسى من ذلك و ﴿ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾.

أ تصلح الجدار بالمجان لقوم أبوا ضيافتنا، و نحن في أمس الحاجة اليها؟ هلا طلبت أجرا على عملك لننفقه في ثمن الطعام؟.

و خرق السفينة، و قتل الغلام مثالان على ما يبدو شرا في ظاهره دون باطنه، و إقامة الجدار مثال على العكس.

﴿ قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾.اشترط العبد الصالح على موسى ان لا يسأل، و قبل موسى الشرط، و مع ذلك سأل، و لما ذكّر بالشرط اعتذر، و لكنه سأل بعد الاعتذار، و لما ذكّر ثانية قطع على نفسه عهدا أن يجعل العبد الصالح في حل من صحبته ان سأل بعدها ..

و لكنه سأل، و هو الحريص على ان يتخذه العبد الصالح صاحبا .. و موسى عليه السلام معذور في كل ما سأل لأن نفسه تصبر على الخير و المعروف، أما ما تراه منكرا فلا و لن تستطيع عليه صبرا، حيّ و لو أدى ذلك الى مخالفة الوعد و الشرط، و أي وزن للوعود و الشروط إذا أدت الى ترك الأمر بالمعروف، و النهي عن المنكر ..

ان الغرائز النفسية و غيرها لا تصدها و تقاومها إلا قوة أقوى منها و أصلب، و لا شيء أصلب من الايمان الصحيح. انه يتغلب على جميع الأهواء و الشهوات، و من تغلب عليه شيء منها فما هو من الايمان الصحيح في شيء، و ان صلى و صام و حج إلى بيت اللّه الحرام.

هذا فراق بيني و بينك .. لك طريق، ولي طريق .. هكذا قال لموسى صاحبه.

و قبل ان يفترقا أخبره العبد الصالح بحكمة ما أنكر ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾. و العاقل يتحمل الضرر لدفع ضرر أكبر، كما قال الشاعر «تحملت بعض الشر خوف جميعه». و من هنا اتفق الفقهاء على ان الضرر الأشد يدفع بالضرر الأخف، و إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضررا بارتكاب أخفهما، و استخرجوا من هذه القاعدة الكثير من الأحكام، منها جواز قطع العضو الفاسد إذا عرض صاحبه للهلاك.

﴿ وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي أرحم بهما و أبر، و روي عن الامام جعفر الصادق عليه السلام ان الغلام كان في

سن البلوغ، و كان كافرا، و انه كان يعمل جاهدا لحمل أبويه على الكفر، تماما كما يفعل الآن بعض الشباب من غلمان هذا العصر .. و قد أدركنا أكثر من واحد من كبار العلماء بالدين كانوا محل الثقة و التقديس في جميع الأوساط، حتى إذا بلغ غلمانهم هدموا كلما بناه الآباء في السنين الطوال .. و اشتهر عن الإمام علي عليه السلام انه قال: «ما زال الزبير معنا حتى أدرك فرخه عبد اللّه». و يقول أحمد أمين المصري في كتاب حياتي: ها أنا ذا في شيخوختي قد أقبل ما كنت أرفض، و قد أتنازل عن بعض المبادئ التي كنت ألتزم، للواسطة و أحاديث الناس و كثرة الأولاد .. و يعجبني قول القائل:

عصيت هوى نفسي صغيرا و عند ما رماني زماني بالمشيب و بالكبر

أطعت الهوى عكس القضية ليتني ولدت كبيرا ثم عدت الى الصغر

﴿ وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾. المراد بالأشد الحلم و الرشد، و يتلخص المعنى بأن الجدار هو لصغيرين، و تحته مال مدفون، فأراد اللّه سبحانه أن يحمي لهما هذا المال، و يحفظه من الضياع ببقاء الجدار قائما حتى يكبرا أو يعقلا، فيستخرجا المال بأنفسهما، و قد كان أبوهما من أهل الصلاح «و اللّه يصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده و ولد ولده» فأمرني ربي أن أصلحه ففعلت، هذا هو تفسير ما ثقل عليك فهمه و السكوت عنه.

و مكان العظة في هذه القصة ان لا يعجب المرء بنفسه، و لا يبادر الى الحكم على الشيء حكما مطلقا، و هو لا يعرف إلا جهة واحدة من جهاته، بل لا بد من ملاحظة جميع الجهات بدقة، و مقارنة بعضها مع بعض، ثم ملاحظة الأفضل منها، فإن المصالح و المضار متشابكة .. فما من أمر نافع إلا و فيه بعض الضرر، و ما من أمر ضار إلا و فيه بعض النفع، و العبرة دائما بالأكثر.

[الآيات ٨٤ الى ٩٢]

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴿٨٦﴾ قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً ﴿٨٧﴾ وَ أَمَّا

مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً ﴿٩٠﴾ كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٩٢﴾

اللغة

الذكر الخبر، و مكّنا له جعلنا له قوة و سلطانا. و آتيناه من كل شيء سببا أي مهدنا و هيأنا له السبب الذي يوصله الى ما يبتغي و يريد. و مغرب الشمس مكان غروبها في رؤية البصر أي المغرب. و الحمأ الطين الأسود، و عين حمئة ذات طين أسود. و نكرا فظيعا. و مطلع الشمس مكان شروقها بحسب الرؤية أي المشرق.

الإعراب

حمئة صفة لعين على حذف مضاف أي ذات حمأ. و المصدر من أن تعذب مبتدأ و الخبر محذوف. و مثله أن تتخذ أي إما التعذيب واقع منك و إما اتخاذ الأمر الحسن واقع منك. و جزاء الحسنى قرئ برفع جزاء من غير تنوين، و عليه فجزاء مبتدأ مؤخر و الحسنى مجرورة بالاضافة و له خبر مقدم، و قرئ بنصب جزاء مع التنوين، و عليه فالحسنى مبتدأ و له خبر و جزاء حال من ضمير له مثل: في الدار قائما زيد. و كذلك خبر لمبتدأ محذوف أي الأمر كذلك.

المعنى

﴿ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾. اختلفوا في ذي القرنين هذا من هو؟. قيل: انه كان ملكا من الملائكة، و هذا غريب. و قيل: بل هو نبي. و عن الإمام علي عليه السلام انه عبد صالح. و لا ريب في صلاحه، لأن أفعاله و أقواله التي سجلها اللّه في كتابه تشهد له بالفضل و الصلاح. و قيل: هو إسكندر المقدوني تلميذ أرسطو، و كان قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة .. و هذا أغرب الأقوال لأن إسكندر المقدوني و ثني يعبد الأصنام، و ذو القرنين يؤمن باللّه و اليوم الآخر، و نقل الرازي و أبو حيان الأندلسي عن أبي الريحان البيروني ان ذا القرنين عربي يمني من قبيلة حمير، و اسمه أبو بكر.

و أيضا اختلفوا: لما ذا لقب بذي القرنين؟. فقيل: لأنه كريم الأبوين، و قيل: كانت له ضفيرتان، و قيل: لأنه ملك الشرق و الغرب، الى غير ذلك من الأقوال و الخلافات التي لا تمت الى مقاصد القرآن بسبب .. و متى اهتم القرآن بالأسماء و أسباب التسمية؟ و لو كان فيها شيء من النفع و الخير لما سكت عنها.

فغريب من المفسرين أن يشغلوا أنفسهم و الناس معهم بما لا خير فيه دنيا و آخرة.

و من أجل هذا نقف عند ظاهر النص، و نقول: ان أناسا سألوا الرسول الكريم ﷺ عن رجل يقال له ذا القرنين، فأمره اللّه سبحانه أن يقول للسائلين: سأخبركم بطرف من سيرته.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾. و المراد بالسبب هنا كل ما يتوصل به الإنسان الى ما يطلبه و يبتغيه، كالعلم و القدرة و الصحة و المال و الرجال و الآلات، و فوق ذلك توفيق اللّه و عنايته، و قد توافرت هذه القوى بكاملها لذي القرنين، و بها أصبح قويا مهابا، و هذا هو معنى تمكينه في الأرض ..

و تدل الآية دلالة واضحة على ان اللّه سبحانه يوجد الأشياء بأسبابها.

﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾. مهّد اللّه الأسباب و هيأها لذي القرنين، فاغتنمها و استغلها في الخير و صالح الأعمال. من ذلك ذهابه الى المغرب الذي أشار اليه سبحانه بقوله: ﴿ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾. المراد بمغرب الشمس بلاد المغرب، و من الواضح ان الشمس لا تدخل العين فتعين ان يكون المراد بالعين الحمئة البحر الذي يتراءى للإنسان ان الشمس تغيب فيه، و هذا البحر من بحار المغرب، و كان على شاطئه طين أسود، و لكن أي بحر هو؟ اللّه أعلم. و يقول الشيخ المراغي: انه المحيط الأطلنطي.

﴿ وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾. ضمير عندها يعود الى العين، و ظاهر الآية بمفردها يدل على ان اللّه سبحانه ترك لذي القرنين أمر التصرف في أهل تلك البلاد، ان شاء عذبهم، و ان شاء أحسن اليهم .. و من الواضح ان هذا لا يتفق مع عدالته تعالى، و لكن إذا عطفنا هذه الآية على الآيات الآمرة بقتل الكفار و المشركين ان أصروا على الكفر و الشرك، إذا جمعنا الآيات في كلام واحد دلت بمجموعها على ان القوم الذين وجدهم ذو القرنين في المغرب كانوا كفارا، و انه عرض عليهم الايمان فامتنعوا.

و **تسأل**: هل يجوز الإحسان الى الكفار؟.

الجواب: يجوز إذا لم يقاتلونا في الدين، و لم يخرجوا أحدا من دياره، قال تعالى: ﴿ لا يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِياركُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ﴾ ـ ٨ الممتحنة.

﴿ قالَ ـ ذو القرنين ـ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءَ الْحُسْنى وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ﴾. هذا هو الدستور لحكم ذي القرنين و سلطانه، و يتلخص بهذه الكلمة: السيف لمن عصى اللّه، و الحسنى لمن أطاعه .. ان المال و العلم و

السلطان نعمة عظمى يمتحن اللّه بها عباده، فأما الأشرار فتزيدهم كفرا و طغيانا، و اما الأخيار فيتخذونها وسيلة الى طاعة اللّه و مرضاته، كما فعل ذو القرنين.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ رجع ذو القرنين من المغرب الى المشرق الذي أشار اليه تعالى بقوله: ﴿ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً ﴾. المراد بمطلع الشمس المشرق، و ضمير وجدها و دونها يعودان الى الشمس، و المراد بالستر هنا البناء و ما اليه كالأكواخ و الخيام و الكهوف، و المعنى ان ذا القرنين حين وصل إلى بلاد في الشرق وجد قوما في أرض مكشوفة للشمس، و حياتهم بدائية كوحوش الفلوات، و رجح بعض المفسرين ان هذه الأرض تقع على شاطئ افريقية الشرقي .. و لم يذكر سبحانه ما ذا فعل ذو القرنين بهؤلاء: هل أحسن لمن آمن و عمل صالحا منهم، و عذّب من أصر على الكفر، أو تركهم و شأنهم لأنهم كالحيوانات غير مسؤولين عن شيء، أو لسبب آخر؟ اللّه أعلم.

﴿ كَذلِكَ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي هذا هو أمر ذي القرنين الذي أحطنا بجميع أخباره و أحواله.

[الآيات ٩٣ الى ١٠٠]

حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً ﴿٩٧﴾ قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴿٩٩﴾ وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً ﴿١٠٠﴾

اللغة

الخرج بفتح الخاء و سكون الراء الجعل. و الردم الحاجز. و الزبر بضم الزاء و فتح الباء جمع زبرة و هي القطعة. و الصدف جانب الجبل. و القطر النحاس أو الحديد أو الرصاص المذاب. ان يظهروه ان يعلوه. و الصور قرن ينفخ فيه.

الإعراب

ما مكني (ما) اسم موصول مبتدأ، و خير خبر. و ردما مفعول أول لأجعل، و بينكم و بينهم متعلق بمحذوف مفعولا ثانيا. و اسطاعوا أصلها استطاعوا فحذفت التاء تخفيفا. و المصدر من ان يظهروه مفعول لاسطاعوا. و جمعا مفعول مطلق.

المعنى

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾. رجع ذو القرنين الى بلاد ثالثة تقع شرقي البحر الأسود، يسكنها الصقالبة ـ كما قيل ـ و إليها أشار سبحانه بقوله: ﴿ حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾. المراد بالسدين هنا جبلين، و كان القوم الذين وجدهم ذو القرنين هناك لا يفهمون لغته، و لا لغة من معه، و لا هو و من معه يفهمون لغة القوم، و لكنه فهم مطالبهم بالاشارة، أو بواسطة مترجم بدليل قوله تعالى: ﴿ قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾. قال الشيخ المراغي في تفسيره: «يأجوج هم التتر، و مأجوج المغول، و أصلهما من أب واحد يسمى (ترك) و تمتد بلادهم من التبت و الصين الى البحر المتجمد، و منهم جنكيزخان و هلاكو». ثم نقل المراغي عن مجلة المقتطف لسنة ١٨٨٨ ان سد ذي القرنين يقع وراء جيحون في عمالة بلخ، و اسمه الآن باب الحديد، و هو بمقربة من مدينة ترمذ، و ان العالم الألماني «سيلد برجر» ذكره في رحلته التي كانت في أوائل القرن الخامس عشر، و أيضا ذكره المؤرخ الاسباني «كلافيجو» في رحلته سنة ١٤٠٣.

و مهما يكن فقد طلب القوم من ذي القرنين أن يبني لهم سدا يمنع عنهم يأجوج و مأجوج، فقد كانوا يغزون أرضهم، و يسومونهم سوء العذاب قتلا و سبيا و نهبا، و اشترطوا على أنفسهم ان يجعلوا لذي القرنين جعلا في أموالهم إذا هو بنى السد ﴿ قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي ﴾ و أعطاني من السلطان و المال (خير) مما آتاكم اللّه، فأنتم الى مالكم أحوج، فأنفقوه في مصالحكم ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾: المراد بالقوة هنا العمال و أدوات البناء، و بالردم السد و الحاجز ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أي قطعا منه ﴿ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾. الصدفان جانبا الجبلين لأنهما يتصادفان أي يلتقيان، و في الكلام حذف، و تقديره فأتوه بالحديد، فوضع بعضه فوق بعض حتى سد ما بين الجبلين الى أعلاهما، ثم آتوه بالوقود، فأشعل فيه النار، و وضع المنافخ و ﴿ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً ﴾ أي نفخوا فصار السد كالنار اشتعالا و توهجا، و عندها ﴿ قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ و القطر هو الصلب المذاب، فأتوه به فصبه على الحديد المحمي، فالتصق بعضه ببعض، و صار جبلا من حديد.

﴿ فَمَا اسْطاعُوا ﴾ الضمير ليأجوج و مأجوج ﴿ أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ أن يصعدوا من فوقه لارتفاعه و ملاسته ﴿ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ لصلابته و كثافته ﴿ قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾. هذا اشارة الى السد، و في قال ضمير يعود الى ذي القرنين، و قد حمد اللّه سبحانه على هذه الرحمة و النعمة التي أتمها على يده .. و هكذا المؤمن المخلص يتواضع للّه، و يشكره كلما تتابعت نعم اللّه عليه.

و بناء هذا السد أصدق مثال على انه قد كان في تاريخ الانسانية تعاون و تعاطف بين الدول الغنية الكبرى، و الدول الضعيفة «النامية»، بين الشعب الذي يملك أسباب التطور، و الشعب الذي لا يملكها.

و قوة الولايات المتحدة تشبه الى حد بعيد قوة ذي القرنين من حيث ان كلا منهما لا تضارعها قوة في عصرها، و لكن الفرق بعيد جدا من حيث النتائج، فإن ذا القرنين كان بكل ما يملك من قوة ملكا لخير البشرية و اسعادها، أما قوة الولايات المتحدة فهي لحماية الشر و الصهيونية، و للسيطرة على المقدرات و الأسواق و الأفكار لمصلحة الاستعمار و الرجعية بشتى صورها و أشكالها، و الشواهد على ذلك لا يبلغها الإحصاء، فمن مناصرة الصهاينة ضد العرب الى تغذية العنصرية في بلادها و في روديسيا، و من الانقلابات العسكرية في افريقيا و غيرها الى ضرب القوى التحررية في الكونغو و في كل مكان، أما فيتنام فقد حشدت لتدميرها الجيوش، و عبأت كل ما لديها، و لكن صمود الشعب الفيتنامي لقّن الولايات المتحدة درسا في الهوان و الذل لا تنساه مدى الحياة .. و كل ما حققته الولايات المتحدة من النجاح فهو جزئي مؤقت يذهب مع نضال الشعوب الذي يزداد يوما بعد يوم.

﴿ فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾. ضمير جعله للسد، و دكاء أي مستويا مع الأرض، و المعنى أنه متى دنا الوقت الذي يخرج فيه يأجوج و مأجوج من وراء السد هيأ اللّه أسباب هدمه و زواله ﴿ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ لا ريب فيه، قال الشيخ المراغي: «و قد جاء وعده تعالى بخروج جنكيز خان و سلائله فعاثوا في الأرض فسادا». و في تفسير الرازي ان وعد اللّه هنا يوم القيامة، و في تفسير الطبرسي ان هذا الوعد يأتي بعد قتل الدجّال، أما نحن فنميل إلى قول المراغي لأنه أقرب الى قوله تعالى: ﴿ وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾. فانّا نفهم منه ان يأجوج و مأجوج ينتشرون في الأرض بعد خراب السد، و يفسدون على الناس حياتهم، قال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ ـ ٩٦ الأنبياء.

هذا، الى أنه لو كان المراد بمجيء وعده تعالى يوم القيامة أو بعد الدجال لكان السد موجودا الآن كما هو .. و من الواضح انه لو كان لبان، بخاصة و قد جعل العلم الكرة الأرضية و سكانها أشبه بالأسرة

الواحدة يضمها بيت واحد ﴿ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴾. و هذا اليوم هو خاتمة المطاف للأولين و الآخرين.

و في تفسير الطبري ان رسول اللّه ﷺ سئل عن الصور؟. فقال: هو قرن ينفخ فيه. و بعد، فإن الذي قلناه عن يأجوج و مأجوج، أو نقلناه عن الغير إنما هو على التقريب، لا على التحقيق، لأنا لم نجد مصدرا يركن اليه، و من أجل هذا نكتفي بما دل عليه ظاهر القرآن الكريم، و نترك التفاصيل إلى غيرنا.

[الآيات ١٠١ الى ١٠٧]

الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴿١٠١﴾ أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴿١٠٤﴾ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ﴿١٠٥﴾ ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾

اللغة

نزلا ما يهيّؤ للنزيل، و هو الضيف. و أيضا يطلق على المنزل.

الإعراب

حسب تتعدى إلى مفعولين، و المصدر من ان يتخذوا سادّ مسدهما. و أعمالا تمييز. و الذين ضل خبر لمبتدأ محذوف، فكأنه قيل: من هم الأخسرون؟ فقيل: هم الذين ضل الخ. و وزنا مفعول نقيم أي فلا نجعل لهم ثقلا، و قال أبو البقاء: تمييز أو حال. و ذلك مبتدأ و جزاؤهم خبر، و جهنم بدل من «جزاؤهم».

المعنى

﴿ وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً ﴾. يشاهد المجرمون غدا منازلهم في جهنم قبل ان يقادوا اليها، ليكتووا بنارين: نار الرعب، و نار الحريق ﴿ الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾. الذكر يسمع بالأذن، و لا يرى بالعين، و عليه يكون غطاء العين هنا كناية عن حقد الكافرين على رسول اللّه ﷺ و المؤمنين، و انهم كانوا لا يطيقون النظر اليه ﷺ و اليهم ﴿ وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ لذكر اللّه من

رسوله الكريم. و بكلمة ان المجرمين لا يطيقون سماع الحق، و لا النظر الى أهله .. و هذا ما نشاهده بالعيان، و هو نتيجة حتمية للصراع بين الحق و الباطل، و الخير و الشر.

﴿ أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ ﴾. المراد بعبادي هنا المخلوقات التي اتخذها المشركون أنصارا من دون اللّه، و في الكلام حذف أي أ فحسب هؤلاء انّا غافلون عنهم؟ .. كلا ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلًا ﴾.

هيأنا لهم مكانا في جهنم يليق بشأنهم .. و هذا تماما كقولك لمن تستخف به و تحتقره: أ تحسب اني لا أقدرك، كيف و أنت كهذا الحذاء؟

قيمة الإنسان

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾. و يتلخص المعنى بأن أخسر الناس صفقة، و أخيبهم سعيا هو الجاهل المركب الذي يرى جهله علما، و شره خيرا، و إساءته إحسانا ..

و ليس من شك ان هذا خائب خاسر في الدنيا لأنه يعيش في غير واقعه، و هو كذلك في الآخرة لأنه يلقى اللّه غدا بالجهل و الغرور و سوء الأعمال.

و تومئ الآية الى ان قيمة الإنسان الحقيقية لا تقاس بنظرته الى نفسه، لأن الخصم لا يكون حكما، و لا بنظرة الناس اليه، لأنهم يسعون الخائبين و المنافقين عمليا، و ان ضاقوا بهم نظريا، و انما تقاس قيمة الإنسان بقيم القرآن و مبادئه، و الالتزام بتعاليمه و أحكامه، تقاس بالصدق و العدل و نصرة الحق و أهله، و التضحية في سبيل ذلك بالنفس و المال، و القرآن الكريم مليء بهذا النوع من التعاليم، مثل قوله تعالى: ﴿ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ .. كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ .. كُونُوا أَنْصارَ اللَّهِ .. كُونُوا رَبَّانِيِّينَ .. جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ ﴾. و في قوله: إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ، غنى عن كل شاهد.

و **تسأل**: ان المخطئ يرى نفسه مصيبا، و انه قد أحسن صنعا باصابة الواقع، فينبغي أن يكون من الأخسرين أعمالا، مع انه لا عصمة إلا لمن له العصمة؟.

الجواب: ان المخطئ على قسمين: الأول أن يخطئ بعد البحث و التدقيق، تماما كما يفعل الأكفاء بحيث تكون النتيجة التي توصّل اليها هي غاية ما يمكن أن يتوصل اليها العالم المجد .. و ليس من شك ان هذا المخطئ ليس من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، و ان خطأه لا عيب فيه، بل ان صاحبه مأجور على ما بذل من جهد، كما جاء في الحديث الشريف، على شريطة أن يكون على نية الرجوع عن خطئه متى انكشف له الصواب.

القسم الثاني: أن يخطئ لأنه جزم و حكم بمجرد الحدس و الوهم، و قبل أن يبحث و يلاحظ، لأنه يجهل أصول البحث و الملاحظة العلمية، أو يعرفها و لم يستعملها إطلاقا، أو استعملها ناقصة، فحكم قبل أن يستكمل و يستوعب جميع الملاحظات، و هذا المخطئ من الأخسرين أعمالا، ما في ذلك ريب، لأن اللّه سبحانه أمر بالتدبر و التثبت، و نهى عن التسرع و القول بغير علم.

و بعد، فإن الدرس الذي يجب أن نستفيده من هذه الآية هو أن نكون صادقين مع أنفسنا، فلا نصفها بغير ما هي فيه، و لا نخدعها بالقول الكاذب .. و أيضا يجب أن نحاسبها حين توحي إلينا بالغرور و التعاظم قبل أن يحاسبنا اللّه و الناس، و أن لا نتخذ موقفا نتمسك فيه بآرائنا و أقوالنا، فنعتقد انها مقدسة لا يمكن الارتياب فيها بحال .. ان الخطأ جائز على الجميع بل و مكتوب أيضا .. و الغريب ان الأدعياء يسلّمون بهذا المبدأ، و لكنهم ينكرون نتيجته الحتمية.

﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ ﴾. أولئك اشارة للأخسرين أعمالا، و قرينة السياق تدل على ان المراد بالذين كفروا بآيات ربهم و لقائه هم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ سواء أكفروا بالبعث، أم آمنوا به، فالعبرة عند اللّه بالايمان و العمل معا، لا بمجرد الايمان ﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ﴾ أي قدرا لأنه لا كرامة عند اللّه إلا لمن اتقى.

﴿ ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً ﴾. كفرا باللّه، و سخروا من الحق و أهله، و هذا منتهى الفساد و الضلال، و النار هي الغاية لكل ضال فاسد.

[الآيات ١٠٨ الى ١١٠]

خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴿١١٠﴾

اللغة

الفردوس البستان. و الحول التحول. و المراد بالمداد هنا الحبر.

الإعراب

خالدين حال. و مددا تمييز.

المعنى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾. بعد أن توعد سبحانه الكافرين بجهنم وعد المؤمنين بالجنة، و الفردوس من المنازل العليا في الجنة، قال الرسول الأعظمﷺ: إذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس ﴿ خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلًا ﴾. و الحول التحول، و المعنى ان اللّه سبحانه يجزي المؤمنين الصالحين بما لا يرضون عنه بديلا، فهو كاف واف بجميع ما يبتغون، و تومئ الآية الى انه لا طمع في الآخرة، و إلا فإن الطامع لا يقنعه شيء.

﴿ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾. البحر اسم جنس يشمل كل البحار، و المداد الحبر، و نفد انقطع و فني، و المراد بقبل أن ينفد ان كلماته تعالى لا تنفد إطلاقا، و جئنا بمثله مددا أي زدنا عليه ما يماثله في الكثرة، و المعنى لو فرض ان البحار بكاملها حبر يكتب به كلمات اللّه لأنتهي الحبر، و بقيت كلماته الى ما لا نهاية، و في معنى الآية قوله تعالى: ﴿ وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ ﴾ ـ ٢٧ لقمان.

و ليس المراد بكلمات اللّه هنا الألفاظ المؤلفة من الحروف الهجائية، و لا الأمر الفعلي الذي هو عبارة عن قوله كن فيكون، لأن هذا الأمر واحد لا تعدد فيه: ﴿ وَ ما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴾ ـ ٥٠ القمر، و إنما المراد بكلماته هنا القدرة على إيجاد الكائنات متى شاء، سواء أقال لها كوني بالفعل، أم يقول في المستقبل القريب أو البعيد، و هذه القدرة لا آخر لها و لا نهاية، أما البحار و الأشجار و مثلها معها فهي متناهية، و كل متناه إلى نفاد.

و بكلام آخر ان كل شيء موجود أو سيوجد ـ ما عدا اللّه ـ فهو بائد و منقطع، أما قدرته تعالى على إيجاد الأشياء فهي باقية ببقائه .. و نوضح الفكرة بهذا المثال: رجل يعرف اصول الزراعة، فمعرفته بهذه الأصول تلازم ذاته، و لا تفارقها، أما زرعه و غرسه فيفنى و يزول، و قدرة اللّه سبحانه لا تشح و لا تنضب لأنها أزلية أبدية، أما خلقه فحادث، و لكل حادث بداية، و لكل بداية نهاية.

﴿ قُلْ إِنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لا أمتاز عنكم بشيء إلا انه ﴿ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ﴾ قال ابن عباس: «علّم اللّه نبيه التواضع بهذه الآية، فأمره ان يقر على نفسه بأنه آدمي كغيره سوى ان اللّه أكرمه بالوحي» و نعطف نحن على قول ابن عباس: و لئلا يقول المسلمون في محمدﷺ ما قاله النصارى في عيسىعليه السلام.

﴿ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ ﴾ و حسابه و ثوابه و عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾. و كل من عمل لغير اللّه فقد أشرك بعبادته، سواء أقال بتعدد الآلهة، أم لم يقل، و الفرق ان القول شرك علني، و الرياء شرك خفي، و في الحديث: «من صلى رياء فقد أشرك، و من صام رياء فقد أشرك» و على هذه الصلاة، و هذا الصيام فقس ما سواهما.

سورۃ مریم

[الآيات ١ الى ٦]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

اللغة

الوهن الضعف. و اشتعل الرأس شيبا استعارة من اشتعال النار للشيب. و المراد بالشقي هنا الخائب أي ما خيبتني من قبل في دعائي إياك. و الموالي أقارب الرجل من جهة الأب. و من ورائي من بعدي. و وليا أي وارثا. و رضيا مرضيا عندك.

الإعراب

ذكر خبر لمبتدأ محذوف أي هذا ذكر. و عبده مفعول لرحمة لأن المعنى ان ربك رحم عبده أو مفعول لفعل محذوف أي أعني عبده. و زكريا بدل من عبده. و شيبا تمييز محول عن فاعل، لأن المعنى اشتعل شيب الرأس.

المعنى

﴿كهيعص﴾ تقدم نظيره مع التفسير في أول سورة البقرة ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾. في هذه الآيات يقص سبحانه على نبيه محمدﷺ: كيف رحم عبده و نبيه زكريا، و أنعم عليه بولده يحيى .. و زكريا من نسل سليمان ابن داود، و كان متزوجا بخالة مريم، و كان كافلا لها، و تقدمت الاشارة الى ذلك عند تفسير الآية ٣٨ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٣. و قيل ان زكريا كان نجارا ﴿إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا﴾. دعا اللّه بينه و بينه: و ﴿قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. تقدم السن بزكريا دون أن يرزق ولدا، و لذا تضرع الى اللّه شاكيا ضعفه و شيخوخته، و قال فيما قال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْداً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوارِثِينَ﴾ ـ ٨٩ الأنبياء. أدعوك يا إلهي، و أنا غير يائس من فضلك و رحمتك: كيف؟ و لم تخيب من قبل رجائي فيك، و حاشاك ان توجهني في حاجتي الى سواك.

﴿وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾. زكريا شيخ كبير، و امرأته عجوز عقيم، فخاف ان جاء أجله ان يرثه بنو عمومته، و هم من بني إسرائيل، و قيل: انهم كانوا من شرار الناس .. و ليس هذا ببعيد على إسرائيل ..

فإذا ورثوه أساءوا الى الناس، و أفسدوا عليهم دينهم و دنياهم، و رغم شيخوخة زكريا و عقم زوجته فإنه كان عظيم الثقة بخالقه، و لذا دعاه أن يجبر كسره، و يقضي حاجته.

[الآيات ٧ الى ١١]

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً ﴿٩﴾ قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴿١١﴾

اللغة

عتيا أي بلغ من الكبر الى حال يبست معها مفاصله و عظامه. و الآية العلامة. و سويا صحيحا سليما من كل آفة. و المحراب المصلّى.

الإعراب

اسمه يحيي مبتدأ و خبر، و الجملة صفة لغلام. و انّى خبر مقدم ليكون. و سويا حال من ضمير تكلم. و ان سبحوا (ان) مفسرة بمعنى أي.

المغني: ﴿ يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾. استجاب اللّه دعاء زكريا، و بشره بأنه سيولد له ذكر، و ان اللّه سبحانه سماه بحيي، و هو في صلب أبيه، و ما سمي أحد من قبله بهذا الاسم. و قيل: ان يحيى هو يوحنا المعروف بالمعداني عند المسيحيين.

﴿ قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾. ليس هذا استبعادا، بل تعظيما و شكرا لأنعم اللّه و قدرته التي تخطت السنن و العادات، فهو شيخ كبير، و زوجته عجوز عقيم، و مع هذا قد منّ اللّه بالعطاء، و أنعم بالولد.

﴿ قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾.

قائل القولين واحد، و هو اللّه أي ان اللّه قال لزكريا: قال ربك الخ، و قد جرى كثير من المؤلفين المسلمين على ذلك، فيقول أحدهم: «قال محمد هو ابن مالك» يعني نفسه، و مثله قول الطبري عن نفسه: قال ابو جعفر محمد بن جرير الطبري .. و لا شيء صعب على اللّه، فالأشياء لديه سواء لا يحتاج وجودها الا الى كلمة «كن»

﴿ قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴾. المراد بأوحى اليهم أومأ اليهم بيده أو كتب. لأنه ممنوع عن الكلام. و تقدم التفصيل عند تفسير الآية ٤١ من سورة آل عمران ج ٢ ص ٥٤.

[الآيات ١٢ الى ١٥]

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

اللغة

المراد بالكتاب هنا التوراة. و الحنان العطف و الرحمة. و الزكاة الطهارة. و التقوى طاعة اللّه. و الجبار المتعالي الذي لا يخضع لشيء. و العصي العاصي. و السلام الأمان.

الإعراب

بقوة متعلق بمحذوف حالا من يحيى. و صبيا حال. و حنانا عطف على الحكم. و برا عطف على «تقيا».

المعنى

﴿ يا يَحْيى ﴾ اكتفى سبحانه بهذا النداء عن القول: ان يحيى قد ولد، و انه أصبح يعقل و يفهم ما يقال له، و قادرا على العمل بالتوراة، و هي الكتاب الذي عناه اللّه بقوله: ﴿ خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ ﴾ و معنى أخذه بقوة التزام العمل به بجد و اخلاص. ثم وصف سبحانه يحيى بالأوصاف التالية: ﴿ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾. المراد بإيتاء الحكم صبيا التفقه بالدين في سن مبكرة، و هذه نعمة من اللّه خص بها يحيى، كما خصه بالولادة من أبوين كبيرين، و اللّه سبحانه يختص برحمته من يشاء، و في بعض الروايات ان الغلمان قالوا يوما ليحيى: هيا بنا نلعب. فقال: ما للعب خلقنا، اذهبوا بنا للصلاة. و الحنان الرحمة بالعباد، و الزكاة الطهارة و القداسة، و التقوى طاعة اللّه، و البر بالوالدين ضد العقوق، و قوله تعالى: ﴿ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴾ عطف تفسير، لأن الزكي التقي غير الجبار العصي.

﴿ وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾. هذا كناية عن أن يحيى مرضي عند اللّه دنيا و آخرة، و من الواضح ان رضاه تعالى نتيجة طبيعية للنعوت التي نعت اللّه بها يحيى عليه السلام.

و تسأل: لما ذا خص اللّه يحيى بهذه الصفات الجلى، و هو صبي؟.

الجواب: ان للّه شئونا في خلقه، فقد يمنح الفضل للصغار، و يمنع الكبار منه، و لكلّ من عطائه و منعه حكمة قد تدركها العقول، و قد تعجز عن إدراكها ..

و لكنها تحاول، و غير بعيد أن يكون القصد من اتصاف يحيى بهذه الصفات في مثل سنه هو إلقاء الحجة على بني إسرائيل إذا اختلفوا فيه، و لم يستجيبوا لنصحه و دعوته، و قد خلق اللّه عيسى من غير أب ﴿لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا﴾ و تأتي هذه الآية في المقطع التالي.

و برغم هذه الحجة الدامغة فقد عصوا يحيى و تمردوا عليه، و أخيرا قتلوه و قتلوا أباه، لا لشيء إلا لنهيهما عن المنكر .. و لا يكثر هذا على من قال عن اللّه: يداه مغلولتان .. هو الفقير و نحن الأغنياء.

و في قصص الأنبياء ان هيرودوس حاكم فلسطين آنذاك عشق هيروديا بنت أخيه لجمالها، و عزم على الزواج منها، و لما أنكر ذلك يحيى سخطت عليه هيروديا، و اشترطت على عمها أن يكون رأس يحيى مهرا لها، فذبحه و أهداها الرأس ..

و اشتهرت الرواية عن علي بن الحسين بن علي عليه السلام: ان أباه حين توجه الى العراق كان يكثر من ذكر يحيى، و يقول: من هوان الدنيا على اللّه ان رأس يحيى بن زكريا اهدي الى بغي من بغايا بني إسرائيل.

[الآيات ١٦ الى ٢١]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾

اللغة

انتبذت اعتزلت. و مكانا شرقيا الى جهة الشرق. و روحنا جبريل. و سويا كامل البنية. و أعوذ اعتصم. و مقضيا محتوما.

الإعراب

مريم على حذف مضاف أي خبر مريم. و مكانا ظرف منصوب بانتبذت أي في مكان شرقي. و بشرا سويا حال لأن المعنى تمثل كائنا على صورة البشر السوي. و أنّى خبر مقدم ليكون. و كان أمرا اسم كان محذوف أي و كان خلقه أمرا مقضيا.

المعنىٰ

﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً ﴾. يدل ظاهر الآية ان مريم اعتزلت عن أهلها، و خلت بنفسها في مكان شرقي، و انها جعلت بينهم و بينها سترا، بحيث لا تراهم و لا يرونها. و لما ذا اعتزلت مريم؟ أ لأنها رأت ما تكره، أو لتنصرف الى العبادة أو لغير ذلك؟ و هل المراد بالمكان الشرقي المكان الذي تشرق عليه الشمس، أو المكان الذي يقع شرقي بيت المقدس، أو شرقي دار أهلها؟. و أيضا ما هو نوع الحجاب الذي اتخذته من دونهم هل هو حائط أو كوخ؟ .. لا شيء في الآية يشير الى الجواب عن هذه التساؤلات، لأنها لا تمت الى العقيدة و لا الى الحياة بسبب. و غير بعيد أن يكون اللّه سبحانه قد ألهمها الى هذه الخلوة ليعلمها جبريل بولادة عيسىعليه السلام، و هي في معزل عن الناس.

﴿ فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا ﴾. المراد بروحنا جبريل، و قد تمثل أمامها في صورة انسان تام الخلقة. و في بعض التفاسير انه جاءها في صورة الإنسان لتأنس به، و في تفسير ثان انها خافت منه و ذعرت لهذه المفاجأة .. غريب يقتحم عليها من غير استئذان، و هي في عزلتها؟. ان هذا لشيء مريب ..

و هذا القول أرجح و أصح بدليل انها فزعت و ﴿ قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾. استجير باللّه من شرك ان كنت تؤمن به و بحسابه و عذابه، خوّفته من اللّه لأنها لا تملك وسيلة لردعه في مقامها هذا سوى التخويف من اللّه، و إلا فهي مستجيرة باللّه متوكلة عليه، سواء أ كان الذي خافته تقيا، أم شقيا.

﴿ قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾. تبشرني بغلام؟. كيف؟. و من أين؟. و لا زوج لي، و لا اقدم على الخيانة و الفجور .. ﴿ قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ﴾. قال لها الروح الأمين: ان أسباب الولادة لا تنحصر عند اللّه بالمضاجعة و المواقعة، فكما أوجد الأشياء بأسبابها المألوفة فانه يوجدها أيضا بكلمة «كن» تماما كما أوجد الكون من لا شيء، و آدم من غير أب و أم .. و قد شاء سبحانه أن يجعل مولودك دليلا واضحا على عظمة الخالق، و نبوة المولود، و ان يكون رحمة للانسانية، و حجة دامغة على بني إسرائيل الذين حاولوا قتله. و شرحنا ذلك مفصلا عند تفسير الآية ٤٥ و ما بعدها من سورة آل عمران ج ٢ ص ٦١.

[الآيات ٢٢ الى ٢٦]

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾

اللغة

قصيا بعيدا. و فأجاءها الأصل جاء فدخلت همزة التعدية على الفعل فصار أجاءها مثل أقامه و أقعده. و المخاض الطلق. و النسي الشيء الحقير الذي لا يؤبه له. و للسري معان في اللغة، منها الجدول و القائد. و الجني من الثمر ما نضج و صلح للاجتناء و القطف.

الإعراب

ان لا تحزني (ان) مفسرة بمعنى أي و لا ناهية. و بجذع النخلة الباء زائدة اعرابا. و فاعل تساقط ضمير مستتر يعود الى النخلة. و رطبا حال منه. و إما مركبة من كلمتين (ان) الشرطية و ما الزائدة .. و ترين مضارع خوطبت به المرأة، و دخلت عليه نون التوكيد.

المعنى

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا ﴾ قيل: ان جبريل نفخ في قميصها، فكانت نفخته سببا للحمل، و مصدر هذا القول ظاهر الآية ٩١ من سورة الأنبياء: ﴿ وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا ﴾. و الآية ١٢ من سورة التحريم: ﴿ وَ مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَها فَنَفَخْنا فِيهِ مِنْ رُوحِنا ﴾. و قد أشرنا أكثر من مرة الى ان آيات القرآن يفسر بعضها بعضا لأن مصدرها واحد، و إذا لا حظنا جميع الآيات الواردة بعيسى و مريم عليهما السلام، إذا لاحظناها على هذا المبدأ فهمنا من مجموعها ان المراد من النفخ الخلق و الإلقاء، و ان المراد من الروح عيسى بالذات.

و الآية ١٧١ من سورة النساء تشعر بذلك، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ وَ رُوحٌ مِنْهُ ﴾. و كلمته هي «كن» التي يخلق بها الأشياء، و معنى القائها الى مريم ان مريم أو بطنها هي مكان المخلوق.

أنظر ج ٢ ص ٥٠٠. و مهما يكن فإن مريم لما أحست بالحمل ابتعدت عن أهلها حياء و تحرجا.

﴿ فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾. المخاض الطلق و مقدمات الولادة، و أجاءها بمعنى جاء بها، و الأصل جاء، ثم دخلت همزة التعدية فصارت أجاءها مثل أجلسه و أنامه. قال الرازي: «أجاء منقول من جاء إلا ان استعماله تغير الى معنى الإلجاء» و عليه يكون المعنى ان المخاض ألجأها الى جذع النخلة لتستند اليه طلبا لتيسير الولادة ﴿ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾. هذه الكلمة و أمثالها ينطق بها كل انسان عند الأزمات و اشتداد الأمر عليه، ينفس بها عن همه و كربه، و ما على قائلها من غضاضة ما لم يكن شاكا في دينه، و لا مرتابا بيقينه.

﴿ فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾. المراد بالسري جدول الماء .. و أول ما يتبادر الى الأذهان من سياق الكلام ان المنادي هو عيسى عليه السلام و ليس جبريل، كما زعم كثير من المفسرين، و هذا النداء من معجزات عيسى، تماما كولادته و إحيائه الموتى، قال عيسى في ندائه لأمه ﴿ وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴾. قيل: لم يكن الفصل فصل الرطب، و ان حمل النخلة له كان من باب المعجزة، و ليس هذا ببعيد لأن اللفظ يشعر به، و ان الوضع الذي كانت فيه مريم معجزات في معجزات.

﴿ فَكُلِي ﴾ من الرطب ﴿ وَ اشْرَبِي ﴾ من الجدول ﴿ وَ قَرِّي عَيْناً ﴾ طيبي نفسا بمولودك المبارك ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ و سألك عن المولود ﴿ فَقُولِي ﴾ بالإيماء و الاشارة: ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً ﴾ بالسكوت، و قد كان صوم الاسرائيليين آنذاك ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾. و لا شيء لدينا ما نقوله هنا إلا شرح الكلمات شرحا لغويا، حيث لا مجال للعقل في هذا الموضوع، ما دام ظاهر اللفظ لا يصطدم مع حكم العقل. انظر فقرة الممتنع عقلا و الممتنع عادة ج ٢ ص ٦١.

[الآيات ٢٧ الى ٣٥]

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَ بَرًّا بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

اللغة

فريا من الفرية، و المراد بها هنا دعوى الولادة بلا أب. و المهد الموضع يهيأ للصبي. و المراد بالكتاب الإنجيل.

الإعراب

جملة تحمله حال. و كيف نكلم (كيف) حال أي على ايّ حال نكلم، أو مفعول مطلق على معنى أي كلام نكلم. و من كان (كان) تامة بمعنى وجد، و صبيا حال. و أينما (اين) شرط و ما زائدة. و ما دمت حيا (ما) مصدرية ظرفية أي مدة دوام حياتي.

المعنى

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ ﴾. وضعت مريم وليدها، فحملته الى قومها، و هي آمنة مطمئنة لأن الحمل الذي تسبب في اتهامها هو أصدق شاهد على نزاهتها ﴿ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴾ بدعواك الحمل من غير دنس و مواقعة .. انها محض افتراء ﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ﴾ هو أخو موسى، و هي من نسله، و القصد تذكيرها بأصلها الطيب، و انه إذا زكا الأصل يجب ان يزكو الفرع، فكيف صدر منها ما لم يصدر مثله عن أصلها ﴿ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾. فمن تشبهين انت بفعلتك هذه التي لا يقدم عليها إلا من كانت بنتا لرجل سوء، او بنت امرأة بغي!.

﴿ فَأَشارَتْ إِلَيْهِ ﴾ تستشهده على براءتها، و هو أصدق الشاهدين، لأنه ينطق بلسان اللّه ﴿ قالُوا ﴾ متعجبين: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾. و لكن الذي في المهد كلمهم قبل ان يكلموه و ﴿ قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أي سيجعلني نبيا فيما بعد، لأن الرضيع لا يكون قدوة للناس، و حجة عليهم، كيف و هو غير مسؤول عن أقواله و أفعاله فهل يكون مسؤولا عن تبليغ رسالات اللّه الى عباده؟. و فيما سبق نقلنا عن الأناجيل ان عيسى بعث في سن الثلاثين، و انما تكلم في المهد لتبرئة أمه من الزنا و الفجور، لا لأنه نبي مرسل، انظر عيسى و نبوة الأطفال ج ٣ ص ١٤٤.

﴿ وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ ﴾. و كل من ينفع الناس بجهة من الجهات فهو مبارك و ميمون، و كل من يضار بواحد من الناس فضلا عن الجماعة فهو شر و شؤم و فساد ﴿ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا وَ بَرًّا بِوالِدَتِي ﴾. لقد أقر بهذا على نفسه بالطاعة و العبودية للّه، و نفى أن يكون إلها أو ولدا للإله أو شريكا له كما يزعم النصارى ﴿ وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴾ كما يزعم اليهود، بل هو عبد صالح، و نبي مرسل كما يعتقد المسلمون ﴿ وَ السَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ سبق نظيره قريبا في الآية ١٥.

﴿ ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أي يشكون و يختلفون. هذه هي كلمة الحق و العلم و العدل في السيد المسيح، لا هو جبار شقي كما قال اليهود، و لا هو إله أو ابنه أو شريكه كما قال النصارى .. انه نبي يبلغ رسالات ربه، و عبد من عباده يصلي و يزكي، و هو مبارك ينفع الناس، و متواضع محسن لأمه و غيرها.

﴿ ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾. و لو كان للّه أولاد لاحتكروا لأنفسهم جميع خيراته و بركاته، و منعوها عن كل مخلوق، و أفسدوا ما أصلح الأب، و ملأوا الكون شرا و ضلالا تماما كما يفعل بعض أبناء القادة في هذا العصر. و تقدم نظير هذه الآية في سورة آل عمران الآية ٥٩، و سورة الإسراء الآية ١١١.

[الآيات ٣٦ الى ٤٠]

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْها وَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

اللغة

المراد بالأحزاب طوائف أهل الكتاب. و من بينهم أي ان الاختلاف لم يخرج عنهم كما تقول اختلفوا فيما بينهم. و الويل الخزي و الهوان. و يوم الحسرة يوم القيامة.

الإعراب

أسمع بهم و أبصر اللفظ لفظ الأمر، و المعنى الخبر مع التعجب، و الباء زائدة، و الضمير في محل رفع فاعلا لأسمع، و مثله أحسن بزيد أي حسن زيد، أو ما أحسنه. و إذ قضي (إذ) بدل من يوم الحسرة.

المعنى

﴿ وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾: هذه الآية عطف على قول عيسى: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ الخ ﴾ يأمرهم فيها أن يعبدوا إلها واحدا، و لا يشركوا به شيئا، و ان دين التوحيد هو الطريق القويم من سلكه نجا، و من ضل عنه هوى ﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ و هم قوم عيسى، قالت

طائفة منهم: ان عيسى هو اللّه هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، و قالت ثانية: هو ابن اللّه، و قالت ثالثة: هو عبد اللّه .. كان هذا الخلاف فيما مضى، أما اليوم فهم متفقون على ربوبية عيسى.

﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾. و المراد بالذين كفروا هنا الطائفة الأولى القائلة: ان المسيح هو اللّه، و الثانية القائلة: هو ابن اللّه، و هذه الآية تعبير ثان عن قوله تعالى: ﴿ ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ ـ ٢٧ ص. ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ﴾ حين يرى الكافرون العذاب يوم القيامة يقولون: ﴿ رَبَّنا أَبْصَرْنا وَ سَمِعْنا ﴾ ـ الحق ـ ﴿ فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ ـ ١٢ السجدة، و كانوا من قبل إذا دعوا إلى الحق يقولون: ﴿ قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَ فِي آذانِنا وَقْرٌ ﴾ ـ ٥ فصلت ﴿ لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ المراد باليوم هنا يوم القيامة، و بالضلال العذاب، حيث لا طريق في ذاك اليوم لا إلى الهداية، و لا إلى الضلالة، بل حساب و جزاء، و لا شيء سواهما.

﴿ وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾. الخطاب في أنذرهم للنبي صلى الله عليه وآله، و يوم الحسرة هو يوم القيامة، و سمي بذلك لأن النفس المجرمة تقول غدا: ﴿ يا حَسْرَتى عَلى ما فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَ إِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾ ـ ٥٦ الزمر، و قضي الأمر آنذاك حيث لا اقالة و لا رجعة، و هم في غفلة الآن حيث يمكنهم أن يرجعوا عن كفرهم و ضلالهم، و يطلبوا من اللّه العفو و الصفح، و لكنهم لم يفعلوا، و استمروا في طغيانهم يعمهون، و قوله تعالى: ﴿ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ معناه انهم لا يصدقون قولنا: انهم سيبعثون، بل يلوون رؤوسهم، و هم يسخرون.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ ﴾. الأرض و من عليها للّه، و لا أحد يملك معه شيئا، و الإنسان فيها عابر غير مقيم، و كل ما في يده عارية مسؤول عنها و محاسب عليها .. و بالاختصار ان هذه الآية ترادف كلمة انّا للّه و انا اليه راجعون. و القصد منها تخويف العصاة و زجرهم من جهة، و التخفيف من حزن النبي صلى الله عليه وآله و ألمه لإعراض الكافرين عن دعوته من جهة ثانية.

[الآيات ٤١ الى ٥٠]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴿٤٢﴾ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ

يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

اللغة

الصدّيق مبالغة في الصدق و الإخلاص. و الصراط السوي الطريق القويم. و مليا دهرا طويلا. و حفيا كثير الحفاوة و الاعتناء. و شقيا خائبا في مسعاه.

الإعراب

إذ قال (إذ) ظرف متعلق بصديق. أبت أصلها أبي فحذفت ياء المتكلم و عوّض عنها بالتاء المكسورة و لا يقال ذلك إلا في النداء، فلا يجوز قال ابتي، و قالت امتي ـ كما في مجمع البيان ـ و شيئا مفعول مطلق. و راغب مبتدأ و أنت فاعل ساد مسد الخبر مثل أ قائم زيد. و مليا ظرف منصوب باهجرني و المصدر من ان لا أكون فاعل عسى، و هي هنا تامة. و كلا مفعول مقدم لجعلنا.

المعنى

﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾. المراد بالكتاب هنا القرآن، و الصدق من أكمل الصفات و أفضلها، و الذي نفهمه من وصف ابراهيم بالنبوة بعد وصفه بالصدق انه صادق بطبعه و فطرته و ان لم يكن نبيا.

عند تفسير الآية ٧٤ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢١٢ ذكرنا اختلاف العلماء في المراد من أبي ابراهيم المذكور في القرآن: هل هو الأب الحقيقي، أو الأب المجازي أي أخو الأب، و قلنا: انه لا جدوى من هذا النزاع، و ان على المسلم أن يؤمن بنبوة ابراهيم عليه السلام، أما الاعتقاد بإسلام أبيه فليس من الدين في شيء، و بخاصة ان ظاهر القرآن يدل على كفره.

و مهما يكن فإن ابراهيم دعا أباه الحقيقي أو المجازي الى الإسلام، و قال له فيما قال: ﴿ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾.

كان أبوه يعبد الأصنام، فاحتج عليه بمنطق العقل و الفطرة .. أحجار صماء، لا تنفع و لا تضر تعبدها و تسجد لها؟ فأين عقلك و فهمك؟.

﴿ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ﴾. كل الناس الذين يرفضون عبادة الأصنام هم أعلم و أعقل ممن يعبدها، فكيف الأنبياء الذين يتلقون العلم من اللّه؟. و إذا كان الجهل ببعض الأمور عذرا يتذرع به الجاهل فإن الأصنام هي نفسها لا تدع لمن يعبدها عذرا و لا عاذرا.

﴿ يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ﴾. المراد بعبادة الشيطان طاعته لأن من أطاع شيئا فقد عبده، و على هذا فكل من عصى اللّه في شيء فقد عبد الشيطان ﴿ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ﴾ أي مواليا، و يجوز أن يكون «وليا» على ظاهره، و يكون المعنى ان الشيطان هو الموالي لعبدة الأصنام من باب المبالغة، تماما كما تقول: الناس يتعوذون من الشيطان، و الشيطان يتعوذ من فلان، و على كل تقدير فإن القصد التخويف و التحذير من طاعة الشيطان و متابعته.

﴿ قالَ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾. في ذات يوم من أيام دراستنا في النجف كنّا نتحلق نحن التلاميذ حول الأستاذ، و هو يشرح و يوضح مسألة هامة من مسائل أصول الفقه، و بعد أن أيقن و اطمأن الى تفهم الجميع ختم الدروس .. و لكن سرعان ما فوجئ باعتراض من أحد التلاميذ، و كان اعتراضه بعيدا كل البعد عن موضوع الدرس .. فأعرض عنه الأستاذ، و نظر الى سائر التلاميذ و قال: كان فيما مضى تلميذ يدرس الصوم و أحكامه، و استمر في دراسته أكثر من شهر، و بعد الانتهاء من دراسته ظن الأستاذ ان تلميذه قد أحاط علما بالصوم من كل جهاته، و لكن التلميذ قال للأستاذ: انك تكلمت و أطلت الشرح عن الصوم، و لكن لم نفهم هل الصوم في الليل أو في النهار؟.

و هذا بالذات ما حصل لإبراهيم مع أبيه .. فبعد أن أورد له الأدلة بأساليب شتى، و استعطفه بقوله: يا أبت أربع مرات أجابه بقوله: أ راغب أنت عن آلهتي؟ و هل أنت عازم حقا على أن لا تعبدها معي؟ فإن كنت على هذا العزم فما لك عندي إلا القتل أو الرجم، أو تغيب عن عيني، و تهرب بنفسك.

﴿ قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا ﴾. أي ان اللّه عوّده على أن يستجيب له. تقدم نظيره في الآية ١١٤ من سورة التوبة ج ٤ ص ١١٠ ﴿ وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ أَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾. بغض ابراهيم قومه و أهله في اللّه، و هجرهم للّه، فأبدله سبحانه خيرا منهم، حيث وهبه اسحق، و من بعده يعقوب بن اسحق، و شرفهما بالنبوة. و هذا هو المراد بقوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ كُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا ﴾. و ما ترك أحد شيئا من أمور دنياه لاستصلاح دينه إلا عوضه اللّه خيرا منه.

﴿ وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا ﴾ لم يذكر سبحانه نوع الموهوب، لأن كلمة رحمتنا تومئ اليه، و كفى بمرضاة اللّه هبة و نعمة ﴿ وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾.

المراد بلسان الصدق ما يردده الناس جيلا بعد جيل من حسن الثناء على ابراهيم و اسحق و إسماعيل و يعقوب.

و ترتكز هذه الآيات على ان من أخلص اللّه استخلصه اللّه، و كان معه أينما كان تماما كما فعل بإبراهيم عليه السلام.

[الآيات ٥١ الى ٥٨]

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَإِسْرائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنا وَاجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

اللغة

الطور جبل بين مصر و مدين. و نجيا مناجيا. و اجتبينا اصطفينا.

الإعراب

نجيا حال من ضمير قربناه. و هرون بدل من «أخاه» و نبيا حال من هرون. و عند ربه متعلق «بمرضيا». و مكانا ظرف منصوب برفعناه. و سجدا و بكيا حال أي ساجدين باكين.

المعنى

﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾. المراد بالكتاب القرآن، و مخلصا بفتح اللام معناه ان اللّه قد أخلصه من كل ما يشين، و اصطفاه لنفسه، و معناه بكسر اللام ان اقوال موسى و أفعاله كلها خالصة لوجه اللّه، و معنى الرسول و النبي واحد، و الاختلاف انما هو بالنظر و الاعتبار، فمن

حيث انه يحمل رسالة اللّه يقال له رسول، و من حيث انه ينبئ بها الذين أرسل اليهم يقال نبي، و قيل: ان الرسول يتلقى الوحي و يبلغ، و النبي يتلقى و لا يبلغ. و لا جدوى من هذا البحث.

﴿ وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا ﴾. الطور هو الجبل الذي كلم اللّه موسى عليه، و المراد بالأيمن يمين موسى لأن الجبل لا يمين له و لا شمال، و المراد بقربناه نجيا قرب المكانة لا قرب المكان، و المعنى ان اللّه شرف موسى بالنبوة و الرسالة، و كلمه بلا واسطة رسول، بل كان الكلام يأتيه من جهة يمينه، كما تقول: سمعت صوتا من خلفي أو يميني ﴿ وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا ﴾. يشير سبحانه بهذا الى قضية سابقة، و هي ان اللّه سبحانه حين أمر موسى بالذهاب الى فرعون قال له موسى فيما قال: ﴿ وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ ـ ٣٠ طه فاستجاب له المولى و ﴿ قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى ﴾.

الوفاء: ﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ وَ كانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ المعنى واضح لا يحتاج الى تفسير، و من المفيد أن نتكلم عن الوفاء لمناسبة قوله تعالى: كان صادق الوعد.

لقد أثنى سبحانه على إسماعيل بأنه إذا وعد بشيء أنجز وعده، و ذكر المفسرون ان إسماعيل وعد صاحبا له أن ينتظره في مكان، فتأخر الرجل، و انتظر إسماعيل ثلاثة أيام أو أكثر .. و سواء أصحت هذه الرواية، أم لم تصح فإنها ترمز الى ان على الإنسان أن يبذل غاية ما يستطيع للوفاء بوعده، و ان من يتهرب من الوفاء فلا ينبغي أن يؤتمن على شيء، بل لنا ان نصفه بالكذب و الغدر، حتى و لو كان في الوفاء خسارة مادية، لأن الخسران في الدين أعظم، فقد جاءت الرواية ان الوفاء بالعهد من علامات أهل الدين، و ان الدين المعاملة، و قد اشتهر ان من لا وفاء له لا دين له .. و قرأت كلمة في الوفاء اقتنطف منها ما يلي: «ان من يحمل الظروف تبعة الخلف بالوعد فإنما يحاول أن يهرب من اتهام نفسه، فيتهم الظروف .. و الوفاء كلمة جميلة الوقع في الاذن، و جميلة الوقع في الحياة، و أعني بالوفاء، الوفاء للأهل و الأصدقاء، و العمل و المبدأ و الوطن، و أخيرا للانسانية جمعاء .. و الوفاء يجعلك تحب الحياة، و الغدر يجعلك تكره الحياة و معنى الوفاء للأهل و الأصدقاء ان تعمل من أجلهم دون مقابل، و الوفاء للوطن حيث يحتاج الى التضحية و الفداء».

﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾. أثنى عليه سبحانه بالصدق و النبوة. ﴿ وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ﴾. المراد بالمكان هنا المكانة و المنزلة. و قيل: إنّ اللّه رفعه إلى السماء الرابعة، و قال آخرون: بل السادسة رجما بالغيب. و في التفاسير أيضا ان إدريس هو جد لأبي نوح، و انه أول من خاط الثياب، و

خط بالقلم، و نظر في النجوم، و تعلم الحساب .. و لا ندري من أين استقى المفسرون هذه المعلومات .. و للأديب الشهير توفيق الحكيم المصري مسرحية، أسماها إزيس، و قال: ان إزيس هذه هي زوجة أوزريس الذي نكل به الملك طيفون ..

و يقال: ان اوزريس هذا هو إدريس الذي أشار اليه القرآن. و كل هذه الأقوال حدس و خيال.

﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا ﴾. قال الرازي و الطبرسي: المراد بالنبيين من ذرية آدم إدريس لأنه أسبق الجميع، و أقرب إلى آدم من نوح، و المراد بذرية من حمل مع نوح ابراهيم لأنه من ولد سام، و المراد بذرية ابراهيم اسحق و إسماعيل و يعقوب، و إسرائيل هو يعقوب، و من ذريته موسى و هرون و زكريا و يحيي و عيسى من جهة الأم، و كل هؤلاء و غيرهم ممن هداهم اللّه و اصطفاهم للنبوة يتضرعون للّه خاشعين خوفا من غضبه و عذابه، مع انهم يخلصون للّه و بأمره يعملون. فبالأولى أن يستشعر الخوف منه تعالى و يتوب اليه من تجرأ على معصيته.

[الآيات ٥٩ الى ٦٥]

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴿٦٠﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلاَّ سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

اللغة

الخلف بفتح اللام النسل الصالح، و بسكونها النسل الطالح، و هو المراد هنا و قد يستعمل كل منهما في معنى الآخر. و الغي الخسران، و يستعمل في الضلال. و العدن الاقامة. و مأتيا آتيا، اسم فاعل بصيغة اسم المفعول. و اللغو فضول الكلام. و السمي الشبيه و المثيل.

الإعراب

إلا من تاب استثناء متصل من ضمير يلقون. و شيئا مفعول مطلق. و جنات عدن بدل من الجنة في قوله: يدخلون الجنة. و بالغيب متعلق بمحذوف حالا من جنات عدن أي كائنة بالغيب. و ضمير انه يعود الى اللّه. و سلاما مستثنى منقطع أي و لكن يسمعون سلاما. و رب السموات و الأرض بدل من ربك، و يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أي هو رب السموات.

المعنى

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ﴾. بعد ان ذكر سبحانه الأنبياء الاطهار أشار الى خلفهم الأشرار، و وصفهم بأنهم تركوا عبادة الرحمن، و اتبعوا الشيطان، و يتلخص المعنى بهذه الكلمة: نعم السلف، و بئس الخلف. ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ شرا و عذابا جزاء على معصيتهم و تمردهم ﴿ إِلَّا مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾. و أحسن تفسير لهذه الآية قول الرسول الأعظم ﷺ: التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

و تقدم نظير هذه الآية في سورة الأنعام الآية ٥٤ ج ٣ ص ١٩٧.

﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ قائمة دائمة، لا ينقطع نعيمها، و لا يظعن مقيمها ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾. المراد بعباده هنا المؤمنون المخلصون، و بالغيب أي انهم آمنوا بالجنة و عملوا لها، و هم غائبون عنها، و هي غائبة عنهم، و قد مدح اللّه المؤمنين بالغيب في العديد من آياته ﴿ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾. ضمير انه يعود الى اللّه، و المعنى ان اللّه لا يخلف الميعاد.

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴾. في الحياة الدنيا لغو و كذب و مهاترات، أما في الجنة فقول كريم، و رزق مقيم. و البكرة و العشي كناية عن الدوام، إذ لا صباح و لا مساء في الجنة ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴾. و كلمة نورث تشعر بأن الجنة ملك المتقين، قال تعالى: ﴿ أُولئِكَ هُمُ الْوارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيها خالِدُونَ ﴾ ـ ١١ المؤمنون.

﴿ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ ﴾. في تفسير الطبري و الطبرسي ان رسول اللّه ﷺ استبطأ نزول الوحي عليه، و لما جاءه جبريل قال له: ما منعك ان تزورنا أكثر مما تزورنا؟. فنزلت هذه الآية.

و ظاهرها يتفق مع مضمون الرواية المذكورة بخاصة قوله تعالى: ﴿ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ و المعنى ان الأمر في نزول الوحي للّه وحده فهو المالك لكل شيء، و المحيط علما بكل شيء في أي زمان أو مكان

كان و يكون .. و قوله: ما بين أيدينا اشارة الى ما يأتي، و ما خلفنا اشارة الى ما مضى، و ما بين ذلك اشارة الى الحاضر.

﴿ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما ﴾ و من كان ربا للكون يستحيل في حقه النسيان ﴿ فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ ﴾. هذا أمر من اللّه تعالى لنبيه الكريم ان يمضي في مهمة التبليغ لأنها من أعظم العبادات و الطاعات، و ان يصبر على ما يلاقيه من الأذى في سبيل ذلك ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾. فاللّه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع صفات الجلال و الكمال، و من كان كذلك وجبت عبادته و طاعته.

[الآيات ٦٦ الى ٧٢]

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴿٦٧﴾ فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

اللغة

يذكر أي يتذكر. و جثيا جمع جاث، و هو البارك على ركبتيه. و الشيعة الجماعة المتعاونون على أمر واحد. و العتي و العتو بمعنى واحد، و هو التكبر و التمرد. و الصلي مصدر صلى النار.

الإعراب

إذا متعلقة بمحذوف أي أ أبعث إذا مت. و حيا حال. و الشياطين مفعول معه لنحشرنهم. و جثيا حال. و أيهم اسم موصول مبني على الضم، و محله النصب بننزعن، و أشد خبر لمبتدأ محذوف، و التقدير الذي هو أشد. و الجملة من المبتدأ و الخبر صلة الموصول. و عتيا تمييز، و مثله صليا. و ان منكم إلا واردها (ان) نافية، و واردها خبر لمبتدأ محذوف، و الجملة من المبتدأ و الخبر خبر لمبتدأ محذوف أي ما أحد منكم إلا هو واردها. و جثيا حال. و كان على ربك اسم كان محذوف أي كان الورود.

المعنى

﴿ وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ يتلخص المعنى بأنه لا شيء لدى منكر البعث يتذرع به إلا التعجب و الاستبعاد: كيف تعود الحياة

الى الإنسان بعد ان تفارقه؟. و الجواب يعيدها ثانية من جاء بها أولا ﴿ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾. و تكرر ذلك في العديد من الآيات. انظر ج ١ ص ٧٧ و ٢ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٣٧٨ و ما بعدها.

﴿ فَوَ رَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ﴾. ضمير الغائب في لنحشرنهم يعود إلى منكري البعث، و المراد بالحشر إخراجهم من قبورهم أذلاء خاسئين مع الذين أضلوهم عن الحق ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾. بعد أن يخرجوا من قبورهم على أسوأ حال تقعدهم الملائكة على الركب حول جهنم لينظروا اليها، فيزدادوا حسرات و أنّات.

﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ﴾. و بعد ان يتحلقوا حول جهنم جاثين على الركب، و هم فرق و طوائف يأخذ اللّه أولا من كل فرقة الرؤساء و القادة العتاة، و يلقي بهم في جهنم، ثم الأعتى فالأعتى، و يوضع كل واحد في المكان اللائق به من عذاب الحريق ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا ﴾. ان اللّه سبحانه يعلم السيئات التي يجترحها الإنسان في سره و علنه، و يجازيه بما يستحق، فصاحب الكبيرة له العذاب الأكبر، ثم الأدنى فالأدنى: ﴿ وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ ـ ٤٩ الكهف.

﴿ وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا ﴾. المراد بالورود هنا الرؤية و المشاهدة لأن المؤمنين عن النار مبعدون، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ ﴾ ـ ١٠١ الأنبياء.

و لأن عذاب المطيع يتنافى مع عدل اللّه و فضله. و معنى الآية ما من أحد إلا و يرى النار عيانا يوم القيامة صالحا كان أم طالحا، فالطالح يراها و يدخلها جاثيا على ركبتيه، و الصالح يراها و يتجاوزها حامدا شاكرا نعمة النجاة و الخلاص من كلبها و لجبها: ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فازَ ﴾ ـ ١٨٥ آل عمران.

[الآيات ٧٣ الى ٧٦]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ

أَضْعَفُ جُنْداً ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾

اللغة

الندي المجلس. و القرن أهل كل عصر. و الأثاث أدوات البيت. و الرئي المنظر و الهيئة. و المد الامهال. و الجند الأنصار. و المرد المرجع و العاقبة.

الإعراب

مقاما و نديا تمييز. و كم في محل نصب بأهلكنا و المميز محذوف أي كم قرنا أهلكنا. و أثاثا تمييز. إما العذاب و اما الساعة بدل من (ما) في قوله تعالى: رأوا ما يوعدون. و من هو شر (من) اسم موصول مفعول لسيعلمون، و هو مبتدأ و شر خبر، و الجملة صلة الموصول. و مكانا و جندا و ثوابا و مردا تمييز.

المعنى

﴿ وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾. ضمير عليهم يعود إلى مشركي قريش، و آيات اللّه البينات دلائله الواضحة، و الفريقان هما المؤمنون و المشركون، و المعنى ان النبي و الصحابة يحتجون على المشركين بمنطق العقل و الفطرة، و المشركون يجابهون هذا المنطق بمنطق المعدة و فلسفتها و يقولون: نحن أطيب و أوسع عيشا وافرة مسكنا، و أحسن أثاثا.

فلسفة المعدة: كان ابيقور من فلاسفة اليونان المعاصرين لتلامذة أرسطو، و له مذهب انفرد به عمن عاصره و تقدم عليه، و يتلخص بأن اللذة هي الخير الأسمى، و الألم هو الشر الأقصى، و ان الفضيلة تستمد قيمتها من اللذات المعنوية كالصداقة و حياة الهدوء و الراحة، و من اللذات الحسية كالطعام و الشراب .. و في ضوء هذه الفلسفة قال: على الإنسان أن لا يندفع وراء أهوائه و رغباته من أجل لذة قصيرة الأمد يعقبها ألم طويل الأمد .. و بكلمة ان الخير كل الخير عند ابيقور يقوم في اللذة الدنيوية ـ هو لا يؤمن بالبعث ـ سواء أ تمثلت اللذة في المعدة، أو في غيرها، و إذا اقترنت اللذة بالألم فالعبرة بالأكثر، فما كان أكثر لذة فهو خير، و ما كان أكثر ألما فهو شر.

و هناك فلسفة قديمة تتفق مع ابيقور في ان كل الخير في اللذة الدنيوية، و لكنها تختلف معه في التحديد، فهو يقول: ان الخير في اللذة المعنوية و الحسية معا، و هي تقول: ان الخير في لذة المعدة، و ما اليها من المظاهر الحسية .. و من أهل هذه الفلسفة فرعون و مشركو قريش .. فقد أنكر فرعون نبوة موسى عليه السلام، و

برر إنكاره بقوله: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ ـ ٥٣ الزخرف. و قال أيضا: أنا ربكم الأعلى ..

و لما ذا؟ فأجاب: ﴿ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ ﴾؟

و أنكرت قريش نبوة محمدﷺ، و احتجت بقولها: ﴿ لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ ﴾ ـ ١٢ هود. و كما قال فرعون: أليس لي ملك مصر؟ و قالت قريش: نحن أكثر مالا، و أعز نفرا .. و لا تختص فلسفة المعدة هذه بفرعون و مشركي قريش، و لا بالمترفين و أهل الثراء فكل من احترم شخصا و قدره لماله فهو من الذين آمنوا بفلسفة المعدة و حشوها، و دانوا بأن الخير كل الخير فيها و في امتلائها.

و لقد قرأت فيما قرأت كلمة لعميل مأجور قال فيها: ان الذين يلومون الولايات المتحدة على قواعدها الحربية، و على ضربها قوى التحرر في كل مكان، و على سلبها مقدرات الشعوب المستضعفة، ان هؤلاء اللائمين ينسون أو يتناسون ان الولايات المتحدة أقوى علما، و أكثر مالا من كل الشعوب، و من كان الأعلى علما و مالا يجب ان يطغى و يستبد .. و كنت أحسب ان فلسفة المعدة قد ولت مع عصر الظلمات حتى قرأت كلمة هذا الدخيل فأدركت ان لهذه الفلسفة جذورا عميقة في نفوس الأدعياء و العملاء.

﴿ وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً ﴾. تقدم نظيره في الآية ٦ من سورة الانعام ج ٣ ص ١٦٢ ﴿ قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَ إِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَ أَضْعَفُ جُنْداً ﴾. أمر اللّه نبيه الكريم ان يقول للذين يرون الخير في حشو المعدة: ان هذا الذي تفتخرون به من السعة في العيش هو ابتلاء يمتحن اللّه به عباده، و يمهلهم أمدا غير قصير، فان شكروا أنعم اللّه عليهم بالثواب و حسن المآب، و ان ازدادوا كفرا و طغيانا سلط عليهم من يسومهم سوء العذاب في الحياة الدنيا، أو يعذبهم اللّه العذاب الأكبر في اليوم الآخر .. و عندها يعلمون أي الفريقين أسوأ حالا: المؤمنين الفقراء، أو الكافرين الأغنياء؟ و لو ان إنسانا ملك كل ما طلعت عليه الشمس لم يكن هذا الملك شيئا مذكورا بالقياس إلى أدنى عذاب من حريق جهنم .. قال علي أمير المؤمنينعليه السلام: «ما خير بخير بعده النار، و ما شر بشر بعده الجنة، و كل نعيم دون الجنة محقور، و كل بلاء دون النار عافية».

﴿ وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ﴾. و ذلك بأن يعرفهم بحقيقة أنفسهم، و بمواقع الخطأ و الصواب .. و هذه هي الهداية و النعمة الكبرى ﴿ وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ مَرَدًّا ﴾. و المرد هو

المرجع و العاقبة، و الباقيات الصالحات العلم و العمل النافع، و هما خير من المال و الجاه لأنهما دائما باقيان لا ينقطع نفعهما و ثوابهما، أما الجاه و المال فإلى هلاك و زوال.

[الآيات ٧٧ الى ٨٧]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً ﴿٨٠﴾ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً ﴿٨٥﴾ وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴿٨٦﴾ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴿٨٧﴾

اللغة

سنكتب ما يقول أي ان أقواله محفوظة عليه. و نمد له من العذاب نزيده منه. و المراد بنرثه نسلبه، و ما يقول اشارة إلى المال و الولد المذكورين في قول الكافر: ﴿ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً ﴾. و المراد بالضد الأعداء. و تؤزهم تزعجهم. و الوفد جمع وافد، و هو القادم. و ورد أي يردون جهنم كما ترد الدواب الماء.

الإعراب

أطّلع أصلها أ اطلع همزة الاستفهام الانكاري، و همزة الوصل، فحذفت إحداهما تخفيفا. و قال ابن هشام في كتاب المغني: «كلا عند سيبويه و الخليل و المبرد و الزجاج و أكثر البصريين حرف معناه الردع و الزجر، و لا معنى لها عندهم إلا ذلك». و فردا حال. و نعد مضارع و مفعوله محذوف أي نعد أعمالهم. و لا يملكون الضمير يعود إلى المجرمين. إلا من اتخذ استثناء منقطع أي لكن من اتخذ.

المعنى

﴿ أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالًا وَ وَلَداً ﴾. جاء في كتب الأحاديث و التفاسير ان العاص بن وائل والد عمرو بن العاص لما سمع بذكر البعث قال مستهزئا: لأوتين في الآخرة مالا و ولدا .. و لفظ الآية ظاهر في ان زنديقا قال هذا، أما ذكر الأسماء و تعيين الأشخاص فما هو من طريقة القرآن، و مثل هذه الآية قول صاحب الجنة: ﴿ وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً ﴾ ـ ٣٦ الكهف و قد

رد سبحانه هذا الزعم بقوله: ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴾ من أين جاءه هذا العلم؟ هل عنده مفاتيح الغيب، أم أخذ ميثاقا من اللّه بذلك؟ (كلا) لا هذا و لا ذاك ..

انه كافر فاجر ﴿ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ﴾. لقد حفظنا عليه أقواله، و سنزيده من أجلها عذابا على عذاب جزاء كفره و افترائه.

﴿ وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ وَ يَأْتِينا فَرْداً ﴾ و أيضا سنسلبه ما لديه من مال و ولد، و ذلك بموته و إهلاكه، و نبعثه يوم القيامة وحيدا فريدا تماما كما خلقناه أول مرة ﴿ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا ﴾ لأن من اعتز بغير اللّه ألبسه ثوب الذل ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾. ضمير يكفرون و يكونون يعود الى المعبودين، و ضمير عليهم الى العابدين، و أوضح تفسير لهذه الآية ما جاء في نهج البلاغة: «عن قليل يتبرأ التابع من المتبوع، و القائد من المقود، فيتزايلون بالبغضاء، و يتلاعنون عند اللقاء. و قال تعالى: ﴿ تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ﴾ ـ ٦٣ القصص. بل كانوا يعبدون أهواءهم و أغراضهم.

﴿ أَ لَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾. أي تزعجهم و تهيجهم و تدفع بهم الى المعاصي، و المعنى ان اللّه سبحانه يخلي بينهم و بين الشياطين الذين يوسوسون لهم و يغرونهم بالمعاصي، و لا يتدخل بإرادته التكوينية لردع الشياطين عنهم، و انما يبين لهم طريق الخير و الشر، و يمنحهم القدرة التامة على الفعل و الترك، و ينهاهم عن هذا، و يأمرهم بذاك، و يترك لهم الخيار فيما يفعلون و يتركون .. و لو سلبهم الارادة لكانوا و الجماد سواء.

﴿ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾. لا تعجل يا محمد باهلاك الكافرين فإنه آت لا محالة، و لكن اللّه يؤخرهم الى أجل مسمى ليحصي عليهم أعمالهم ثم يجازيهم عليها بما يستحقون .. فإنه لا خير في طول الحياة إلا لمن آمن و عمل صالحا، اما من كفر و اجترح السيئات فحياته و بال عليه: ﴿ وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ ﴾ ـ ١٧٨ آل عمران.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً ﴾. و كلمة الوفد تشعر بالتشريف و التكريم، و المعنى ان اهل اللّه و طاعته يفدون عليه غدا معززين مكرمين ﴿ وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ .. للمؤمنين الكرامة بالوفادة، و للمجرمين الهوان بالسوق، تماما كما تساق البهائم الى ورود الماء يساق المجرمون الى ورود جهنم، و بئس الورد المورود ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴾. كل من و في

بعهد اللّه و لم يخنه في كبيرة و لا صغيرة فقد أعطاه اللّه عهدا بالفوز و النجاة، و بالشفاعة لمن هو أهل لها: ﴿ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ ـ ٤٠ البقرة.

[الآيات ٨٨ الى ٩٨]

وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً ﴿٩١﴾ وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴿٩٨﴾

اللغة

الراد المنكر. و تتفطر تنشق. و تخر تسقط. و اللّد جمع ألد، و هو الشديد في خصومته. و الركز الصوت الخفي.

الإعراب

المصدر من دعوا مفعول من أجله أي نخر لدعوتهم. و المصدر من أن يتخذ فاعل ينبغي. و ان نافية و كل مبتدأ و آتي خبر أي ما منهم أحد إلا آتي. و عبدا حال أي مملوكا. و فردا حال. و كم مفعول أهلكنا و المميز محذوف أي كم قرنا أهلكنا. و من زائدة اعرابا، و أحد مفعول تحس.

المعنى

﴿ وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً ﴾. لقد هدد اللّه سبحانه الذين جعلوا له بنين و بناتا. و توعدهم في الكثير من آياته، منها الآية ١١٦ من سورة البقرة ج ١ ص ١٨٦ و الآية ٤٨ من سورة النساء ج ٢ ص ٣٤٤ و الآية ١٧١ من سورة النساء أيضا ج ٢ ص ٤٩٩ و الآية ١٠١ من سورة الأنعام ج ٣ ص ٢٣٧.

ثم ذكر سبحانه قولهم هنا بهذا الأسلوب الرهيب .. و هو ان دل على شيء فإنما يدل على ان الإنسان يجرأ على ما لا يجرأ عليه كائن في الأرض و لا في السماء ..

فلقد تجرأ على خالقه، و هو يعيش في كنفه، و نسب اليه ما تنشق السماء، و تخسف الأرض، و تسقط الجبال لمجرد سماعه.

و **تسأل**: و لم هذه الانتفاضة الكونية لكلمة تفوه بها من تفوه عن جهل و ضعف عقل؟.

الجواب: ان هذه الانتفاضة أو الغضبة الإلهية ليست على فرد أو على جماعة معدودين، و انما هي على هذا الشرك الذي أصبح دينا و عقيدة تدين بها مئات الملايين جيلا بعد جيل .. على هذه التماثيل للإله الطفل و الإلاهة الأم .. ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كانا يَأْكُلانِ الطَّعامَ ـ ٧٥ المائدة.

﴿ وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾. لأن الولد شبيه بوالده، و اللّه ليس كمثله شيء، و لأن اتخاذ الولد انما يكون لحاجة الوالد اليه، و اللّه غني عن العالمين.

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ﴾. ما من كائن سفلي أو علوي إلا هو عبد للّه يملك منه ما لا يملكه العبد من نفسه .. و بديهة ان المملوك غير الولد، و المالك غير الوالد ﴿ لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً ﴾. ضمير أحصاهم وعدّهم يعود إلى من في السموات و الأرض، و ضمير آتيه إلى اللّه، و المعنى ان اللّه لا يغيب عن علمه شيء في الأرض و لا في السماء، و ان كل مسؤول يأتي الى اللّه يوم المحشر وحيدا لا ناصر له و لا معين و لا يملك من أمر نفسه كثيرا و لا قليلا فضلا عن أمر غيره، و من يأتي اللّه كذلك فكيف يكون ولدا له.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ﴾. ان اللّه سبحانه يحدث في قلوب عباده مودة لأهل الايمان و الإخلاص لا لشيء إلا تقديرا للفضيلة و الخلق الكريم. قال محمد بن أحمد الكلبي صاحب (التسهيل): قيل: ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب. و قال الشيخ المراغي، و هو أحد شيوخ الأزهر: «اخرج ابن مردويه و الديلمي عن البراء ان رسول اللّهﷺ قال لعلي: قل اللهم اجعل لي عندك عهدا، و اجعل لي في صدور المؤمنين ودا، فنزلت الآية».

النصارى و بنو هاشم: و قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط: «ذكر النقاش ان هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب، و قال محمد بن الحنفية: لا تجد مؤمنا إلا و هو يحب عليا .. و من غريب هذا ـ الكلام لأبي حيان ـ ما أنشدنا الإمام اللغوي رضا الدين أبو عبد اللّه محمد بن علي بن يوسف الانصاري الشاطبي لزبينا ابن اسحق النصراني الرسغي:

عديّ و تيم لا أحاول ذكرهم بسوء و لكني محب لهاشم

و ما تعتريني في علي و رهطه إذا ذكروا في اللّه لومة لائم

يقولون ما بال النصارى تحبهم و أهل النهى من أعرب و أعاجم

فقلت لهم اني لأحسب حبهم سرى في قلوب الخلق حتى البهائم

﴿ فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا ﴾. المراد باللد الذين يتشددون في الخصومة و الجدل، و المعنى ان اللّه أنزل القرآن بلغة العرب ليسهل عليهم معرفته و فهم معانيه، و يكون بشيرا لمن آمن و اتقى، و نذيرا لمن كفر و بغى. و مر نظيره في سورة يوسف الآية ٢ ج ٤ ص ٢٨٦.

﴿ وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾. أي هل تسمع لهم صوتا، و القصد ان اللّه قد أبادهم عن آخرهم، و تقدم مثله في الآية ٧٤ من هذه السورة، و الآية ١٧ من سورة الإسراء.

المسيرة الدراسية فى تفسير القرآن الكريم

مباحث المعنى
من مجمع البيان في تفسير القرآن

تفسير سورتي الكهف - مريم

المجلّد الخامس

سورة الكهف

سورة الكهف

مكية و آياتها عشر و مائة

أبى بن كعب عن النبى ﷺ قال: «من قرأها فهو معصوم ثمانية أيام من كل فتنة فإن خرج الدجال في تلك الثمانية الأيام عصمه الله من فتنة الدجال و من قرأ الآية التي في آخرها ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ الآية حين يأخذ مضجعه كان له في مضجعه نور يتلألأ إلى الكعبة حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم من مضجعه فإن كان في مكة فتلاها كان له نورا يتلألأ إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ».

سمرة بن جندب عن النبى ﷺ قال: «من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظا لم تضره فتنة الدجال و من قرأ السورة كلها دخل الجنة». و عن النبى ﷺ قال: «ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء و الأرض قالوا: بلى. قال: سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى و زيادة ثلاثة أيام و أعطي نورا يبلغ السماء و وقى فتنة الدجال».

و روى الواقدى بإسناده عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال: «**من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف ثم أدرك الدجال لم يضره و من حفظ خواتيم سورة الكهف. كانت له نورا يوم القيامة**».
و روى أيضا بالإسناد عن سعيد بن محمد الجزمى عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال: «**من قرأ الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ستة أيام من كل فتنة تكون فإن خرج الدجال عصم منه**».
و روى العياشى بإسناده عن الحسن بن على بن أبى حمزة عن أبيه عن أبى عبدالله عليه السلام قال: «**من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلا شهيدا و بعثه الله مع الشهداء و وقف يوم القيامة مع الشهداء**».

ختم الله سبحانه سورة بنى إسرائيل بالتحميد و التوحيد و ذكر النبى ﷺ و القرآن و افتتح سورة الكهف أيضا بالتحميد و التوحيد و ذكر القرآن و النبى ﷺ ليتصل أول هذه بآخر تلك اتصال الجنس بالجنس فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً ﴿١﴾ قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴿٢﴾ ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴿٣﴾ وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴿٦﴾

﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ** ﴾ يقول الله سبحانه لخلقه قولوا كل الحمد و الشكر لله ﴿ **الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ** ﴾ محمد ﷺ ﴿ **الْكِتابَ** ﴾ أى القرآن و انتجبه من خلقه و خصه برسالته فبعثه نبيا رسولا ﴿ **وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً** ﴾ فيه تقديم و تأخير و تقديره الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب قيما و لم يجعل له عوجا و عنى بقوله ﴿ **قَيِّماً** ﴾ معتدلا مستقيما مستويا لا تناقض فيه عن ابن عباس و قيل قيما على سائر الكتب المتقدمة يصدقها و يحفظها و ينفى البطل عنها و هو ناسخ لشرائعها عن الفراء و قيل قيما لأمور الدين يلزم الرجوع إليه فيها فهو كقيم الدار الذى يرجع إليه فى أمرها عن أبى مسلم و قيل قيما دائما يدوم و يثبت إلى يوم القيامة لا ينسخ عن الأصم.

﴿ **وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً** ﴾ أى لم يجعله ملتبسا لا يفهم و معوجا لا يستقيم و هو معنى قول ابن عباس و قيل لم يجعل فيه اختلافا كما قال عز و جل اسمه ﴿ **وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً** ﴾ عن الزجاج و معنى العوج فى الكلام أن يخرج من الصحة إلى الفساد و من الحق إلى الباطل و مما فيه فائدة إلى ما لا فائدة فيه ثم بين سبحانه الغرض فى إنزاله فقال ﴿ **لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ** ﴾ و معناه ليخوف العبد الذى أنزل عليه الكتاب الناس عذابا شديدا و نكارا و سطوة من عند الله تعالى إن لم يؤمنوا به ﴿ **وَ يُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً** ﴾ معناه و ليبشر المصدقين بالله

و رسوله الذين يعملون الطاعات بعد الإيمان أن لهم ثوابا حسنا فى الآخرة على إيمانهم و طاعاتهم فى الدنيا و ذلک الثواب هو الجنة.

﴿ ماكِثِينَ فِيهِ أَبَداً ﴾ أى لابثين فى ذلک الثواب خالدين مؤبدين لا ينتقلون عنه ﴿ وَ يُنْذِرَ الَّذِينَ قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ أى و ليحذر الكفار الذين قالوا الملائكة بنات الله و هم قريش عن الحسن و محمد بن إسحاق و قيل هم اليهود و النصارى عن السدى و الكلبى فعم جميع الكفار بالإنذار فى الآية الأولى و خص فى هذه الآية القائلين بهذه المقالة منهم لتقليدهم الآباء فى ذلک و لإصرارهم على الجهل و قلة التفكر و لصدهم الناس عن الدين ﴿ ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَ لا لِآبائِهِمْ ﴾ أى ليس لهؤلاء القائلين بهذا القول الشنيع علم به و لا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل ما هم عليه اليوم و إنما يقولون ذلک عن جهل و تقليد من غير حجة و قيل معناه ليس لهم بالله من علم و لا لآبائهم.

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ ﴾ أى عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء الكفار و وصف الكلمة بالخروج من الأفواه توسعا و مجازا و إن كانت الكلمة عرضا لا يجوز عليها الدخول و الخروج و لا الحركة و السكون و لكن لما كانت الكلمة قد تحفظ و تثبت و توجد مكتوبة و مقروءة فى غير الموضع الذى فعلت فيه وصفها بالخروج و ذكر الأفواه تأكيدا و المعنى أنهم صرحوا بهذه الكلمة العظيمة فى القبح و أظهروها ﴿ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ أى ما يقول هؤلاء إلا كذبا و افتراء على الله.

﴿ فَلَعَلَّكَ ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ باخِعٌ نَفْسَكَ عَلى آثارِهِمْ ﴾ أى مهلک و قاتل نفسک على آثار قومک الذين قالوا لن نؤمن لک حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا تمردا منهم على ربهم ﴿ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ أى إن لم يصدقوا ﴿ بِهذَا الْحَدِيثِ ﴾ أى بهذا القرآن الذى أنزل عليک ﴿ أَسَفاً ﴾ أى حزنا و تلهفا و وجدا بإدبارهم عنک و إعراضهم عن قبول ما آتيتهم به و قيل على آثارهم أى بعد موتهم لشدة شفقتک عليهم و قيل معناه من بعد توليهم و إعراضهم عنک و قيل أسفا أى غيظا و غضبا عن ابن عباس و قتادة و هذه معاتبة من الله سبحانه لرسوله على شدة وجده و كثرة حرصه على إيمان قومه حتى بلغ ذلک به مبلغا يقربه إلى الهلاک.

***

إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾

ثم بين سبحانه أنه ابتدأ خلقه بالنعم و أن إليه مصير الأمم فقال ﴿ إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ ﴾ من الأنهار و الأشجار و أنواع المخلوقات من الجماد و الحيوان و النبات ﴿ زِينَةً لَها ﴾ أى حلية للأرض و لأهلها ﴿ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ لأى لنختبرهم و نمتحنهم و المعنى لنعامل عبادنا معاملة المبتلى و قد سبق ذكر أمثاله و الأحسن عملا الأعمل بطاعة الله و الأطوع له و قيل إن معنى الابتلاء الأمر و النهى لأن بهما يظهر المطيع من العاصى و قيل أراد بالزينة الرجال لأنهم زينة الأرض و قيل أراد الأنبياء و العلماء﴿ وَ إِنَّا لَجاعِلُونَ ما عَلَيْها صَعِيداً جُرُزاً ﴾ معناه و إنا مخربون الأرض بعد عمارتها و جاعلون ما عليها مستويا من الأرض يابسا لا نبات عليه و قيل بلاقع عن مجاهد و فى قوله ﴿ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ دلالة على أنه سبحانه أراد من الخلق العمل الصالح و على أن أفعالهم الصادرة منهم حادثة من جهتهم و لو لا ذلک لما صح الابتلاء و فى ذلک بطلان قول أهل الجبر.

***

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقالُوا رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً ﴿١٢﴾

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ معناه بل أ حسبت يا محمد ﷺ ﴿ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً ﴾ فلخلق السماوات و الأرض أعجب من هذا عن مجاهد و قتادة و يحتمل أنه لما استبطأ الجواب حين سألوه عن القصة قيل له أ حسبت أن هذا شيء عجيب حرصا على إيمانهم حتى قوى طمعک إنک إذا أخبرتهم به آمنوا و المراد بالكهف كهف الجبل الذى أوى إليه القوم الذين قص الله أخبارهم و اختلف فى معنى الرقيم فقيل إنه اسم الوادى الذى كان فيه الكهف عن ابن عباس و الضحاک و قيل الكهف غار فى الجبل و الرقيم الجبل نفسه عن الحسن و قيل الرقيم القرية التى خرج منها أصحاب الكهف عن كعب و السدى و قيل هو

لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف ثم وضعوه على باب الكهف عن سعيد بن جبير و اختاره البلخي و الجبائي و قيل جعل ذلک اللوح في خزائن الملوک لأنه من عجائب الأمور و قيل الرقيم كتاب و لذلک الكتاب خبر فلم يخبر الله تعالى عما فيه عن ابن زيد و قيل إن أصحاب الرقيم هم النفر الثلاثة الذين دخلوا في غار فانسد عليهم فقالوا ليدعو الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا ففعلوا فنجاهم الله و رواه النعمان بن بشير مرفوعا.

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴾ أي اذكر لقومک إذ التجأ أولئک الشبان إلى الكهف و جعلوه مأواهم هربا بدينهم إلى الله ﴿ فَقالُوا ﴾ حين آووا إليه ﴿ رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أي نعمة ننجو بها من قومنا و فرج عنا ما نزل بنا ﴿ وَ هَيِّئْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً ﴾ أي هيئ و أصلح لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد و قيل هيئ لنا مخرجا من الغار في سلامة عن ابن عباس و قيل معناه دلنا على أمر فيه نجاتنا لأن الرشد و النجاة بمعنى و قيل يسر لنا من أمرنا ما نلتمس به رضاک و هو الرشد و قالوا هؤلاء الفتية قوم آمنوا بالله تعالى و كانوا يخفون الإسلام خوفا من ملكهم و كان اسم الملک دقيانوس و اسم مدينتهم أفسوس و كان ملكهم يعبد الأصنام و يدعو إليها و يقتل من خالفه و قيل إنه كان مجوسيا يدعو إلى دين المجوس و الفتية كانوا على دين المسيح لما برح أهل الإنجيل و قيل كانوا من خواص الملک و كان يسر كل واحد منهم إيمانه عن صاحبه ثم اتفق أنهم اجتمعوا و أظهروا أمرهم فأووا إلى الكهف عن عبيد بن عمير و قيل إنهم كانوا قبل بعث عيسى عليه السلام.

﴿ فَضَرَبْنا عَلَى آذانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ معناه أنمناهم سنين ذات عدد و تأويله فأجبنا دعاءهم و سددنا آذانهم بالنوم الغالب على نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة لأن النائم إنما ينتبه بسماع الصوت و دل سبحانه بذلک على أنهم لم يموتوا و كانوا نياما في أمن و راحة و جمام نفس و هذا من فصيح لغات القرآن التي لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ ﴿ ثُمَّ بَعَثْناهُمْ ﴾ أي أيقظناهم من نومهم ﴿ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثُوا أَمَداً ﴾ أي ليظهر معلومنا على ما علمناه و ذكرنا الوجه في أمثاله فيما سبق و المعنى لننظر أي الحزبين من المؤمنين و الكافرين من قوم أصحاب الكهف عد أمد لبثهم و علم ذلک و كأنه وقع بينهم تنازع في مدة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بيتهم فبعثهم الله ليبين ذلک و يظهر و قيل يعني

بالحزبين أصحاب الكهف لما استيقظوا اختلفوا فى تعداد لبثهم و ذلک قوله ﴿ وَ كَذٰلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ الآية.

***

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدىً ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنا عَلىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قامُوا فَقالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً ﴿١٤﴾ هٰؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللّٰهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴿١٦﴾

ثم بين سبحانه قصة أصحاب الكهف فقال ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ أى نتلو عليک يا محمد ﷺ ﴿ نَبَأَهُمْ ﴾ أى خبرهم ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق و الصحة ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ﴾ أى أحداث و شباب ﴿ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَ زِدْناهُمْ هُدىً ﴾ أى بصيرة فى الدين و رغبة فى الثبات عليه بالألطاف المقوية لدواعيهم إلى الإيمان و حكم لهم سبحانه بالفتوة لأن رأس الفتوة الإيمان و قيل الفتوة بذل الندى و ترک الأذى و ترک الشكوى عن مجاهد و قيل هى اجتناب المحارم و استعمال المكارم ﴿ وَ رَبَطْنا عَلى قُلُوبِهِمْ ﴾ أى شددنا عليها بالألطاف و الخواطر القوية للإيمان حتى وطنوا أنفسهم على إظهار الحق و الثبات على الدين و الصبر على المشاق و مفارقة الوطن ﴿ إِذْ قامُوا ﴾ أى حين قاموا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس الذى كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم ﴿ فَقالُوا ﴾ بين يديه ﴿ رَبُّنا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾ أى ربنا الذى نعبده خالق السماوات و الأرض.

﴿ لَنْ نَدْعُوَا مِنْ دُونِهِ إِلٰهاً ﴾ أى لن نعبد إلها سواه معه ﴿ لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً ﴾ معناه إن دعونا مع الله إلها آخر فلقد قلنا إذا قولا مجاوزا للحق غاية فى البطلان ﴿ هٰؤُلاءِ قَوْمُنَا ﴾ أى أهل بلدنا ﴿ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ﴾ أى من دون الله ﴿ آلِهَةً ﴾ يعبدونها ﴿ لَوْ لا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى هلا يأتون على عبادتهم غير الله بحجة ظاهرة و فى هذا ذم زجر للتقليد و إشارة إلى أنه لا يجوز أن يقبل دين إلا بحجة واضحة ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرىٰ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً ﴾ فزعم أن له شريكا فى العبادة ﴿ وَ إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ إِلَّا

اللَّهَ ﴾ قال ابن عباس و هذا من قول تمليخا و هو رئيس أصحاب الكهف قال لهم فإذا فارقتموهم و تنحيتم عنهم جانبا يعنى عبدة الأصنام و فارقتم ما يعبدون أى أصنامهم إلا الله فإنكم لن تتركوا عبادته و ذلک إن أولئک كانوا يشركون بالله و يجوز أنه كان فيهم من يعبدالله مع عبادة الأصنام فقال إذا اعتزلتم الأصنام و لم تعتزلوا الله و لا عبادته فيكون الاستثناء متصلا و يجوز أن يكون جميعهم كانوا يعبدون الأوثان من دون الله فيكون الاستثناء منقطعا.

﴿ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ ﴾ أى صيروا إليه و اجعلوه مأواكم ﴿ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى يبسط عليكم ربكم من نعمته ﴿ وَ يُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾ أى و يسهل عليكم ما تخافون من الملک و ظلمه و يأتيكم باليسر و الرفق و اللطف عن ابن عباس و كلما ارتفقت فهو مرفق و قيل معناه و يصلح لكم من أمر معاشركم ما ترتفقون به و فى هذا دلالة على عظم منزلة الهجرة فى الدين و على قبح المقام فى دار الكفر إذا كان لا يمكن المقام فيها إلا بإظهار كلمة الكفر و بالله التوفيق.

***

وَ تَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴿١٧﴾ وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴿١٨﴾

ثم بين سبحانه حالهم فى الكهف فقال ﴿ وَ تَرَى الشَّمْسَ ﴾ أى لو رأيتها لرأيت ﴿ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ الْيَمِينِ ﴾ أى تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين ﴿ وَ إِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴾ أى تعدل عنهم و تتركهم ﴿ ذاتَ الشِّمالِ ﴾ إلى جهة الشمال شمال الكهف أى لا تدخل كهفهم و قيل تقرضهم أى تجاوزهم منحرفة عنهم عن ابن عباس ﴿ وَ هُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى فى متسع من الكهف و قيل فى فضاء منه عن قتادة و قيل كان متسعا داخل الكهف بحيث لا يراه من كان ببابه و ينالهم نسيم الريح ثم أخبر سبحانه عن لطفه بهم و حفظه إياهم فى مضجعهم و اختياره لهم أصلح المواضع لرقادهم فبوأهم مكانا من

الكهف مستقبلا بنات النعش تميل الشمس عنهم طالعة و غاربة كيلا يؤذيهم حرها أو تغير ألوانهم أو تبلى ثيابهم و هم فى متسع ينالهم فيه روح الريح و كان باب الغار مقابل القطب الشمالى.

﴿ ذلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ ﴾ أى من أدلته و برهانه ﴿ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ مثل أصحاب الكهف ﴿ وَ مَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾ مثل قوم أصحاب الكهف ﴿ وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً ﴾ أى لو رأيتهم لحسبتهم منتبهين ﴿ وَ هُمْ رُقُودٌ ﴾ أى نائمون فى الحقيقة قال الجبائى و جماعة لأنهم مفتحو العيون يتنفسون كأنهم يريدون أن يتكلموا و لا يتكلمون و قيل إنهم ينقلبون كما ينقلب اليقظان ﴿ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ ﴾ معناه و نقلبهم تارة عن اليمين إلى الشمال و تارة عن الشمال إلى اليمين كما يتقلب النائم لأنهم لو لم يتقلبوا لأكلتهم الأرض و لبليت ثيابهم لطول مكثهم على جانب واحد و قيل كانوا يقلبون كل عام تقلبتين عن أبى هريرة و قيل كان تقلبهم كل عام مرة عن ابن عباس.

و قوله: ﴿ وَ كَلْبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس و أكثر المفسرين إنهم هربوا من ملكهم ليلا فمروا براع معه كلب فتبعهم على دينهم و تبعه كلبه و قيل إنهم مروا بكلب فتبعهم فطردوه فعاد ففعلوا ذلك مرارا فقال لهم الكلب ما تريدون منى لا تخشوا خيانة فأنا أحب أولياء الله فناموا حتى أحرسكم عن كعب و قيل كان ذلك كلب صيدهم و قيل كان ذلك الكلب أصفر اللون عن مقاتل و قيل كان أنمر و اسمه قطمير عن ابن عباس و فى تفسير الحسن أن ذلك الكلب مكث هناك ثلاث مائة و تسع سنين بغير طعام و لا شراب و لا نوم و لا قيام ﴿ باسِطٌ ذِراعَيْهِ ﴾ هو أن يلقيهما على الأرض مبسوطتين كافتراش السبع ﴿ بِالْوَصِيدِ ﴾ أى بفناء الكهف عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و قيل بالباب و قيل بباب الفجوة أو فناء الفجوة لا باب الكهف لأن الكفار خرجوا إلى باب الكهف فى طلبهم ثم انصرفوا و لو رأوا الكلب على باب الغار لدخلوه و كذلك لو كان بالقرب من الباب و لما انصرفوا آيسين عنهم فإنهم سدوا باب الغار بالحجارة فجاء رجل بماشيته إلى باب الغار و أخرج الحجارة و اتخذ لماشيته كنا عند باب الغار و هم كانوا فى فجوة من الغار عن الجبائى و قيل الوصيد عتبة الباب عن عطا.

﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً ﴾ معناه لو أشرفت عليهم و رأيتهم فى كهفهم على حالتهم لفررت عنهم و أعرضت عنهم هربا لاستيحاشك الموضع ﴿ وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ أى و لملىء قلبك خوفا و فزعا و ذلك إن الله منعهم بالرعب لئلا يصل إليهم أحد حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم و قيل كانوا فى مكان موحش

من رآه فزع و لا يمتنع أن الكفار لما أتوا باب الكهف فزعوا من وحشة المكان فسدوا باب الكهف ليهلكوا فيه و جعل سبحانه ذلک لطفا لئلا ينالهم مكروه من سبع و غيره و ليكونوا محروسين من كل سوء و قيل إنهم كانت أظفارهم قد طالت و كذلک شعورهم و لذلک يأخذ الرعب منهم و هذا لا يصح لقوله تعالى حكاية عنهم ﴿ لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ و روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال غزوت مع معاوية نحو الروم فمروا بالكهف الذى فيه أصحاب الكهف فقال معاوية لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقلت له ليس هذا لک فقد منع ذلک من هو خير منک قال الله تعالى ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ فقال معاوية لا أنتهى حتى أعلم علمهم فبعث رجالا فلما دخلوا الكهف أرسل الله عليهم ريحا أخرجتهم.

***

وَكَذٰلِكَ بَعَثْنٰاهُمْ لِيَتَسٰاءَلُوا بَيْنَهُمْ قٰالَ قٰائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قٰالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قٰالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكىٰ طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴿٢٠﴾

﴿ وَ كَذٰلِكَ بَعَثْناهُمْ ﴾ معناه و كما فعلنا بهم الأمور العجيبة و حفظناهم تلک المدة المديدة بعثناهم من تلک الرقدة و أحييناهم من تلک النومة التى أشبهت الموت ﴿ لِيَتَساءَلُوا بَيْنَهُمْ ﴾ أى ليكون بينهم تساؤل و تنازع و اختلاف فى مدة لبثهم فينتبهوا بذلک على معرفة صانعهم و يزدادوا يقينا إلى يقينهم ﴿ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ﴾ فى نومكم ﴿ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ قال المفسرون إنهم دخلوا الكهف غدوة و بعثهم الله فى آخر النهار فلذلک قالوا يوما فلما رأوا الشمس قالوا أو بعض يوم و كان قد بقيت من النهار بقية ﴿ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ ﴾ و هذا القائل هو تمليخا رئيسهم عن ابن عباس رد علم ذلک إلى الله تعالى.

﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ ﴾ و الورق الدراهم و كان معهم دراهم عليها صورة الملک الذى كان فى زمانهم عن ابن عباس ﴿ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى المدينة التى خرجوا منها ﴿ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكىٰ طَعاماً ﴾ أى

أظهر و أحل ذبيحة عن ابن عباس قال لأن عامتهم كانت مجوسا و فيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم و قيل أطيب طعاما عن الكلبى و قيل أكثر طعاما من قولهم زكى المال إذا زاد عن عكرمة و ذلک لأن خير الطعام إنما يوجد عند من كثر طعامه و قيل كان من طعام أهل المدينة ما لا يستحله أصحاب الكهف ﴿ فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ ﴾ أى فليأتكم بما ترزقون أكله ﴿ وَ لْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى و ليدقق النظر و يتحيل حتى لا يطلع عليه و قيل و ليتلطف فى الشراء فلا يماكس البائع و لا ينازعه.

﴿ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴾ أى لا يخبرن بكم و لا بمكانكم أحدا من أهل المدينة ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ﴾ أى يشرفوا و يطلعوا عليكم و يعلموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ ﴾ أى يقتلوكم بالرجم و هو من أخبث القتل عن الحسن و قيل معناه يؤذوكم و يشتموكم يقال رجمه بلسانه عن ابن جريج ﴿ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ ﴾ أى يردوكم إلى دينهم ﴿ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴾ معناه و متى فعلتم ذلک لن تفوزوا أبدا بشىء من الخير و متى قيل من أكره على الكفر فأظهره فإنه مفلح فكيف تصح الآية فالجواب يجوز أن يكون أراد يعيدوكم إلى دينهم بالاستدعاء دون الإكراه و يجوز أن يكون فى ذلک الوقت كان لا يجوز التقية فى إظهار الكفر.

***

وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّٰهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٢٢﴾ وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللّٰهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هٰذا رَشَداً ﴿٢٤﴾

﴿ وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ ﴾ أى و كما أنمناهم و بعثناهم اطلعنا و أعثرنا عليهم أهل المدينة و جملة أمرهم و حالهم على ما قاله المفسرون أنهم لما هربوا من ملكهم و دخلوا الكهف أمر الملک أن يسد عليهم باب

الكهف و يدعوهم كما هم فى الكهف فيموتوا عطشا و جوعا و ليكن كهفهم الذى اختاروه قبرا لهم و هو يظن أنهم إيقاظ ثم إن رجلين مؤمنين كتبا شأن الفتية و أنسابهم و أسماءهم و خبرهم فى لوح من رصاص و جعلاه فى تابوت من نحاس و جعلا التابوت فى البنيان الذى بنوا على باب الكهف و قالا لعل الله يظهر على هؤلاء الفتية قوما مؤمنين قبل يوم القيامة ليعلموا خبرهم حين يقرءون هذا الكتاب ثم انقرض أهل ذلک الزمان و خلفت بعدهم قرون و ملوک كثيرة و ملک أهل تلک البلاد رجل صالح يقال له ندليس و قيل بندوسيس عن محمد بن إسحاق و تحزب الناس فى ملكه أحزابا منهم من يؤمن بالله و يعلم أن الساعة حق و منهم من يكذب فكبر ذلک على الملک الصالح و بكى إلى الله و تضرع و قال أى رب قد ترى اختلاف هؤلاء فابعث لهم آية تبين لهم بها أن البعث حق و أن الساعة حق آتية لا ريب فيها فألقى الله فى نفس رجل من أهل ذلک البلد الذى فيه الكهف أن يهدم البنيان الذى على فم الكهف فيبنى به حظيرة لغنمه ففعل ذلک و بعث الله الفتية من نومهم فأرسلوا أحدهم ليطلب لهم طعاما فاطلع الناس على أمرهم و بعثوا إلى الملک الصالح يعلمونه الخبر ليعجل القدوم عليهم و ينظر إلى آية من آيات الله جعلها الله فى ملكه فلما بلغه الخبر حمد الله و ركب معه مدينته حتى أتوا أهل الكهف فذلک قوله: ﴿ وَ كَذٰلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ ﴾ بالبعث و الثواب و العقاب.

﴿ **حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها** ﴾ أى أن القيامة لا شک فيها فإن من قدر على أن ينيم جماعة تلک المدة المديدة أحياء ثم يوقظهم قدر أيضا على أن يميتهم ثم يحييهم بعد ذلک ﴿ **إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ** ﴾ أى فعلنا ذلک حين تنازعوا فى البعث فمنهم من أنكره و منهم من قال يبعث الأرواح دون الأجسام و منهم من أثبت البعث فيهما و أضاف الأمر إليهم لتنازعهم فيه كما يقال ما صنعتم فى أمركم عن عكرمة و قيل إن معناه إذ يتنازعون فى قدر مكثهم فى الكهف و فى عددهم و فيما يفعل بهم بعد أن اطلعوا عليهم و ذلک أنه لما دخل الملک عليهم مع الناس و جعلوا يسألونهم سقطوا ميتين فقال الملک إن هذا الأمر عجيب فما ترون فاختلفوا فقال بعضهم ابنوا عليهم بنيانا كما تبنى المقابر و قال بعضهم اتخذوا مسجدا على باب الكهف و هذا التنازع كان منهم بعد العلم بموتهم عن ابن عباس.

﴿ **فَقالُوا** ﴾ أى قال مشركو ذلک الوقت ﴿ **ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً** ﴾ أى استروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلک البنيان كما يقال بنى عليه جدارا إذا حوطه و جعله وراء الجدار ﴿ **رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ** ﴾ معناه ربهم أعلم بحالهم فيما تنازعوا فيه و قيل إنه قال ذلک بعضهم و معناه ربهم أى خالقهم الذى أنامهم و بعثهم

أعلم بحالهم و كيفية أمرهم و قيل معناه ربهم أعلم بهم أ أحياء نيام هم أم أموات فقد قيل إنهم ماتوا و قيل أنهم لا يموتون إلى يوم القيامة ﴿ **قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ** ﴾ يعنى الملك المؤمن و أصحابه و قيل أولياء أصحاب الكهف من المؤمنين و قيل رؤساء البلد الذين استولوا على أمرهم عن الجبائى.

﴿ **لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً** ﴾ أى معبدا و موضعا للعبادة و السجود يتعبد الناس فيه ببركاتهم و دل ذلک على أن الغلبة كانت للمؤمنين و قيل مسجدا يصلى فيه أصحاب الكهف إذا استيقظوا عن الحسن و قد روى أيضا أن أصحاب الكهف لما دخل صاحبهم إليهم و أخبرهم بما كانوا عنه غافلين من مدة مقامهم سألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى حالتهم الأولى فأعادهم إليها و حال بين من قصدهم و بين الوصول إليهم بأن أضلهم عن الطريق إلى الكهف الذى كانوا فيه فلم يهتدوا إليه ثم بين سبحانه تنازعهم فى عددهم فقال ﴿ **سَيَقُولُونَ** ﴾ أى سيقول قوم من المختلفين فى عددهم ﴿ **ثَلاثَةٌ** ﴾ أى هم ثلاثة ﴿ **رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ** ﴾ أى و يقول آخرون هم ﴿ **خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ** ﴾ أى قذفا بالظن من غير يقين عن قتادة ﴿ **وَ يَقُولُونَ** ﴾ أى و يقول آخرهم هم ﴿ **سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ** ﴾ و قيل إن هذا إخبار من الله تعالى بأنه سيقع نزاع فى عددهم ثم وقع ذلک لما وفد نصارى نجران إلى النبى ﷺ فجرى ذكر أصحاب الكهف فقالت اليعقوبية منهم: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم و قالت النسطورية: كانوا خمسة سادسهم كلبهم و قال المسلمون: كانوا سبعة و ثامنهم كلبهم.

﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ **رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾ من الناس عن قتادة و قيل قليل من أهل الكتاب عن عطا و قال ابن عباس أنا من ذلک القليل هم سبعة و ثامنهم كلبهم و الأظهر أن يكون عرف ذلک من جهة النبى ﷺ و روى الضحاک عن ابن عباس أنه قال هم مكسليمنا و تمليخا و مرطولس و نينونس و سارينونس و دربونس و كشوطبونس و هو الراعى ﴿ **فَلا تُمارِ فِيهِمْ** ﴾ أى فلا تجادل الخائضين فى عددهم و شأنهم ﴿ **إِلَّا مِراءً ظاهِراً** ﴾ فيه وجوه (أحدها) أن معناه إلا تجادلهم إلا بما أظهرنا لک من أمرهم عن ابن عباس و قتادة و مجاهد أى لا تجادل إلا بحجة و دلالة و إخبار من الله سبحانه و هو المراء الظاهر (و ثانيها) أن المراد لا تجادلهم إلا جدالا ظاهرا و هو أن تقول لهم أثبتم عددا و خالفكم غيركم و كلا القولين يحتمل الصدق و الكذب فهلموا بحجة تشهد لكم (و ثالثها) أن المراد إلا مراء يشهده الناس و يحضرونه فلو أخبرتهم فى غير ملأ من الناس لكذبوا عليک و لبسوا على الضعفة فادعوا أنهم كانوا يعرفونه لأن ذلک من غوامض علومهم.

﴿ وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ معناه و لا تستخبر فى أهل الكهف و فى مقدار عددهم من أهل الكتاب أحدا و لا تستفتهم من جهتهم عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله و سلم و المراد غيره لئلا يرجعوا فى ذلک إلى مساءلة اليهود فإنه كان واثقا بخبر الله تعالى ﴿ وَ لا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ﴾ قد ذكر فى معناه وجوه (أحدها) أنه نهى من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقول إنى أفعل شيئا فى الغد إلا أن يقيد ذلک بمشيئة الله تعالى فيقول إن شاء الله قال الأخفش و فيه إضمار القول و تقديره إلا أن تقول إن شاء الله و لما حذف تقول نقل إن شاء الله إلى لفظ الاستقبال فيكون هذا تأديبا من الله للعباد و تعليما لهم أن يعقلوا ما يخبرون به بهذه اللفظة حتى يخرج عن حد القطع فلا يلزمهم كذب أو حنث إذا لم يفعلوا ذلک لمانع و هذا معنى قول ابن عباس (و ثانيها) أن قوله: ﴿ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ﴾ بمعنى المصدر و تعلق بما تعلق به على ظاهره و تقديره و لا تقولن إنى فاعل شيئا غدا إلا مشية الله عن الفراء و هذا وجه حسن يطابق الظاهر و لا يحتاج فيه إلى بناء الكلام على محذوف و معناه و لا تقل إنى أفعل إلا ما يشاء الله و يريده و إذا كان الله تعالى لا يشاء إلا الطاعات فكأنه قال لا تقل إنى أفعل إلا الطاعات و لا يطعن على هذا جواز الأخبار عما يفعل من المباحات التى لا يشاءوها الله تعالى لأن هذا النهى نهى تنزيه لا نهى تحريم بدلالة أنه لو لم يقل ذلک لم يأثم بلا خلاف.

(و ثالثها) أنه نهى عن أن يقول الإنسان سأفعل غدا و هو يجوز الاخترام قبل أن يفعل ما أخبر به فلا يوجد مخبره على ما أخبر به فهو كذب و لا يأمن أيضا أن لا يوجد مخبره بحدوث شىء من فعل الله تعالى نحو المرض و العجز و بأن يبدو له هو فى ذلک فلا يسلم خبره من الكذب إلا بالاستثناء الذى ذكره الله تعالى فإذا قال إنى صائر غدا إلى المسجد إن شاء الله أمن من أن يكون خبره هذا كذبا لأن الله تعالى إن شاء أن يلجئه إلى المصير إلى المسجد غدا حصل المصير إليه منه لا محالة فلا يكون خبره هذا كذبا و إن لم يوجد المصير منه إلى المسجد لأنه لم يوجد ما استثناه فى ذلک من مشيئة الله تعالى عن الجبائى و قد ذكرنا فيما قبل ما جاء فى الرواية أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم سئل عن قصة أصحاب الكهف و ذى القرنين فقال: ﴿ أخبركم عنه غدا ﴾ و لم يستثن فاحتبس الوحى عنه أياما حتى شق عليه فأنزل الله تعالى هذه الآية بأمره بالاستثناء بمشيئة الله تعالى.

و قوله ﴿ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ ﴾ فيه وجهان (أحدهما) أنه كلام متصل بما قبله ثم اختلف فى ذلک فقيل معناه و اذكر ربک إذا نسيت الاستثناء ثم تذكرت فقل إن شاء الله و إن كان بعد يوم أو شهر أو سنة عن

ابن عباس و قد روى ذلک عن أئمتناعليهم‌السلام و يمكن أن يكون الوجه فيه أنه إذا استثنى بعد النسيان فإنه يحصل له ثواب المستثنى من غير أن يؤثر الاستثناء بعد انفصال الكلام فى الكلام و فى إبطال الحنث و سقوط الكفارة فى اليمين و هو الأشبه بمراد ابن عباس فى قوله و قيل فاذكر الاستثناء ما لم تقم من المجلس عن الحسن و مجاهد و قيل فاذكر الاستثناء بأن تندم على ما قطعت عليه من الخبر عن الأصم.

(و الآخر) أنه كلام مستأنف غير متعلق بما قبله ثم اختلف فى معناه فقيل معناه و اذكر ربک إذا غضبت بالاستغفار ليزول عنک الغضب عن عكرمة و قيل إنه أمر بالانقطاع إلى الله تعالى و معناه و اذكر ربک إذا نسيت شيئا بک إليه حاجة بذكره لک عن الجبائى و قيل المراد به الصلاة و المعنى إذا نسيت صلاة فصلها إذا ذكرتها عن الضحاک و السدى قال السيد الأجل المرتضى قدس الله روحه اعلم أن للاستثناء الداخل على الكلام وجوها مختلفة فقد يدخل فى الإيمان و الطلاق و العتاق و سائر العقود و ما يجرى مجراها من الأخبار فإذا دخل فى ذلک اقتضى التوقف عن إمضاء الكلام و المنع من لزوم ما يلزم به و لذلک يصير ما يتكلم به كأنه لا حكم له و لذلک يصح على هذا الوجه أن يستثنى الإنسان فى الماضى فيقول قد دخلت الدار إن شاء الله تعالى ليخرج بهذا الاستثناء من أن يكون كلامه خبرا قاطعا أو يلزم به حكم و إنما لم يصح دخوله فى المعاصى على هذا الوجه لأن فيه إظهار الانقطاع إلى الله تعالى و المعاصى لايصح ذلک فيها و هذا الوجه أحد ما يحتمله تأويل الآية و قد يدخل الاستثناء فى الكلام و يراد به اللطف و التسهيل و هذا الوجه يختص بالطاعات و لهذا جرى قول القائل لأقضين غدا ما على من الدين أو لأصلين غدا إن شاء الله مجرى أن يقول إنى فاعل إن لطف الله تعالى فيه و سهله و متى قصد الحالف هذا الوجه لم يجب إذا لم يقع منه الفعل أن يكون حانثا أو كاذبا لأنه إذا لم يقع علمنا أنه لم يلطف فيه لأنه لا لطف له.

و هذا الوجه لايصح أن يقال فى الآية لأنه يختص الطاعات و الآية تتناول كل ما لم يكن قبيحا بدلالة إجماع المسلمين على حسن استثناء ما تضمنه فى كل فعل لم يكن قبيحا و قد يدخل الاستثناء فى الكلام و يراد به التسهيل و الإقدار و التخلية و البقاء على ما هو عليه من الأحوال و هذا هو المراد إذا دخل فى المباحات و هذا الوجه يمكن فى الآية و قد يدخل فى الكلام استثناء المشيئة فى الكلام و إن لم يرد به شىء من المتقدم ذكره بل يكون الغرض الانقطاع إلى الله تعالى من غير أن يقصد به إلى شىء من هذه الوجوه و يكون هذا الاستثناء غير معتد به فى كونه كاذبا أو صادقا لأنه فى الحكم كأنه قال لأفعلن كذا أن وصلت إلى مرادى

مع انقطاعی إلی الله تعالی و إظهاری الحاجة إلیه و هذا الوجه أیضا یمکن فی الآیة و متی تؤمل جملة ما ذکرناه من الکلام عرف به الجواب عن المسألة التی لا یزال یسأل عنها من یذهب إلی خلاف العدل من قولهم لو کان الله تعالی إنما یرید الطاعات من الأفعال دون المعاصی لوجب إذا قال علیه الدین لغیره و طالبه به و الله لأعطینک حقک غدا إن شاء الله أن یکون کاذبا أو حانثا إذا لم یفعل لأن الله تعالی قد شاء ذلک منه عندکم و إن کأن لم یقع و لکان یجب أن تلزمه به الکفارة و أن لا یؤثر هذا الاستثناء فی یمینه و لا یخرجه من کونه حانثا کما أنه لو قال و الله لأعطینک حقک غدا إن قام زید فقام و لم یعطه یکون حانثا و فی التزلل الحنث خروج من الإجماع انتهی کلامه رحمه الله.

و قوله ﴿ وَ قُلْ عَسى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هذا رَشَداً ﴾ معناه قل عسی ربی أن یعطینی من الآیات و الدلالات علی النبوة ما یکون أقرب من الرشد و أدل من قصة أصحاب الکهف عن الزجاج ثم إن الله سبحانه فعل به ذلک حیث آتاه من علم غیوب أخبار المرسلین و آثارهم ما هو واضح فی الدلالة و أقرب إلی الرشد من خبر أصحاب الکهف و قیل إن معناه ادع الله أن یذکرک إذا نسیت شیئا و قل إن لم یذکرنی الله ذلک الذی نسیت فإنه یذکرنی ما هو أنفع لی منه عن الجبائی.

***

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾ وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴿٢٧﴾

ثم أخبر سبحانه عن مقدار مدة لبثهم فقال ﴿ **وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِائَةٍ سِنِينَ** ﴾ معناه و أقام أصحاب الکهف من یوم دخلوا الکهف إلی أن بعثهم الله و اطلع علیهم الخلق ثلاثمائة سنة ﴿ **وَ ازْدَادُوا تِسْعاً** ﴾ أی تسع سنین إلا أنه استغنی بما تقدم عن إعادة ذکر تفسیر التسع کما یقال عندی مائة درهم و خمسة ﴿ **قُلِ**

اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا ﴾ معناه إن حاجک يا محمدﷺ أهل الكتاب فی ذلک فقل الله أعلم بما لبثوا و ذلک أن أهل نجران قالوا أما الثلاثمائة فقد عرفناها و أما التسع فلا علم لنا بها و قيل أن معناه الله أعلم بما لبثوا إلى أن ماتوا و حكى عن قتادة أنه قال قوله: ﴿ **وَ لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ** ﴾ الآية حكاية عن قول اليهود و قوى ذلک بقوله: ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا** ﴾ فذكر أنه سبحانه العالم بمقدار لبثهم دون غيره و قد ضعف هذا الوجه بأن إخبار الله لا ينبغی صرفها إلى الحكاية إلا بدليل قاطع و لو كان الأمر على ما قاله لم تكن مدة لبثهم مذكورة و من المعلوم أن الله سبحانه أراد بالآية الاستدلال على عجيب قدرته و باهر آيته و ذلک لايتم إلا بعد معرفة مدة لبثهم.

فالمراد بقوله ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما لَبِثُوا** ﴾ بعد بيان مدة لبثهم إبطال قول أهل الكتاب و اختلافهم فی مدة لبثهم فتقديره قل يا محمدﷺ الله أعلم بمدة لبثهم و قد أخبر بها فخذوا بما أخبر الله تعالى و دعوا قول أهل الكتاب فهو أعلم بذلک منهم ﴿ **لَهُ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ** ﴾ و الغيب أن يكون الشیء بحيث لا يقع عليه الإدراک أی لا يغيب عن الله سبحانه شیء لأنه لا يكون بحيث لا يدركه فيعلم ما غاب فی السماوات و الأرض عن إدراک العباد ﴿ **أَبْصِرْ بِهِ وَ أَسْمِعْ** ﴾ هذا لفظ التعجب و معناه ما أبصره و أسمعه أی ما أبصر الله تعالى لكل مبصر و ما أسمعه لكل مسموع فلا يخفى عليه من ذلک و إنما أخرجه مخرج التعجب على وجه التعظيم و روى أن يهوديا سأل على بن أبی طالبؑ عن مدة لبثهم فأخبر بما فی القرآن فقال أنا نجد فی كتابنا ثلاثمائة فقالؑ: «**ذاك بسني الشمس و هذا بسني القمر**».

و قوله ﴿ ما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أی ليس لأهل السماوات و الأرض من دون الله من ناصر يتولى نصرتهم ﴿ وَ لا يُشْرِكُ ﴾ الله ﴿ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴾ فلا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله تعالى به و قيل معناه أنه لا يشرک الله فی حكمه بما يخبر به من الغيب أحدا و على القراءة الأخرى معناه و لا تشرک أنت أيها الإنسان فی حكمه أحدا ثم قال سبحانه لنبيهﷺ ﴿ وَ اتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ ﴾ أی و اقرأ عليهم ما أوحى الله إليک من أخبار أصحاب الكهف و غيرهم فإن الحق فيه و قيل معناه اتبع القرآن و اعمل به ﴿ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ ﴾ أی لا مغير لما أخبر الله به فيه و ما أمر به و على هذا فيكون التقدير لا مبدل لحكم كلماته ﴿ وَ لَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً ﴾ معناه إن لم تتبع القرآن فلن تجد من دون الله ملجأ عن مجاهد و قيل حرزا عن ابن عباس و قيل موئلا عن قتادة و قيل معدلا و محيصا عن الزجاج و أبی مسلم و الأقوال متقاربة فی المعنى يقال لحد إلى كذا أو التحد إذا مال إليه.

***

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا وَاتَّبَعَ هَواهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرابُ وَساءَتْ مُرْتَفَقاً ﴿٢٩﴾

ثم أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالصبر مع المؤمنين فقال ﴿ وَ اصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ يا محمد ﷺ أى احبس نفسك ﴿ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ وَ الْعَشِيِّ ﴾ أى يداومون على الصلاة و الدعاء عند الصباح و المساء لا شغل لهم غيره و يستفتحون يومهم بالدعاء و يختمونه بالدعاء ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ أى رضوانه و قيل يريدون تعظيمه و القربة إليه دون الرياء و السمعة ﴿ وَ لا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ ﴾ أى و لا تتجاوز عيناك عنهم بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَياةِ الدُّنْيا ﴾ تريد فى موضع الحال أى مريدا مجالسة أهل الشرف و الغنى و كان النبى ﷺ حريصا على إيمان العظماء من المشركين طمعا فى إيمان أتباعهم و لم يمل إلى الدنيا و زينتها قط و لا إلى أهلها و إنما كان يلين فى بعض الأحايين للرؤساء طمعا فى إيمانهم فعوتب بهذه الآية و أمر بالإقبال على فقراء المؤمنين و أن لا يرفع بصره عنهم مريدا مجالسة الأشراف ﴿ وَ لا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا ﴾ قيل فى معناه أقوال (أحدها) أن معناه و لا تطع من جعلنا قلبه غافلا عن ذكرنا بتعريضه للغفلة و لهذا قال ﴿ وَ اتَّبَعَ هَواهُ ﴾ و مثله ﴿ فَلَمَّا زاغُوا أَزاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ (و ثانيها) أغفلنا قلبه أى نسبنا قلبه إلى الغفلة كما يقال أكفره إذا نسبه إلى الكفر و سماه كافرا كقول الكميت:

و طائفة قد أكفرونى بحبكم و طائفة قالوا مسىء و مذنب

(و ثالثها) أغفلنا قلبه صادفناه غافلا عن ذكرنا كما قالت العرب سألناكم فما أقحمناكم و قاتلناكم فما أجبناكم (و رابعها) أغفلنا قلبه أى جعلناه غفلا لم نسمة بسمة قلوب المؤمنين و لم نعلم فيه علامة المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة تقول العرب أغفل فلان ماشيته إذا لم يسمها بسمة تعرف (و خامسها) أن معناه و لا تطع من تركنا قلبه خذلناه و خلينا بينه و بين الشيطان بتركه أمرنا عن الحسن. **﴿ وَ اتَّبَعَ هَواهُ ﴾** أى لا تطع من اتبع هواه فى شهواته و أفعاله **﴿ وَ كانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾** أى سرفا و إفراطا عن مقاتل و الجبائى و قيل تجاوزا

للحد عن الأخفش و قيل ضياعا و هلاكا عن مجاهد و السدى قال الزجاج و من قدم العجز فى أمره أضاعه و أهلكه فيكون المعنى فى هذا أنه ترک الإيمان و الاستدلال بآيات الله و اتبع الهوى ثم قال سبحانه.

﴿ وَ قُلِ ﴾ يا محمد ﷺ لهؤلاء الذين أمروک بتنحية الفقراء ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أى هذا الحق من ربكم يعنى القرآن و قيل معناه الذى أتيتكم به الحق عن الزجاج من ربكم يعنى لم آتكم به من قبل نفسى و إنما أتيتكم به من قبل الله و قيل معناه ظهرت الحجة و وضح الحق من ربكم و زالت الشبهة ﴿ فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذا وعيد من الله سبحانه و إنذار و لذلک عقبه بقوله ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا ﴾ و إنما جاز التهديد بلفظ الأمر لأن المهدد كالمأمور بإهانة نفسه و معناه فليختر كل لنفسه ما شاء فإنهم لا ينفعون الله تعالى بإيمانهم و لا يضرونه بكفرهم و إنما يرجع النفع و الضر إليهم.

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا ﴾ أى هيأنا و أعددنا ﴿ لِلظَّالِمِينَ ﴾ أى الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى ﴿ ناراً أَحاطَ بِهِمْ سُرادِقُها ﴾ و السرادق حائط من نار يحيط بهم عن ابن عباس و قيل هو دخان النار و لهبها يصل إليهم قبل وصولهم إليها و هو الذى فى قوله ﴿ إِلى ظِلٍّ ذِي ثَلاثِ شُعَبٍ ﴾ عن قتادة و قيل أراد أن النار أحاطت بهم من جميع جوانبهم فشبه ذلک فى السرادق عن أبى مسلم ﴿ وَ إِنْ يَسْتَغِيثُوا ﴾ من شدة العطش و حر النار ﴿ يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ ﴾ و هو كل شىء أذيب كالرصاص و النحاس و الصفر عن ابن مسعود و قيل كعكر الزيت إذا قرب إليه سقطت فروة رأسه روى ذلک مرفوعا و قيل كدردى الزيت عن ابن عباس و قيل هو القيح و الدم عن مجاهد و قيل هو الذى انتهى حره عن سعيد بن جبير و قيل أنه ماء أسود و أن جهنم سوداء و ماؤها أسود و شجرها أسود و أهلها سود عن الضحاک ﴿ يَشْوِي الْوُجُوهَ ﴾ أى ينضجها عند دنوه منها و يحرقها و إنما جعل سبحانه ذلک إغاثة لاقترانه بذكر الإغاثة ﴿ بِئْسَ الشَّرابُ ﴾ ذلک المهل ﴿ وَ ساءَتْ ﴾ النار ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ أى متكئا لهم قيل ساءت مجتمعا مأخوذ من المرافقة و هى الاجتماع عن مجاهد و قيل منزلا و مستقرا عن ابن عباس و عطاء.

***

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ

يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ نِعْمَ الثَّوابُ وَ حَسُنَتْ مُرْتَفَقاً ﴿٣١﴾

لما تقدم الوعيد عقبه سبحانه بذكر الوعد فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ﴾ من الطاعات ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ أى لا نترك أعمالهم تذهب ضياعا بل نجازيهم و نوفيهم أجورهم من غير بخس ﴿ أُولئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أى إقامة لهم لأنهم يبقون فيها ببقاء الله دائما أبدا و قيل عدن بطنان الجنة أى وسطها و هى جنة من الجنان عن ابن مسعود و على هذا فإنما جمع لسعتها و لأن كل ناحية منها تصلح أن تكون جنة ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ ﴾ لأنهم على غرف فى الجنة كما قال: ﴿ وَ هُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ ﴾ و قيل أن أنهار الجنة تجرى فى أخاديد من الأرض فلذلك قال ﴿ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ ﴾.

﴿ يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ أى يجعل لهم فيها حلى من أساور و قيل أنه يحلى كل واحد بثلاثة أساور سوار من فضة و سوار من ذهب و سوار من لؤلؤ و ياقوت عن سعيد بن جبير ﴿ وَ يَلْبَسُونَ ثِياباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَ إِسْتَبْرَقٍ ﴾ أى من الديباج الرقيق و الغليظ و قيل إن الإستبرق فارسى معرب أصله إستبره قيل هو الديباج المنسوج بالذهب ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيها عَلَى الْأَرائِكِ ﴾ أى متنعمين فى تلك الجنات على السرر فى الحجال و إنما قال متكئين لأن الاتكاء يفيد أنهم منعمون فى الأمن و الراحة فإن الإنسان لا يتكئ إلا فى حال الأمن و السلامة ﴿ نِعْمَ الثَّوابُ ﴾ أى طاب ثوابهم و عظم عن ابن عباس ﴿ وَ حَسُنَتْ ﴾ الأرائك ﴿ مُرْتَفَقاً ﴾ أى موضع ارتفاق و قيل منزلا و مجلسا و مجتمعا.

***

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ﴿٣٣﴾ وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً ﴿٣٤﴾ وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ﴿٣٥﴾ وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً ﴿٣٦﴾

ثم ضرب الله لعباده مثلا يستفيئهم به إلى طاعته و يزجرهم عن معصيته و كفران نعمته فقال مخاطبا لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم ﴿ وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ ﴾ روى عن ابن عباس أنه قال يريد ابنى ملك كان فى بنى إسرائيل توفى و ترك ابنين و ترك مالا جزيلا فأخذ أحدهما حقه منه و هو المؤمن منهما فتقرب إلى الله تعالى و أخذ الآخر حقه فتملك به ضياعا منها هاتان الجنتان و فى تفسير على بن إبراهيم بن هاشم أنه يريد رجلا كان له بستانان كبيران كثيرا الثمار كما حكى سبحانه و كان له جار فقير فافتخر الغنى على الفقير و قال له أنا أكثر منك مالا و أعز نفرا و هذا أليق بالظاهر ﴿ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ ﴾ أى بستانين أجنهما الأشجار ﴿ مِنْ أَعْنابٍ وَ حَفَفْناهُما بِنَخْلٍ ﴾ أى جعلنا النخل مطيفا بهما ﴿ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً ﴾ أى و جعلنا بين البستانين مزرعة فكملت النعمة بالعنب و التمر و الزرع ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها ﴾ أى كل واحدة من البستانين آتت غلتها و أخرجت ثمرتها و سماه أكلا لأنه مأكول ﴿ وَ لَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً ﴾ أى لم تنقص منه شيئا بل أدته على التمام و الكمال كما قال الشاعر:

و يظلمنى مالى كذا و لوى يدى لوى يده الله الذى هو غالبه

أى ينقصنى مالى ﴿ وَ فَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً ﴾ أى شققنا وسط الجنتين نهرا يسقيهما حتى يكون الماء قريبا منهما يصل إليهما من غير كد و تعب و يكون ثمرهما و زرعهما بدوام الماء فيهما أوفى و أروى ﴿ وَ كانَ لَهُ ثَمَرٌ ﴾ قيل إن معناه و كان للنخل الذى فيهما ثمر و قيل معناه و كان للرجل ثمر ملكه من غير جنتيه كما يملك الناس ثمارا لا يملكون أصلها عن ابن عباس و قيل كان لهذا الرجل مع هذين البستانين الذهب و الفضة عن مجاهد و قيل كان له معهما جميع الأموال عن قتادة و ابن عباس فى رواية أخرى ﴿ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ ﴾ أى فقال الكافر لصاحبه المؤمن و هو يخاطبه و يراجعه فى الكلام ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَ أَعَزُّ نَفَراً ﴾ أى أعز عشيرة و رهطا و سمى العشيرة نفرا لأنهم ينفرون معه فى حوائجه و قيل معناه أعز خدما و ولدا عن قتادة و مقاتل ﴿ وَ دَخَلَ جَنَّتَهُ وَ هُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ أى و دخل الكافر بستانه و هو ظالم لنفسه بكفره و عصيانه ﴿ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً ﴾ أى ما أقدر أن تفنى هذه الجنة و هذه الثمار أبدا و قيل يريد ما أظن هذه الدنيا تفنى أبدا.

﴿ وَ ما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً ﴾ أى و ما أحسب القيامة آتية كائنة على ما يقوله الموحدون ﴿ وَ لَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً ﴾ معناه و لئن كانت القيامة و البعث حقا كما يقوله الموحدون لأجدن

خيرا من هذه الجنة قال الزجاج و هذا يدل على أن صاحبه المؤمن قد أعلمه أن الساعة تقوم و أنه يبعث فأجابه بأن قال له و لئن رددت إلى ربى أى كما أعطانى هذه فى الدنيا سيعطينى فى الآخرة أفضل منها لكرامتى عليه ظن الجاهل أنه أوتى ما أوتى لكرامته على الله تعالى و قيل معناه لأكتسبن فى الآخرة خيرا من هذه التى اكتسبتها فى الدنيا و من قرأ منهما رد الكناية إلى الجنتين اللتين تقدم ذكرهما و فى هذا دلالة على أنه لم يكن قاطعا على نفى المعاد بل كان شاكا فيه.

***

قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً ﴿٣٩﴾ فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها وَيَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مُنْتَصِراً ﴿٤٣﴾ هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً وَخَيْرٌ عُقْباً ﴿٤٤﴾

ثم بين سبحانه جواب المؤمن للكافر فقال ﴿ قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَ هُوَ يُحاوِرُهُ ﴾ أى يخاطبه و يجيبه مكفرا له بما قاله ﴿ أَ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ﴾ يعنى أصل الخلقة أى خلق أباك من تراب و هو آدم عليه السلام و قيل لما كانت النطفة خلقها الله سبحانه بمجرى العادة من الغذاء و الغذاء ينبت من تراب جاز أن يقول خلقك من تراب ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً ﴾ أى نقلك من حال إلى حال حتى جعلك بشرا سويا معتدل الخلقة و القامة و إنما كفره بإنكاره المعاد و فى هذا دلالة على أن الشك فى البعث و النشور كفر ﴿ لكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي ﴾ تقديره لكن أنا أقول هو الله ربى و خالقى و رازقى فإن افتخرت على بدنياك فإن افتخارى بالتوحيد.

﴿ وَ لا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ أى لا أشرک بعبادتى إياه أحدا سواه بل أوجهها إليه وحده خالصا و إنما استحال الشرک فى العبادة لأنها لا تستحق إلا بأصول النعم و بالنعمة التى لا يوازنها نعمة منعم و ذلک لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ثم قال ﴿ وَ لَوْ لا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ معناه و قال لصاحبه الكافر هلا حين دخلت بستانک فرأيت تلک الثمار و الزرع شكرت الله تعالى و قلت ما شاء الله كان و إنى و إن تعبت فى جمعه و عمارته فليس ذلک إلا بقدرة الله و تيسيره و لو شاء لحال بينى و بين ذلک و لنزع البركة عنه فإنه لا يقوى أحد على ما فى يديه من النعمة إلا بالله و لا يكون له إلا ما شاء الله ثم رجع إلى نفسه فقال ﴿ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَ وَلَداً فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ معناه إن كنت ترانى اليوم فقيرا أقل منک مالا و عشيرة و أولادا فلعل الله أن يؤتينى بستانا خيرا من بستانک فى الآخرة أو فى الدنيا و الآخرة.

﴿ وَ يُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماءِ ﴾ أى و يرسل على جنتک عذابا أو نارا من السماء فيحرقها عن ابن عباس و قتادة و قيل يرسل عليها عذاب حسبان و ذلک الحسبان حساب ما كسبت يداک عن الزجاج و قيل و يرسل عليها مرامى من عذابه إما بردا و إما حجارة أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ﴿ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً ﴾ أى أرضا مستوية لا نبات عليها تزلق عنها القدم فتصير أضر أرض من بعد أن كانت أنفع أرض ﴿ أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً ﴾ أى غائرا ذاهبا فى باطن غامض منقطعا فيكون أعدم أرض للماء بعد أن كانت أوجد أرض للماء ﴿ فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً ﴾ أى فلن تقدر على طلبه إذا غار و لا يبقى له أثر تطلبه به فلن تستطيع رده قيل معناه فلن تستطيع طلب غير ذلک الماء بدلا عنه إلى هنا انتهى مناظرة صاحبه و إنذاره ثم قال سبحانه ﴿ وَ أُحِيطَ بِثَمَرِهِ ﴾ معناه أهلک و أحيط العذاب بأشجاره و نخيله فهلكت عن آخرها تقول أحيط ببنى فلان إذا هلكوا عن آخرهم و أصل الإحاطة إدارة الحائط على الشىء و فى الخبر: «أن الله عز و جل أرسل عليها نارا فأهلكها و غار ماؤها».

﴿ فَأَصْبَحَ ﴾ هذا الكافر ﴿ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ تأسفا و تحسرا ﴿ عَلى ما أَنْفَقَ فِيها ﴾ من المال و هو أن يضرب يديه واحدة على الأخرى عن ابن عباس و تقليب الكفين يفعله النادم كثيرا فصار عبارة عن الندم ﴿ وَ هِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها ﴾ أى ساقطة على سقوفها و ما عرش لكرومها و ذلک أن السقف ينهدم أولا ثم ينهدم الحائط على السقف و قيل إن العروش الأبنية و معناه خالية على بيوتها قد ذهب شجرها و بقيت جدرانها لا خير فيها ﴿ وَ يَقُولُ يا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً ﴾ ندم على الكفر لفناء ماله لا لوجوب الإيمان

فلم ينفعه و لو ندم على الكفر فآمن بالله تحقيقا لانتفع به و قيل إنه ندم على ما كان منه من الشرك بالله تعالى و آمن ﴿ وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى لم يكن لهذا الكافر جماعة يدفعون عذاب الله عنه و قيل الفئة الجند قال العجاج: كما يجوز الفئة الكمى.

﴿ وَ ما كانَ مُنْتَصِراً ﴾ أى و ما كان ممتنعا عن قتادة قيل معناه و ما كان مستردا بدل ما ذهب عنه قال ابن عباس و هذان الرجلان هما اللذان ذكرهما الله تعالى فى سورة الصافات فى قوله ﴿ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ﴾ يقول أ إنك لمن المصدقين إلى قوله ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ ﴾ و روى هشام بن سالم و أبان بن عثمان عن الصادق عليه السلام قال: «عجبت لمن خاف كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَ فَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ و عجبت لمن اغتم كيف لايفزع إلى قوله: ﴿ لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنّي كنت من الظالمين ﴾ فإنّي سمعت الله سبحانه يقول بعقبها ﴿ فَاسْتَجَبْنا لَهُ وَ نَجَّيْناهُ مِنَ الْغَمِّ وَ كَذلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ و عجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبادِ ﴾ فإنّي سمعت الله عز و جل يقول بعقبها: ﴿ فَوَقاهُ اللَّهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا ﴾ و عجبت لمن أراد الدنيا و زينتها كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿ ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿ فَعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ ﴾ و عسى موجبة».

و قوله ﴿ هُنالِكَ الْوَلايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ أخبر سبحانه إن فى ذلك الموضع و فى ذلك الوقت الذى يتنازع فيه الكافر و المؤمن الولاية بالنصرة و الإعزاز لله عز و جل فهو الذى يتولى أمر عباده المؤمنين و يملك النصرة لمن أراد و قيل هنالك إشارة إلى يوم القيامة و تقديره الولاية يوم القيامة لله يريد يومئذ يتولون الله و يؤمنون به و يتبرءون مما كانوا يعبدون عن القتيبى و قيل معناه هنالك ينصر المؤمنين و يخذل الكافرين فالولاية يومئذ خالصة له لا يملكها أحد من العباد ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَواباً ﴾ أى هو أفضل ثوابا ممن يرجى ثوابا على تقدير لو كان يثيب غيره لكان هو خير ثوابا ﴿ وَ خَيْرٌ عُقْباً ﴾ أى عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره فهو خير عقب طاعة ثم حذف المضاف إليه و العقب و العقبى و العاقبة بمعنى.

***

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً وَحَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا عَلى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴿٤٩﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يضرب المثل للدنيا تزهيدا فيها و ترغيبا فى الآخرة فقال ﴿ **وَ اضْرِبْ** ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ **لَهُمْ مَثَلَ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ** ﴾ أى نبت بذلك الماء نبات التف بعضه ببعض يروق حسنا و غضاضة و هذا مفسر فى سورة يونس ﴿ **فَأَصْبَحَ هَشِيماً** ﴾ أى كسيرا مفتتا ﴿ **تَذْرُوهُ الرِّياحُ** ﴾ فتنقله من موضع إلى موضع فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات ﴿ **وَ كانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً** ﴾ أى قادرا لا يجوز عليه المنع قال الحسن أى كان الله مقتدرا على كل شىء قبل كونه قال الزجاج و تأويله أن ما شاهدتم من قدرته ليس بحادث و أنه كذلك كأن لم يزل هذا مذهب سيبويه و قيل إنه إخبار عن الماضى و دلالة على المستقبل و هذا المثل إنما هو للمتكبرين الذين اغتروا بأموالهم و استنكفوا عن مجالسة فقراء المؤمنين أخبرهم الله سبحانه أن ما كان من الدنيا لا يراد الله سبحانه به فهو كالنبت الحسن على المطر لا مادة له فهو يروق ما خالطه ذلك الماء فإذا انقطع عنه عاد هشيما لا ينتفع به.

ثم قال ﴿ **الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا** ﴾ أى يتفاخر بهما و يتزين بهما فى الدنيا و لا ينتفع بهما فى الآخرة و إنما سماهما زينة لأن فى المال جمالا و فى البنين قوة و دفعا فصارا زينة الحياة الدنيا و كلاهما لا يبقى للإنسان فينتفع به فى الآخرة «﴿ **وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ** ﴾ و هى الطاعات لله تعالى و جميع الحسنات لأن ثوابها يبقى أبدا عن ابن عباس و قتادة ﴿ **خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَ خَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ أى أفضل ثوابا و أصدق أملا من المال و البنين و سائر زهرات الدنيا فإن من الآمال كواذب و هذا أمل لا يكذب لأن من عمل الطاعة وجد ما يأمله عليها من الثواب و قيل إن الباقيات الصالحات هى ما كان يأتى به سلمان و صهيب و فقراء المسلمين و هو سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر عن ابن عباس فى رواية عطا و مجاهد و

عكرمة و روى أنس بن مالک عن النبی صلی الله علیه و آله أنه قال لجلسائه: «**خذوا جنتكم قالوا احذر عدو قال خذوا جنتكم من النار قولوا سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر فإنهم المقدمات و هن المجيبات و هن المعقبات و هن الباقيات الصالحات**». و رواه أصحابنا عن أبی عبدالله علیه السلام عن آبائه عن النبی صلی الله علیه و آله: «**ثم قال و لذكر الله أكبر قال ذكر الله عند ما أحل أو حرم**». و روی عن النبی صلی الله علیه و آله أنه قال: «**إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه و عن العدو أن تجاهدوه فلا تعجزوا عن قول سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر فإنهن من الباقيات الصالحات فقولوها**». و قيل: «**هي الصلوات الخمس عن ابن مسعود و سعيد بن جبير و مسروق و النخعي**» و روی ذلک عن أبی عبدالله علیه السلام و روی عنه أيضا: «**أن من الباقيات الصالحات القيام بالليل لصلاة الليل**». و قيل إن الباقيات الصالحات هن البنات الصالحات و الأولى حملها على العموم فيدخل فيها جميع الطاعات و الخيرات و فی كتاب ابن عقدة أن أبا عبدالله علیه السلام قال للحصين بن عبدالرحمن: «**يا حصين لا تستصغر مودتنا فإنها من الباقيات الصالحات قال يا ابن رسول الله ما استصغرها و لكن أحمد الله عليها**».

و إنما سميت الطاعات صالحات لأنها أصلح الأعمال للمكلف من حيث أمر بها و وعد الثواب عليها و توعد بالعقاب على تركها ﴿ وَ يَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبالَ ﴾ قيل إنه يتعلق بما قبله و تقديره و الباقيات الصالحات خير ثوابا فی هذا اليوم و قيل إنه ابتداء كلام و تقديره و اذكر يوم نسير الجبال يعنی يوم القيامة، و تسيير الجبال قلعها عن أماكنها فإن الله سبحانه يقلعها و يجعلها هباء منثورا و قيل نسيرها على وجه الأرض كما نسير السحاب فی السماء ثم يجعلها كثيبا مهيلا كما قال ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَ الْجِبالُ ﴾ الآية ثم يصيرها كالعهن المنفوش ثم يصيرها هباء منبثا فی الهواء كما قال﴿ وَ بُسَّتِ الْجِبالُ بَسًّا فَكانَتْ هَباءً مُنْبَثًّا ﴾ ثم يصيرها بمنزلة السراب كما قال ﴿ وَ سُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً ﴾

﴿ وَ تَرَى الْأَرْضَ بارِزَةً ﴾ أی ظاهرة ليس عليها شیء من جبل أو بناء أو شجر يسترها عن عيون الناظرين و قيل إن معناه و ترى باطن الأرض ظاهرا قد برز من كان فی بطنها فصاروا على ظهرها عن عطا و تقديره و ترى ما فی الأرض بارزاً فهو مثل قول النبی صلی الله علیه و آله: «ترمي الأرض بأفلاذ كبدها». ﴿ وَ حَشَرْناهُمْ ﴾ أی و بعثناهم من قبورهم و جمعناهم فی الموقف ﴿ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ أی فلم نترک منهم أحدا إلا حشرناه ﴿ وَ عُرِضُوا عَلى رَبِّكَ ﴾ يعنی المحشورين يعرضون على الله تعالى يوم القيامة ﴿ صَفًّا ﴾ أی مصفوفين كل زمرة و أمة صفا و قيل يعرضون صفا بعد صف كالصفوف فی الصلاة و قيل يعرضون صفا واحدا لا

يحجب بعضهم بعضا و يقال لهم ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونا كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ معناه لقد جئتمونا ضعفاء فقراء عاجزين فى الموضع الذى لا يملك فيه الحكم غيرنا كما كنتم فى ابتداء الخلق لا تملكون شيئا و قيل معناه ليس معكم شىء مما اكتسبتموه فى الدنيا من الأموال و الأولاد و الخدم تنتفعون به كما كنتم فى أول الخلق و روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «يحشر الناس من قبورهم يوم القيامة حفاة عراة غرلا فقالت عائشة: يا رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم أ ما يستحي بعضهم من بعض فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾»

﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً ﴾ أى و يقال لهم أيضا بل زعمتم فى دار الدنيا أن الله لم يجعل لكم موعدا للبعث و الجزاء و الحساب يوم القيامة ﴿ وَ وُضِعَ الْكِتابُ ﴾ أى و وضع الكتب فإن الكتاب اسم جنس و المعنى و وضعت صحائف بنى آدم فى أيديهم و قيل معناه و وضع الحساب فعبر عن الحساب بالكتاب لأنهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة عن الكلبى ﴿ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ أى خائفين مما فيه من الأعمال السيئة ﴿ وَ يَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ﴾ هذه لفظة يقولها الإنسان إذا وقع فى شدة فيدعو على نفسه بالويل و الثبور ﴿ ما لِهذَا الْكِتابِ ﴾ أى أى شىء لهذا الكتاب ﴿ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَ لا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصاها ﴾ أى لا يترك صغيرة من الذنوب و لا كبيرة إلا عدها و أثبتها و حواها و قد مر تفسير الصغيرة و الكبيرة فى سورة النساء و أنث الصغيرة و الكبيرة بمعنى الفعلة و الخصلة ﴿ وَ وَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِراً ﴾ أى مكتوبا فى الكتاب مثبتا و قيل معناه وجدوا جزاء ما عملوا حاضرا فجعل وجود الجزاء كوجود الأعمال توسعا ﴿ وَ لا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ معناه و لا ينقص ربك ثواب محسن و لا يزيد فى عقاب مسىء و فى هذا دلالة على أنه سبحانه لا يعاقب الأطفال لأنه إذا كان لا يزيد فى عقوبة المذنب فكيف يعاقب من ليس بمذنب.

***

وَإِذْ قُلْنا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴿٥٠﴾ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴿٥١﴾ وَ يَوْمَ يَقُولُ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً ﴿٥٢﴾

ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يذكر هؤلاء المتكبرين عن مجالسة الفقراء قصة إبليس و ما أورثه الكبر فقال ﴿ وَ إِذْ قُلْنا ﴾ أى و اذكر يا محمد ﷺ إذ قلنا ﴿ لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ﴾ قد مر تفسيره فيما تقدم و إنما تقرر هذا القول فى القرآن لأجل ما بعده مما يحتاج اتصاله به فهو كالمعنى الذى يفيد أمرا فى مواضع كثيرة للإخبار عنه بأخبار مختلفة و قوله ﴿ كانَ مِنَ الْجِنِّ ﴾ من قال إن إبليس لم يكن من الملائكة استدل بهذا لأن الجن غير الملائكة كما أنهم غير الإنس و من قال إنه كان من الملائكة قال إن المعنى كان من الذين يستترون عن الأبصار مأخوذ من الجن و هو الستر و قيل كان من قبيل من الملائكة يقال لهم الجن كانوا خزان الجنان فأضيفوا إليها كقولك كوفى بصرى و ضعف الأولون هذين الوجهين لأن لفظ الجن إذا أطلق فالمفهوم منه هذا الجنس المعروف لا الملائكة.

﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ أى خرج عن طاعة ربه ثم خاطب الله سبحانه المشركين فقال ﴿ أَ فَتَتَّخِذُونَهُ وَ ذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِي وَ هُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ معناه أ فتتبعون أمر إبليس و أمر ذريته و تتخذونهم أولياء تتولونهم بالطاعة من دونى و هم جميعا أعداء لكم و العاقل حقيق بأن يتهم عدوه على نفسه و هذا استفهام بمعنى الإنكار و التوبيخ قال مجاهد: ذريته الشياطين و قال الحسن: الجن من ذريته ﴿ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ تقديره بئس البدل للظالمين بدلا و معناه بئس ما استبدلوا بعبادة ربهم إذا أطاعوا إبليس عن الحسن و قيل بئس البدل طاعة الشيطان عن طاعة الرحمن عن قتادة ﴿ ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ لا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى ما أحضرت إبليس و ذريته خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم مستعينا بهم على ذلك و لا استعنت ببعضهم على خلق بعض و هذا إخبار عن كمال قدرته و استغنائه عن الأنصار و الأعوان و يدل عليه قوله ﴿ وَ ما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً ﴾ أى الشياطين الذين يضلون الناس أعوانا يعضدوننى عليه و كثيرا ما يستعمل العضد بمعنى العون و إنما وحده هنا لوفاق الفواصل و قيل إن معنى الآية أنكم اتبعتم الشيطان كما يتبع من يكون عنده علم لا ينال إلا من جهته و إنا ما أطلعتهم على خلق السماوات و الأرض و لا على خلق أنفسهم و لم أعطهم العلم بأنه كيف تخلق الأشياء فمن أين تتبعونهم و قيل معناه ما أحضرت مشركى العرب و هؤلاء الكفار خلق السماوات و الأرض و لا خلق أنفسهم أى و ما أحضرت بعضهم خلق بعض بل لم يكونوا موجودين فخلقتهم فمن أين قالوا إن الملائكة بنات الله و من أين ادعوا ذلك.

﴿ وَ يَوْمَ يَقُولُ ﴾ يريد يوم القيامة يقول الله للمشركين و عبدة الأصنام ﴿ نادُوا شُرَكائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ فى الدنيا أنهم شركائى ليدفعوا عنكم العذاب ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ يعنى المشركين يدعون أولئک الشركاء الذين عبدوهم مع الله ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى فلا يستجيبون لهم و لا ينفعونهم شيئا ﴿ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ ﴾ أى بين المؤمنين و الكافرين ﴿ مَوْبِقاً ﴾ و هو اسم واد عميق فرق الله به سبحانه بين أهل الهدى و أهل الضلالة عن مجاهد و قتادة و قيل بين المعبودين و عبدتهم موبقا أى حاجزا عن ابن الأعرابى أى فأدخلنا من كانوا يزعمون أنهم معبودهم مثل الملائكة و المسيح و الجنة و أدخلنا الكفار النار و قيل معناه جعلنا تواصلهم فى الدنيا موبقا أى مهلكا لهم فى الآخرة عن الفراء و روى ذلک عن قتادة و ابن عباس فالبين على هذا القول معناه التواصل و المعنى أن تواصلهم و توادهم فى الكفر صار سبب هلاكهم فى الآخرة و قيل موبقا عداوة عن الحسن فكأنه قال عداوة مهلكة و روى عن أنس بن مالک أنه قال الموبق واد فى جهنم من قيح و دم.

***

وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنا فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴿٥٤﴾ وَما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلاَّ أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً ﴿٥٥﴾ وَما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ ما أُنْذِرُوا هُزُواً ﴿٥٦﴾

ثم بين سبحانه حال المجرمين فقال ﴿ وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ يعنى المشركين رأوا النار و هى تتلظى حنقا عليهم عن ابن عباس و قيل هو عام فى أصحاب الكبائر ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُواقِعُوها ﴾ أى علموا أنهم داخلون فيها واقعون فى عذابها ﴿ وَ لَمْ يَجِدُوا عَنْها مَصْرِفاً ﴾ أى معدلا و موضعا ينصرفون إليه ليتخلصوا منها ﴿ وَ لَقَدْ صَرَّفْنا ﴾ أى بينا ﴿ فِي هذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ و تصريفها ترديدها من نوع واحد و أنواع مختلفة ليتفكروا فيها و قد مر تفسيره فى بنى إسرائيل ﴿ وَ كانَ الْإِنْسانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ يريد بالإنسان النضر بن الحارث عن ابن عباس و يريد أبى بن خلف عن الكلبى و قال الزجاج: معناه و كان الكافر يدل عليه قوله ﴿ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ «وَ ما مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جاءَهُمُ الْهُدى وَ

يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ﴾ معناه ما منعهم من الإيمان بعد مجيء الدلالة و من أن يستغفروا ربهم على ما سبق من معاصيهم ﴿ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى إلا طلب أن تأتيهم العادة فى الأولين من عذاب الاستئصال حيث آتاهم العذاب من حيث لا يشعرون حين امتنعوا من قبول الهدى و الإيمان.

﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ قُبُلاً ﴾ أو طلب أن يأتيهم العذاب عيانا مقابلة من حيث يرونه و تأويله أنهم بامتناعهم من الإيمان بمنزلة من يطلب هذا حتى يؤمنوا كرها لأنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم و هذا كما يقول القائل لغيره ما منعک أن تقبل قولى إلا أن تضرب على أن المشركين قد طلبوا مثل ذلک فقالوا﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ و من قرأ قبلا فهو فى معنى الأول و يجوز أن يكون أيضا جمع قبيل و هو الجماعة أى يأتيهم العذاب ضروبا من كل جهة ثم بين سبحانه أنه قد أزاح العلة و أظهر الحجة و أوضح المحجة فقال ﴿ وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ ﴾ أى لم نرسل الرسل إلى الخلق إلا مبشرين لهم بالجنة إذا أطاعوا أو مخوفين لهم بالنار إذا عصوا ﴿ وَ يُجادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْباطِلِ ﴾ أى و يناظر الكفار دفعا عن مذاهبهم بالباطل ﴿ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ أى ليزيلوا الحق عن قراره قال ابن عباس: يريد المستهزءين و المقتسمين و أتباعهم و جدالهم بالباطل أنهم ألزموه أن يأتى بالآيات على أهوائهم على ما كانوا يقترحونه ليبطلوا به ما جاء به محمدﷺ يقال أدحضت حجته أى أبطلتها ﴿ وَ اتَّخَذُوا آياتِي ﴾ يعنى القرآن ﴿ وَ ما أُنْذِرُوا ﴾ أى ما تخوفوا به من البعث و النار ﴿ هُزُواً ﴾ مهزوا به استهزءوا به.

***

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرى أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴿٥٩﴾

ثم قال سبحانه ﴿ وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها ﴾ معناه ليس أحد أظلم لنفسه ممن ذكر أى وعظ بالقرآن و آياته و نبه على أدلة التوحيد فأعرض عنها جانبا ﴿ وَ نَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ ﴾ أى نسى

المعاصى التى استحق بها العقاب و قيل معناه تذكر و اشتغل عنه استخفافا به و قلة معرفة بعاقبته لأنه نسى ذلک ثم قال سبحانه ﴿ إِنَّا جَعَلْنا عَلى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ و هى جمع كنان ﴿ أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ أى كراهة أن يفقهوه أو لئلا يفقهوه ﴿ وَ فِي آذانِهِمْ وَقْراً ﴾ أى ثقلا و قد تقدم بيان هذا فيما مضى و جملته أنه على التمثيل كما قال فى موضع آخر﴿ وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فالمعنى كان على قلوبهم أكنة أن يفقه و فى آذانهم وقرا أن يسمع.

﴿ وَ إِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً ﴾ أخبر سبحانه أنهم لا يؤمنون أبدا و قد خرج مخبره موافقا لخبره فماتوا على كفرهم ﴿ وَ رَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ معناه و ربک الساتر على عباده الغافر لذنوب المؤمنين ذو النعمة و الإفضال على خلقه و قيل الغفور التائب ذو الرحمة للمصر بأن يمهل و لا يعجل و قيل الغفور لا يؤاخذهم عاجلا ذو الرحمة يؤخرهم ليتوبوا ﴿ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ﴾ فى الدنيا ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ و هو يوم القيامة و البعث ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أى ملجأ عن ابن عباس و قتادة و قيل محرزا عن مجاهد و قيل منجا ينجيهم عن أبى عبيد قال: يقال لا وألت نفسه أى لا نجت قال الأعشى:

و قد أخالس رب البيت غفلته و قد يحاذر منى ثم لا يئل

و قال الآخر:

لا وألت نفسک خليتها للعامريين و لم تكلم

﴿ وَ تِلْكَ الْقُرى ﴾ إشارة إلى قرى عاد و ثمود و غيرهم ﴿ أَهْلَكْناهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بتكذيب أنبياء الله و جحود آياته ﴿ وَ جَعَلْنا لِمَهْلِكِهِمْ ﴾ أى و جعلنا لوقت إهلاكهم أو لوقت هلاكهم ﴿ مَوْعِداً ﴾ معلوما يهلكون فيه لمصلحة اقتضت تأخيره إليه و إنما قال سبحانه ﴿ تِلْكَ الْقُرى ﴾ ثم قال ﴿ أَهْلَكْناهُمْ ﴾ و لم يقل أهلكناها لأن القرية هى المسكن نحو المدينة و البلدة و هى لا تستحق الهلاک و إنما يستحق الهلاک أهلها و لذلک قال ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ يعنى أهل القرية الذين أهلكناهم.

***

وَإِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً ﴿٦٢﴾ قالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَما أَنْسانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴿٦٣﴾ قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً ﴿٦٤﴾

﴿ وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ ﴾ أكثر المفسرين على أنه موسى بن عمران و فتاه يوشع بن نون و سماه فتاه لأنه صحبه و لازمه سفرا و حضرا للتعلم منه و قيل لأنه كان يخدمه و لهذا قال له ﴿ آتِنا غَداءَنا ﴾ و هو يوشع بن نون بن أفراثيم بن يوسف بن يعقوب و قال محمد بن إسحاق يقول أهل الكتاب إن موسى الذى طلب الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف و كان نبيا فى بنى إسرائيل قبل موسى بن عمران إلا أن الذى عليه الجمهور أنه موسى بن عمران و لأن إطلاقه يوجب صرفه إلى موسى بن عمران كما أن إطلاق محمد صلى الله عليه و آله ينصرف إلى نبينا صلى الله عليه و آله. قال على بن إبراهيم حدثنى محمد بن على بن بلال قال: «اختلف يونس و هشام بن إبراهيم في العالم الذي أتاه موسى أيهما كان أعلم و هل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته و هو حجة الله على خلقه فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك فكتب في الجواب أتى موسى عليه السلام العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر فسلم عليه موسى عليه السلام فأنكر السلام إذ كان بأرض ليس بها سلام قال من أنت قال أنا موسى بن عمران عليهما السلام قال أنت موسى بن عمران عليهما السلام الذي كلمه الله تكليما قال نعم قال فما حاجتك قال جئت لتعلمني مما علمت رشدا قال إني وكلت بأمر لا تطيقه و وكلت بأمر لا أطيقه».

الخبر بطوله ﴿ **لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ** ﴾ معناه لا أزال أمضى و أمشى و لا أسلك طريقا آخر حتى أبلغ ملتقى البحرين بحر فارس و بحر الروم و مما يلى المغرب بحر الروم و مما يلى المشرق بحر فارس عن قتادة و قال محمد بن كعب هو طنجة و روى عنه إفريقية و كان وعد أن يلقى عنده الخضر ﴿ **أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً** ﴾ أى دهرا عن ابن عباس و قيل سبعين سنة عن مجاهد و قيل ثمانين سنة عن عبدالله بن عمر ﴿ **فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما** ﴾ أى فلما بلغ الموضع الذى يجتمع فيه رأس البحرين ﴿ **نَسِيا حُوتَهُما** ﴾ أى تركاه و قيل إنه ضل الحوت عنهما حين اتخذ سبيله فى البحر سربا فسمى ضلاله عنهما نسيانا منهما له و قيل إنه من النسيان و الناسى له كان أحدهما و هو يوشع، فأضيف النسيان إليهما كما يقال نسى القوم زادهم إذا نسيه متعهد أمرهم و قيل إن النسيان وجد منهما جميعا فإن يوشع نسى أن يحمل الحوت أو أن يذكر

موسى ما قد رأى من أمره و نسى موسى أن يأمره فيه بشيء فصار كل واحد منهما ناسيا لغيره ما نسيه الآخر.

و قوله ﴿ **فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً** ﴾ أى فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكا يذهب فيه و ذلك أن موسى و فتاه تزودا حوتا مملوحا عن ابن عباس و قيل حوتا طريا عن الحسن ثم انطلقا يمشيان على شاطئ البحر حتى انتهيا إلى صخرة على ساحل البحر فأويا إليها و عنده عين ماء تسمى عين الحياة فجلس يوشع بن نون و توضأ من تلك العين فانتضح على الحوت شيء من ذلك الماء فعاش و وثب فى الماء و جعل يضرب بذنبه الماء فكان لا يسلك طريقا فى البحر إلا صار الماء جامدا فذلك معنى قوله ﴿ **فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً** ﴾ ﴿ **فَلَمَّا جاوَزا** ﴾ ذلك المكان ﴿ **قالَ** ﴾ موسى ﴿ **لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا** ﴾ قيل إنهما انطلقا بقية يومهما و ليلتهما فلما كان من الغد قال موسى ليوشع آتنا غداءنا أى أعطنا ما نتغدى به و الغداء طعام الغداة و العشاء طعام العشى و الإنسان إلى الغداء أشد حاجة منه إلى العشاء ﴿ **لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً** ﴾ أى تعبا و شدة قالوا إن الله تعالى ألقى على موسى عليه السلام الجوع ليتذكر حديث الحوت.

﴿ قالَ ﴾ له يوشع عند ذلك ﴿ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ و معناه أن يوشع تذكر قصة الحوت لما دعا موسى عليه السلام بالطعام ليأكل فقال له أ رأيت حين رجعنا إلى الصخرة و نزلنا هناك فإنى تركت الحوت و فقدته و قيل نسيته و نسيت حديثه و قيل فيه إضمار أى نسيت أن أذكر لک أمر الحوت ثم اعتذر فقال ﴿ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ و ذلک أنه لو ذكر لموسى عليه السلام قصة الحوت عند الصخرة لما جاوزها موسى عليه السلام و لما ناله النصب الذى أشكاه و لم يلق فى سفره النصب إلا يومئذ ﴿ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ أى سبيلا عجبا و هو أن الماء انجاب عنه و بقى كالكوة لم يلتئم و قيل إن كلام يوشع قد انقطع عند قوله ﴿ فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ فقال موسى عليه السلام عند ذلک عجبا كيف كان ذاک و قيل إن معناه و اتخذ موسى عليه السلام سبيل الحوت فى البحر عجبا عن ابن عباس و المعنى دخل موسى الكوة على إثر الحوت فإذا هو بالخضر ﴿ قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ ﴾ قال موسى عليه السلام ذلک ما كنا نطلب من العلامة ﴿ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما ﴾ أى رجعا و عادا عودهما على بدئهما فى الطريق الذى جاءا منه يقصان آثارهما ﴿ قَصَصاً ﴾ أى و يتبعانها و يوشع أمام موسى عليه السلام حتى انتهيا إلى مدخل الحوت.

القصة

سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أخبرنى أبى بن كعب قال خطبنا رسول‌الله ﷺ فقال: «إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم قال أنا فعتب الله عليه إذا لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يا رب فكيف لي به قال تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما و اضطرب الحوت في المكتل فخرج منه فسقط في البحر و اتخذ سبيله في البحر سربا و أمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما و ليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى عليه السلام لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا قال و لم يجد موسى عليه السلام النصب حتى جاوز المكان الذي أمر الله تعالى به فقال فتاه: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾» الآية قال و كان للحوت سربا و لموسى عليه السلام و لفتاه عجبا فقال موسى عليه السلام ﴿ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ ﴾ الآية قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجى بثوب فسلم عليه موسى عليه السلام فقال الخضر عليه السلام و أنى بأرضک السلام قال أنا موسى عليه السلام قال موسى عليه السلام بنى إسرائيل قال نعم أتيتک لتعلمنى مما علمت رشدا ﴿ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ يا موسى عليه السلام إنى على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه و أنت على علم من علم الله علمک لا أعلمه أنا فقال له موسى عليه السلام ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً فقال له الخضر عليه السلام ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت سفينة و كلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوه بغير قول فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا و الخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى عليه السلام قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ قال و قال رسول‌الله ﷺ: «كانت الأولى من موسى عليه السلام نسيانا» و قال و جاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر فى البحر نقرة فقال له الخضر عليه السلام ما علمى و علمک من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان فأخذ الخضر رأسه بيده فأقلعه فقتله فقال له موسى عليه السلام ﴿ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ قال و هذه أشد من الأولى ﴿ قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي إلى قوله يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ ﴾ كان مائلا فقال الخضر عليه السلام بيده فأقامه فقال موسى عليه السلام قوم قد

أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيفونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ ﴾ فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما».

قال سعيد بن جبير كان ابن عباس يقرأ و كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا و كان يقرأ و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين رواه البخارى و مسلم فى الصحيحين و روى أصحابنا عن أبى عبدالله عليه السلام أيضا: «**أنه كان يقرأ كل سفينة صالحة غصبا**». و روى ذلک أيضا عن أبى جعفر قال و هى قراءة أمير المؤمنين عليه السلام.

***

فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾ قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴿٦٦﴾ قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ صابِراً وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴿٦٩﴾ قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَخَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴿٧١﴾ قالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٢﴾ قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴿٧٤﴾ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٥﴾

﴿ فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا ﴾ أى صادف موسى و فتاه و أدركا عبدا من عبادنا قائما على الصخرة يصلى و هو الخضر عليه السلام و اسمه بليا بن ملكان و إنما سمى خضرا لأنه إذا صلى فى مكان أخضر ما حوله و روى مرفوعا: «أنه قعد على فروة بيضاء فاهتزت تحته خضراء». و قيل إنه رآه على طنفسة خضراء فسلم عليه فقال و عليک السلام يا نبى بنى إسرائيل فقال له موسى و ما أدراک من أنا و من أخبرک أنى نبى قال من دلک على و اختلف فى هذا العبد فقال بعضهم إنه كان ملكا أمر الله تعالى موسى أن يأخذ عنه ما حمله إياه من علم بواطن الأشياء و قال الأكثرون إنه كان من البشر ثم اختلفوا فقال الجبائى و غيره أنه كان نبيا لأنه لا يجوز أن يتبع النبى من ليس بنبى ليتعلم منه العلم لما فى ذلک من الغضاضة على النبى و كان

ابن الإخشيد يجوز أن لا يكون نبيا و يكون عبدا صالحا أودعه الله من علم باطن الأمور ما لم يودعه غيره و هذا ليس بالوجه و متى قيل كيف يكون نبى أعلم من موسى فى وقته قلنا يجوز أن يكون الخضر خص بعلم ما لا يتعلق بالأداء فاستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط و إن كان موسى أعلم منه فى العلوم التى يؤديها من قبل الله تعالى ﴿ آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا ﴾ يعنى النبوة و قيل طول الحياة ﴿ وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ أى علما من علم الغيب عن ابن عباس و قال الصادق عليه السلام: «كان عنده علم لم يكتب لموسى عليه السلام في الألواح و كان موسى يظن أن جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته و أن جميع العلم قد كتب له في الألواح».

﴿ قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أى علما ذا رشد قال قتادة لو كان أحد مكتفيا من العلم لاكتفى نجى الله موسى عليه السلام و لكنه قال ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ الآية عظمه بهذا القول غاية التعظيم حيث أضاف العلم إليه و رضى باتباعه و خاطبه بمثل هذا الخطاب و الرشد العلوم الدينية التى ترشد إلى الحق و قيل هو علوم الألطاف الدينية التى تخفى على الناس ﴿ قالَ ﴾ العالم ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أى يثقل عليك الصبر و لا يخف عليك و لم يرد أنه لا يقدر على الصبر و إنما قال ذلك لأن موسى عليه السلام كان يأخذ الأمور على ظواهرها و الخضر كان يحكم بما علمه الله من بواطنها فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك. ثم قال ﴿ وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴾ أى كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكر و أنت لم تعرف باطنه و لم تعلم حقيقته و الخبر العلم و فى هذا دلالة على أنه لم يرد بقوله ﴿ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ نفى الاستطاعة للصبر لأنه لو أراد ذلك لكان لا يستطيع الصبر سواء علم أو لم يعلم.

﴿ **قالَ** ﴾ موسى عليه السلام ﴿ **سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً** ﴾ أى اصبر على ما أرى منك ﴿ **وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً** ﴾ تأمرنى به و لا أخالفك فيه قال الزجاج: و فيما فعله موسى عليه السلام و هو من جملة الأنبياء من طلب العلم و الرحلة فيه ما يدل على أنه لا ينبغى لأحد أن يترك طلب العلم و إن كان قد بلغ نهايته و أنه يجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه و إنما قيد عليه السلام صبره بمشيئة الله لأنه أخبر به على ظاهر الحال فجوز أن لا يصبر فيما بعد بأن يعجز عنه فقال إن شاء الله ليخرج بذلك من أن يكون كاذبا ﴿ **قالَ** ﴾ الخضر له ﴿ **فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي** ﴾ و اقتفيت أثرى ﴿ **فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً** ﴾ أى لا تسألنى عن شىء أفعله مما تنكره و لا تعلم باطنه حتى أكون أنا الذى أفسره لك ﴿ **فَانْطَلَقا** ﴾ يمشيان على شاطئ البحر

﴿ **حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها** ﴾ و معناه أنهما أرادا أن يعبرا فى البحر إلى أرض أخرى فأتيا معبرا فعرف صاحب السفينة الخضرعليه السلام فحملهما فلما ركبا فى السفينة خرق الخضرعليه السلام السفينة أى شقها حتى دخلها الماء و قيل إنه قلع لوحين مما يلى الماء فحشاهما موسىعليه السلام بثوبه و ﴿ **قالَ** ﴾ **منكرا عليه** ﴿ **أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها** ﴾ **و لم يقل لنغرق و إن كان فى غرقها غرق جميعهم لأنه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه جريا على عادة الأنبياء.**

ثم قال بعد إنكاره ذلک ﴿ **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً** ﴾ أى منكرا عظيما يقال أمر الأمر أمرا إذا كبر و الأمر الاسم منه فـ ﴿ **قالَ** ﴾ له الخضر ﴿ **أَ لَمْ أَقُلْ** ﴾ لک ﴿ **إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ أى أ لم أقل حين رغبت فى اتباعى إن نفسک لا تطاوعک على الصبر معى فتذكر موسى ما بذل له من الشرط ثم ﴿ **قالَ** ﴾ معتذراً مستقيلاً ﴿ **لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ** ﴾ أى غفلت من التسليم لک و ترک الإنكار عليک و هو من النسيان الذى هو ضد الذكر و روى عن أبى ابن كعب قال إنه لم ينس و لكنه من معاريض الكلام و قيل بما تركت من وصيتک و عهدک عن ابن عباس و على هذا فيكون من النسيان بمعنى الترک لا بمعنى الغفلة و السهو.

﴿ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴾ أى لا تكلفنى مشقة تقول أرهقته عسرا إذا كلفته ذاک و المعنى عاملنى باليسر و لا تعاملنى بالعسر و لا تضيق على الأمر فى صحبتى إياک ﴿ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ ﴾ و معناه فخرجا من البحر و انطلقا يمشيان فى البر يعنى موسى و الخضر و لم يذكر يوشع لأنه كان تابعا لموسى أو كان قد تأخر عنهما و هو الأظهر لاختصاص موسى بالنبوة و اجتماعه مع الخضرعليه السلام فى البحر فلقيا غلاما يلعب مع الصبيان فذبحه بالسكين عن سعيد بن جبير و كان من أحسن أولئک الغلمان و أصبحهم و قيل صرعه ثم نزع رأسه من جسده و قيل ضربه برجله فقتله و قال الأصم كان شابا بالغا لأن غير البالغ لا يستحق القتل و قد يسمى الرجل غلاما قالت ليلى الأخيلية:

شفاها من العضال الذى بها غلام إذا هز القناة سقاها

﴿ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً ﴾ أى طاهرة من الذنوب و زكية بريئة من الذنوب و قيل الزاكية التى لم تذنب و الزكية التى أذنبت ثم تابت حكى ذلک عن أبى عمرو بن العلاء و قيل الزكية أشد مبالغة من الزاكية عن تغلب و قيل الزاكية فى البدن و الزكية فى الدين ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ أى بغير قتل نفس يريد القود ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً ﴾ أى قطعيا منكرا لا يعرف فى شرع و المنكر أشد من الأمر عن قتادة و إنما قال ذلک لأن قلبه

صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله ﴿ قالَ ﴾ العالم ﴿ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أعاد هذا القول لتأكيد الأمر عليه و التحقيق لما قاله أولا مع النهى عن العود بمثل سؤاله.

***

قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴿٧٦﴾ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴿٧٧﴾ قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴿٧٩﴾ وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴿٨١﴾ وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾

﴿ قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي ﴾ أى قال له موسى جوابا إن سألتک عن شيء بعد هذه المرة أو بعد هذه النفس و قتلها فلا تتركنى أصحبک ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً ﴾ أى قد أعذرت فيما بينى و بينک و قد أخبرتنى أنى لا أستطيع معک صبرا عن ابن عباس و هذا إقرار من موسى عليه السلام بأن الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده فلا يلزمه ما أنكره و روى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم تلا هذه الآية فقال: «استحيى نبي الله موسى عليه السلام و لو صبر لرأى ألفا من العجائب».

﴿ فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ و هى أنطاكية عن ابن عباس و قيل إيلة عن ابن سيرين و محمد بن كعب و قيل: «**هي قرية على ساحل البحر يقال لها ناصرة و بها سميت النصارى نصارى**» و هو المروى عن أبى عبدالله عليه السلام **﴿ اسْتَطْعَما أَهْلَها ﴾** أى سألاهم الطعام **﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما ﴾** و التضييف و الإضافة بمعنى واحد أى لم يضيفهما أحد من أهل القرية و روى أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**كانوا أهل قرية لئام**» و قال أبو عبدالله عليه السلام: «**لم يضيفوهما و لا يضيفون بعدهما أحدا إلى أن تقوم**

الساعة» ﴿ **فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ** ﴾ وصف الجدار بالإرادة مجاز و معناه قرب أن ينقض و أشرف على أن ينهدم و ذلک على التشبيه بحال من يريد الفعل فى الثانى و هذا من فصيح كلام العرب و مثله فى أشعارهم كثير قال الراعى يصف الإبل:

فى مهمة قلقت بها هاماتها　　قلق الفئوس إذا أردن فصولا

و قال الآخر:

يريد الرمح صدر أبى براء　　و يرغب عن دماء بنى عقيل

و قريب منه قول الآخر:

إن دهرا يلف شملى بسعدى　　لزمان يهم بالإحسان

أى كأنه يهم و قال عنترة يصف فرسه:

فأزور من وقع القنا بلبانه　　و شكا إلى بعبرة و تحمحم

﴿ فَأَقامَهُ ﴾ أى سواه قيل إنه دفع الجدار بيده فاستقام عن سعيد بن جبير ﴿ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً ﴾ معناه إنهم لما بخلوا عليهما بالطعام و أقام الخضر جدارهم المشرف على الانهدام عجب موسى من ذلک فقال لو شئت لعملت هذا بأجر تأخذه منهم حتى كنا نسد به جوعتنا ﴿ قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ ﴾ معناه هذا الكلام و الإنكار على ترک الأجر هو المفرق بيننا و قيل معناه هذا وقت فراق اتصالنا و كرر بين تأكيدا عن الزجاج و قيل معناه هذا الذى قلته سبب الفراق بينى و بينک ثم قال له ﴿ سَأُنَبِّئُكَ ﴾ أى سأخبرک ﴿ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أى بتفسير الأشياء التى لم تستطع على الإمساک عن السؤال عنها صبرا ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ ﴾ معناه أما السبب فى خرقى السفينة فهو أنها كانت لفقراء لا شىء لهم يكفيهم قد سكنتهم قلة ذات أيديهم ﴿ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أى يعملون بها فى البحر و يتعيشون بها ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها ﴾ أى أحدث فيها عيباً.

﴿ وَ كانَ وَراءَهُمْ ﴾ أى و كان قدامهم ﴿ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ ﴾ صحيحة أو غير معيبة ﴿ غَصْباً ﴾ عن قتادة و ابن عباس قال عباد بن صهيب: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن أبى خالد فمررت بشيخ جالس فقلت يا شيخ كيف أمر إلى منزل إسماعيل بن أبى خالد فقال لى وراءک فقلت أرجع فقال أقول وراءک و ترجع فقلت أ ليس ورائى خلفى قال لا ثم قال حدثنى عكرمة عن ابن عباس ﴿ وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ قال و لو كان وراءهم لكانوا قد جاوزوه و لكن كان بين أيديهم قال الخضر عليه السلام: إنما

خرقتها لأن الملک إذا رآها منخرقة ترکها و رقعها أهلها بقطعة خشب فانتفعوا بها و قیل یحتمل أن الملک کان خلفهم و کان طریقهم فی الرجوع علیه و لم یعلم به أصحاب السفینة و علم به الخضر علیه السلام ﴿ وَ أَمَّا الْغُلامُ فَکانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَیْنِ ﴾ و روی عن أبی و ابن عباس أنهما کانا یقرءان «و أما الغلام فکان کافرا و أبواه مؤمنین» و روی ذلک عن أبی عبدالله علیه السلام. و معناه و أما الغلام الذی قتله فإنما قتلته لأنه کان کافرا.

﴿ فَخَشِینا أَنْ یُرْهِقَهُما طُغْیاناً وَ کُفْراً ﴾ أی فعلمنا أنه إن بقی یرهق أبویه أی یغشیهما طغیانا و کفرا و هو من کلام الله تعالی و قیل معناه فخفنا أن یحمل أبویه علی الطغیان و الکفر بأن یباشر ما لا یمکنهما منعه منه فیحملهما علی الذب عنه و التعصب له فیؤدی ذلک إلی أمور یکون مجاوزة للحد فی العصیان و الکفر و هو من کلام الخضر لأن الله تعالی لا یجوز علیه الخشیة و قیل معناه فکرهنا أن یرهق الغلام أبویه إثما و ظلما بطغیانه و کفره ﴿ فَأَرَدْنا أَنْ یُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَیْراً مِنْهُ زَکاةً ﴾ أی ولدا خیرا منه دینا و طهارة و صلاحا ﴿ وَ أَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أی و أرحم بهما عن قتادة و الزکاة الصلاح و الزکی الصالح و الرحم العطف و الرحمة و قیل معناه أبر بوالدیه و أوصل للرحم عن ابن عباس و قیل معناه و أقرب أن یرحما به قال قتادة: قال مطرف: أیم الله إنا لنعلم أنهما فرحا به یوم ولد و حزنا علیه یوم قتل و لو عاش کان فیه مهلکتهما فرضی رجل ما قسم الله له فإنه قضاء الله للمؤمن خیر من قضائه لنفسه و ما قضی لک یا ابن آدم فیما تکره خیر مما قضی لک فیما تحب فاستخر الله و أرض بقضائه و روی: «أنهما أبدلا بالغلام المقتول جاریة فولدت سبعین نبیاً» عن أبی عبدالله علیه السلام.

و قیل إنه تزوجها نبی من الأنبیاء فولدت له نبیا هدی الله علی یدیه أمة من الأمم عن الکلبی و فی قتل الغلام دلالة علی وجوب اللطف علی ما نذهب إلیه لأن المفهوم من الآیة أنه تدبیر من الله تعالی لم یکن یجوز خلافه و أنه إذا علم من حال الإنسان أنه یفسد عند شیء یجب علیه فی الحکمة أن یذهب ذلک الشیء حتی لا یقع هذا الفساد و متی قیل إنه لو حصل لنا العلم بذلک کما حصل لذلک العالم هل کان یحسن منا القتل قلنا أن هذا العلم لا یحصل إلا للأنبیاء و عند حصول العلم به یحسن ذلک و متی قیل إن الله کان قادرا علی إزالة حیاة الغلام بالموت من غیر ألم فتزول التبقیة التی هی المفسدة من غیر إدخال إیلام علیه بالقتل فلم أمر بالقتل فالجواب من وجهین (أحدهما) أن الله تعالی قد علم أن أبویه لا یثبتان علی الإیمان إلا بقتل هذا الغلام فتعین وجه الوجوب فی القتل (و الآخر) أن تبقیة الغلام إذا کانت مفسدة فالله تعالی مخیر

فى إزالتها بالموت من غير ألم و بالقتل لأن القتل و إن كان فيه ألم يلحق المقتول فإن بإزائه أعواضا كثيرة توازى ذلک الألم و يزيد عليه أضعافا كثيرة فيصير القتل بالمنافع العظيمة التى بإزائه كأنه ليس بالم و يدخل فى قبيل النفع و الإحسان ﴿ وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ ﴾ أى فإنما أقمته لأنه كان ﴿ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعنى القرية المذكورة فى قوله ﴿ أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾.

﴿ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما ﴾ و الكنز هو كل مال مذخور من ذهب أو فضة و غير ذلک و اختلف فى هذا الكنز فقيل كانت صحف علم مدفونة تحته عن ابن عباس و سعيد بن جبير و مجاهد و قال ابن عباس: ما كان ذلک الكنز إلا علما و قيل: «كان كنزا من الذهب و الفضة». عن قتادة و عكرمة و اختاره الجبائى و رواه أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قيل: «كان لوحا من ذهب و فيه مكتوب عجبا لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن. عجبا لمن أيقن بالرزق كيف يتعب. عجبا لمن أيقن بالموت كيف يفرح. عجبا لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل. عجبا لمن رأى الدنيا و تقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم» عن ابن عباس و الحسن و روى ذلک عن أبى عبدالله عليه السلام. و فى بعض الروايات زيادة و نقصان و هذا القول يجمع القولين الأولين لأنه يتضمن إن الكنز كان مالا كتب فيه علم فهو مال و علم ﴿ وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً» بين سبحانه أنه حفظ الغلامين بصلاح أبيهما و لم يذكر منهما صلاحا عن ابن عباس و روى عن أبى عبدالله عليه السلام: «أنه كان بينهما و بين ذلك الأب الصالح سبعة آباء و قال عليه السلام إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده و ولد ولده و أهل دويرته و دويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله».

﴿ فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما ﴾ أى ينتهيا إلى الوقت الذى يعرفان فيه نفع أنفسهما و حفظ مالهما و هو أن يكبرا و يعقلا ﴿ وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ أى نعمة من ربک و المعنى أن كل ما فعلته رحمة من الله تعالى أى رحم الله بذلک المساكين و أبوى الغلام و اليتيمين رحمة ﴿ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ أى و ما فعلت ذلک من قبل نفسى و إنما فعلته بأمر الله تعالى قال ابن عباس: يريد انكشف لى من الله علم فعملت به ثم قال ﴿ ذلِكَ ﴾ الذى قلته لک ﴿ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ أى ثقل عليک مشاهدته و رؤيته و استنكرته يقال استطاع يستطيع و اسطاع يسطيع قال أبو على الجبائى: لا يجوز أن يكون الخضر حيا إلى وقتنا هذا لأنه لو كان لعرفه الناس و لم يخف مكانه و لأنه لا نبى بعد نبينا صلى الله عليه و آله و سلم و هذا الذى ذكره غير صحيح لأن تبقيته فى مقدور الله تعالى و يجوز أن تنخرق العادة للأنبياء عليهم السلام بالإجماع و لا يمتنع أيضا

أن يكون بحيث لا يتعرف إلى أحد و أن الناس و إن كانوا يشاهدونه لا يعرفونه و قوله إنه لا نبى بعد نبينا مسلم و لكن نبوة الخضر عليه السلام كانت ثابتة قبل نبوة نبينا محمد صلى الله عليه و آله و أما شرعه لو كان له شرع خاص فإنه منسوخ بشريعة نبينا و لو كان داعيا إلى شريعة من تقدمه من الأنبياء فإن شريعة نبينا صلى الله عليه و آله ناسخة لها فلا يؤدى إلى ما قاله الجبائى.

***

وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَ آتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَها قَوْماً قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴿٨٦﴾ قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً ﴿٨٧﴾

ثم بين سبحانه قصة ذى القرنين فقال ﴿ وَ يَسْئَلُونَكَ ﴾ يا محمد صلى الله عليه و آله ﴿ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ ﴾ أى عن خبره و قصته لا عن شخصه و اختلف فيه فقيل إنه نبى مبعوث فتح الله على يديه الأرض عن مجاهد و عبدالله بن عمر و قيل إنه كان ملكا عادلا و روى عن على بن أبى طالب عليه السلام: «أنه كان عبدا صالحا أحب الله و أحبه الله و ناصح الله و ناصحه قد أمر قومه بتقوى الله فضربوه على قرنه ضربة بالسيف فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إليهم فدعاهم إلى الله فضربوه على قرنه الآخر بالسيف فذلك قرناه و فيكم مثله يعني نفسه عليه السلام».

و فى سبب تسميته بذى القرنين أقوال أخر (منها) أنه سمى به لأنه كانت له ضفيرتان عن الحسن (و منها) أنه كان على رأسه شبه القرنين تواريه العمامة عن يعلى بن عبيد و منها أنه بلغ قطرى الأرض من المشرق و المغرب فسمى بذلك لاستيلائه على قرن الشمس من مغربها و قرنها من مطلعها عن الزهرى و اختاره الزجاج (و منها) أنه رأى فى منامه أنه دنى من الشمس حتى أخذ بقرنيها فى شرقها و غربها فقص رؤياه على قومه فسموه ذا القرنين عن وهب (و منها) أنه عاش عيش قرنين فانقرض فى وقته قرنان من الناس و هو حى (و منها) أنه كان كريم الطرفين من أهل بيت الشرف من قبل أبيه و أمه قال معاذ بن جبل كان من أبناء الروم و اسمه الإسكندر و هو الذى بنى الإسكندرية ﴿ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ معناه قل يا

محمدﷺ سأقرأ عليكم منه خبرا و قصة ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى بسطنا يده فى الأرض و ملكناه حتى استولى عليها و قام بمصالحها و روى عن علىعليه السلام أنه قال: «سخر الله له السحاب فحمله عليها و مد له في الأسباب و بسط له النور فكان الليل و النهار عليه سواء فهذا معنى تمكينه في الأرض».

و هو أنه سهل عليه المسير فيها و ذلل له طريقها و حزونها حتى تمكن منها أنى شاء ﴿ وَ آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ أى فأعطيناه من كل شىء علما يتسبب به إلى إرادته و يبلغ به إلى حاجته عن ابن عباس و قتادة و الضحاك و قيل معناه و آتيناه من كل شىء يستعين به الملوك على فتح البلاد و محاربة الأعداء عن الجبائى و قيل معناه و آتيناه من كل شىء سبيلا كما قال سبحانه ﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ أَسْبابَ السَّماواتِ ﴾ أى سبلها ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ معناه فاتبع طريقا واحدا فى سلوكه قال الزجاج: معناه فاتبع سببا من الأسباب التى أوتى بها و ذلک أنه أوتى من كل شىء سببا فاتبع من تلک الأسباب التى أوتى سببا فى المسير إلى المغرب و من قرأ فأتبع سببا فمعناه لحق كقوله: ﴿ فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ ﴾ و الأصل فيه ما مر ذكره فى الحجة.

﴿ **حَتَّى إِذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ** ﴾ أى موضع غروبها أنه انتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب و بلغ قوما لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس و لم يرد بذلک أنه بلغ إلى موضع الغروب لأنه لا يصل إليه أحد ﴿ **وَجَدَها تَغْرُبُ** ﴾ معناه وجدها كأنها تغرب ﴿ **فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ** ﴾ و إن كانت تغرب فى ورائها عن الجبائى و ابن مسلم و البلخى لأن الشمس لا تزايل الفلک و لا تدخل عين الماء و لأنه قال ﴿ **وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً** ﴾ و لكن لما بلغ ذو القرنين ذلک الموضع تراءى له كان الشمس تغرب فى عين كما أن من كان فى البحر رآها كأنها تغرب فى الماء و من كان فى البر يراها كأنها تغرب فى الأرض الملساء و العين الحمئة هى ذات الحمأة و هى الطين الأسود المنتن و الحامية الحارة و عن كعب قال: أجدها فى التوراة تغرب فى ماء و طين.

و قوله ﴿ **وَ وَجَدَ عِنْدَها قَوْماً** ﴾ معناه و وجد عند العين ناسا ﴿ **قُلْنا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَ إِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً** ﴾ فى هذا دلالة على أن القوم كانوا كفارا و المعنى إما أن تعذب بالقتل من أقام منهم على الشرک و إما أن تأسرهم و تمسكهم بعد الأمر لتعلمهم الهدى و تستنقذهم من العمى و قيل معناه و إما أن تعفو عنهم و استدل من ذهب إلى أن ذا القرنين كان نبيا بهذا قال لأن أمر الله تعالى لا يعلم إلا بالوحى و الوحى لا يجوز إلا على الأنبياء و قال الكلبى: إن الله تعالى ألهمه و لم يوح إليه و قال ابن الأنبارى: إن كان ذو القرنين نبيا فإن الله تعالى قال له كما يقول للأنبياء إما بتكليم أو بوحى و إن لم يكن نبيا فإن معنى قلنا

ألهمنا لأن الإلهام ينوب عن الوحى قال سبحانه ﴿ **وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى** ﴾ أى و ألهمناها قال قتادة فقضى ذو القرنين فيهم بقضاء الله تعالى و كان عالما بالسياسة ﴿ **قالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ** ﴾ أى أشرك عن ابن عباس ﴿ **فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ** ﴾ أى نقتله إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ **ثُمَّ يُرَدُّ إِلى رَبِّهِ** ﴾ بعد قتلى إياه ﴿ **فَيُعَذِّبُهُ عَذاباً نُكْراً** ﴾ أى منكرا غير معهود يعنى فى النار و هو أشد من القتل فى الدنيا.

***

وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً ﴿٩٠﴾ كَذلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٩٢﴾

﴿ وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى ﴾ مر معناه ﴿ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً ﴾ أى سنقول له قولا جميلا و سنأمره بما يتيسر عليه و لا نؤاخذه بما مضى من كفره ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أى طريقا آخر من الأرض ليؤديه إلى مطلع الشمس و يوصله إلى المشرق ﴿ حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى بلغ موضع ابتداء العمارة من الجانب الذى تطلع منه الشمس ﴿ وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً ﴾ معناه أنه لم يكن بها جبل و لا شجر و لا بناء لأن أرضهم لم يكن يثبت عليها بناء فكانوا إذا طلعت الشمس يغورون فى المياه و الأسراب و إذا غربت تصرفوا فى أمورهم عن الحسن و قتادة و ابن جريج و روى أبو بصير عن أبى جعفر عليه السلام قال: «لم يعلموا صنعة البيوت».

و قوله ﴿ كَذلِكَ ﴾ معناه مثل ذلک القبيل الذى كانوا عند مغرب الشمس فى أن حكمهم حكم أولئک قيل إن معناه أنه أتبع سببا إلى مطلع الشمس مثل ما أتبع سببا إلى مغرب الشمس و تم الكلام عند قوله ﴿ كَذلِكَ ﴾ ثم ابتدأ سبحانه فقال ﴿ وَ قَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أى علمنا ما كان عند ذى القرنين من الجيوش و العدة و آلات السياسة و قيل معناه أحطنا علما بصلاحه و استقلاله بما ملكناه قبل أن يفعله كما علمناه بعد أن فعله و لم يخف علينا حاله و فى قوله ﴿ بِما لَدَيْهِ ﴾ إشارة إلى حسن الثناء عليه و الرضا بأفعاله لامتثاله أمر الله تعالى فى كل أحواله ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ معناه ثم أتبع مسلكا بالغا مما يبلغه قطرا من

أقطار الأرض و هذا يقوى قول من قال إن الأرض كروية الشكل لأنه لم يأخذ فى الطريق الذى كان قد عاد فيه و إنما أخذ فى طريق آخر.

***

حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قالَ ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً ﴿٩٧﴾ قالَ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾

﴿ **حَتَّى إِذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ** ﴾ ثم أخبر سبحانه عن حال ذى القرنين بعد منصرفه عن المشرق أنه سلك طريقا إلى أن بلغ بين السدين و وصل إلى ما بينهما و هما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما و هو الحاجز بين يأجوج و مأجوج و من وراءهم عن ابن عباس و قتادة و الضحاك و قيل أراد بالسدين الموضع الذى فيه السدان اليوم لأنه لو كان هناك سد لم يكن لطلبهم السد معنى و السد الموضع المسدود لا المنفتح ﴿ **وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قَوْماً لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً** ﴾ أى خصوا بلغة كادوا لا يعرفون غيرها قال ابن عباس: كادوا لا يفقهون كلام أحد و لا يفهم الناس كلامهم و إنما قال ﴿ **لا يَكادُونَ** ﴾ لأنهم فهموا بعض الأشياء عنهم و إن كان بعد شدة و لذلك حكى الله عنهم أنهم ﴿ **قالُوا يا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَ مَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ** ﴾ و يجوز أن يكون الله سبحانه فهم ذا القرنين لسانهم كما فهم سليمان عليه السلام منطق الطير أو قالوا له بترجمان أن يأجوج و مأجوج مفسدون فى أرضهم و فسادهم أنهم كانوا يخرجون فيقتلونهم و يأكلون لحومهم و دوابهم و قيل كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يدعون شيئا أخضر إلا أكلوه و لا يابسا إلا احتملوه عن الكلبى و قيل أرادوا أنهم سيفسدون فى المستقبل عند خروجهم.

و ورد فى الخبر عن حذيفة قال: سألت رسول الله صلى الله عليه و آله عن يأجوج و مأجوج فقال: «**يأجوج أمة و مأجوج أمة كل أمة أربعمائة أمة لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كل قد حمل**

السلاح». قلت يا رسول الله صفهم لنا قال: «**هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأرز قلت يا رسول‌الله و ما الأرز قال شجر بالشام طوال و صنف منهم طولهم و عرضهم سواء و هؤلاء الذين لا يقوم لهم خيل و لا حديد و صنف منهم يفترش إحدى أذنيه و يلتحف بالأخرى و لا يمرون بفيل و لا وحش و لا جمل و لا خنزير إلا أكلوه و من مات منهم أكلوه مقدمتهم بالشام و ساقتهم بخراسان يشربون أنهار المشرق و بحيرة طبرية**». قال وهب و مقاتل أنهم من ولد يافث بن نوح أبى الترک و قال السدى الترک سرية من يأجوج و مأجوج خرجت تغير فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت خارجة و قال قتادة إن ذا القرنين بنى السد على إحدى و عشرين قبيلة و بقيت منهم قبيلة دون السد فهم الترک و قال كعب هم نادرة فى ولد بنى آدم و ذلک أن آدم عليه السلام احتلم ذات يوم و امتزجت نطفته بالتراب فخلق الله من ذلک الماء يأجوج و مأجوج فهم متصلون بنا من جهة الأب دون الأم و هذا بعيد.

و قوله ﴿ **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً** ﴾ أو خراجا معناه فهل نجعل لک بعضا من أموالنا ﴿ **عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنا وَ بَيْنَهُمْ سَدًّا** ﴾ أى حائطا و قيل فى الفرق بين الخرج و الخراج أن الخراج اسم لما يخرج من الأرض و الخرج اسم لما يخرج من المال و قيل الخراج الغلة و الخرج الأجرة و قيل الخراج ما يؤخذ عن الأرض و الخرج ما يؤخذ عن الرقاب قاله أبو عمرو و قيل الخراج ما يؤخذ فى كل سنة و الخرج ما يؤخذ دفعة عن تغلب ﴿ **قالَ** ﴾ ذوالقرنين ﴿ **ما مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ** ﴾ أى أعطانى ربى من المال و مكنى فيه من الاتساع فى الدنيا خير مما عرضتموه على من الأجر ﴿ **فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ** ﴾ أى برجال فيكون معناه بقوة الأبدان و قيل بعمل تعملونه معى عن الزجاج و قيل بآلة العمل و ذلک زبر الحديد و الصفر ﴿ **أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ رَدْماً** ﴾ أى سدا و حاجزا قال ابن عباس: الردم أشد الحجاب و قيل هو السد المتراكب بعضه على بعض ﴿ **آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ** ﴾ أى أعطونى قطع الحديد أو جيئوا بقطع الحديد على القراءة الأخرى و فى الكلام حذف و هو أنهم أتوه بما طلبه منهم من زبر الحديد ليعمل الردم فى وجوه يأجوج و مأجوج فبناه ﴿ **حَتَّى إِذا ساوى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ** ﴾ أى سوى بين جانبى الجبل بما جعل بينهما من الزبر قال الأزهرى: يقال لجانبى الجبل صدفان لتصادفهما أى تحاذيهما و تلاقيهما و قيل هما جبلان كل واحد منهما منعدل عن الآخر كأنه قد صدف عنه.

و قوله ﴿ **قالَ انْفُخُوا** ﴾ معناه قال ذوالقرنين انفخوا النار على الزبر أمرهم أن يؤتى بمنافخ الحدادين فينفخوا فى نار الحديد التى أوقدت فيه ﴿ **حَتَّى إِذا جَعَلَهُ ناراً** ﴾ أى حتى إذا جعل الحديد كالنار فى منظره من الحمى و اللهب فصار قطعة واحدة لزم بعضها بعضا ﴿ **قالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً** ﴾ أى أعطونى نحاسا

مذابا أو صفرا مذابا أو حديدا مذابا أصبه على السدين الجبلين حتى ينسد الثقب الذى فيه و يصير جدارا مصمتا فكانت حجارته الحديد و طينه النحاس الذائب عن ابن عباس و مجاهد و الضحاك قال قتادة: فهو كالبرد المحبر طريقة سوداء و طريقة حمراء ﴿ **فَمَا اسْطاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ** ﴾ معناه فلما تم لم يستطع يأجوج و مأجوج أن يعلوه و يصعدوه يقال ظهرت السطح إذا علوته.

﴿ وَ مَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ أى و لم يستطيعوا أن ينقبوا أسفله لكثافته و صلابته و نفى بذلك كل عيب يكون فى السد و قيل أن هذا السد وراء بحر الروم بين جبلين هناك يلى مؤخرهما البحر المحيط و قيل أنه وراء دربند و خزران من ناحية أرمينية و أذربيجان و قيل أن مقدار ارتفاع السد مائتا ذراع و عرض الحائط نحو من خمسين ذراعا ﴿ قالَ ﴾ ذو القرنين ﴿ هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أى هذا السد نعمة من الله لعباده أنعم بها عليهم فى دفع شر يأجوج و مأجوج عنهم ﴿ فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ يعنى إذا جاء وقت أشراط الساعة و وقت خروجهم الذى قدره الله تعالى ﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أى جعل السد أرضا مستويا مع الأرض مدكوكا أو ذا دك و إنما يكون ذلك بعد قتل عيسى بن مريم(عليهما السلام) الدجال عن ابن مسعود و

﴿ وَ كانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أى و كان ما وعد الله بأن يفعله لا بد من كونه فإنه حق إذ لا يجوز أن يخلف وعده.

***

وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴿١٠٤﴾ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ﴿١٠٥﴾ ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِما كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آياتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴿١٠٦﴾

ثم أخبر سبحانه عن حال تلك الأمم فقال ﴿ وَ تَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ أى و تركنا يأجوج و مأجوج يوم انقضاء أمر السد يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم و يكون حالهم كحال الماء الذى يتموج باضطراب أمواجه و قيل إنه أراد سائر الخلق من الجن و الإنس أى و تركناهم يوم خروج يأجوج و مأجوج يختلطون بعضهم ببعض لأن ذلک علم للساعة ثم ذكر سبحانه نفخ الصور فقال ﴿ وَ نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ لأن خروج يأجوج و مأجوج من أشراط الساعة و اختلف فى الصور فقيل هو قرن ينفخ فيه عن ابن عباس و ابن عمر و قيل هو جمع صورة فإن الله سبحانه يصور الخلق فى القبور كما صورهم فى أرحام الأمهات ثم ينفخ فيهم الأرواح كما نفخ و هم فى أرحام أمهاتهم عن الحسن و أبى عبيدة و قيل إنه ينفخ إسرافيل فى الصور ثلاث نفخات فالنفخة الأولى نفخة الفزع و الثانية نفخة الصعق التى يصعق من فى السماوات و الأرض بها فيموتون و الثالثة نفخة القيام لرب العالمين فيحشر الناس بها من قبورهم.

﴿ فَجَمَعْناهُمْ جَمْعاً ﴾ أى حشرنا الخلق يوم القيامة كلهم فى صعيد واحد ﴿ وَ عَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً ﴾ أى أظهرنا جهنم و أبرزناها لهم حتى شاهدوها و رأوا ألوان عذابها قبل دخولها ثم وصف الكافرين فقال: ﴿ الَّذِينَ كانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ ذكر سبحانه السبب الذى استحقوا به النار يعنى الذين غفلوا عن الاعتبار بقدرتى الموجب لذكرى و أعرضوا عن التفكر فى آياتى و دلائلى فصاروا بمنزلة من يكون فى عينه غطاء يمنعه من الإدراک ﴿ وَ كانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أى و كان يثقل عليهم سماع القرآن و ذكر الله تعالى كما يقال فلان لا يستطيع النظر إليک و لا يستطيع أن يسمع كلامک أى يثقل عليه ذلک و أراد بالعين هنا عين القلب كما يضاف العمى إلى القلب.

﴿ أَ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبادِي مِنْ دُونِي أَوْلِياءَ ﴾ معناه أ فحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتخذوا من دونى أربابا ينصرونهم و يدفعون عقابى عنهم و المراد بالعباد المسيح و الملائكة الذين عبدوهم من دون الله و هم براء منهم و من كل مشرک بالله تعالى و قيل معناه أ فحسب الذين كفروا أن يتخذوا من دونى آلهة و أنا لا أغضب لنفسى عليهم و لا أعاقبهم عن ابن عباس و يدل على هذا المحذوف قوله ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرِينَ نُزُلاً ﴾ أى منزلا عن الزجاج و هو معنى قول ابن عباس يريد هى مثواهم و مصيرهم و قيل معناه إنا جعلنا جهنم معدة مهياة للكافرين عندنا كما يهيأ النزل للضيف ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ ﴾ أى هل نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمالاً ﴾ أى بأخسر الناس أعمالا و المعنى بالقوم الذين هم أخسر

الناس فيما عملوا و هم كفار أهل الكتاب اليهود و النصارى ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ أى بطل عملهم و اجتهادهم ﴿ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ أى يظنون أنهم بفعلهم محسنون و أن أفعالهم طاعة و قربة و روى العياشى بإسناده قال: قام ابن الكواء إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فسأله عن أهل هذه الآية فقال: «أولئك أهل الكتاب كفروا بربهم و ابتدعوا في دينهم فحبطت أعمالهم و ما أهل النهر منهم ببعيد يعني الخوارج».

﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَ لِقائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ ﴾ أى جحدوا بحجج الله و بيناته و لقاء جزائه فى الآخرة فبطلت و ضاعت أعمالهم التى عملوها لأنهم أوقعوها على خلاف الوجه الذى أمرهم الله به ﴿ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَزْناً ﴾ أى لا قيمة لهم عندنا و لا كرامة و لا نعتد بهم بل نستخف بهم و نعاقبهم تقول العرب ما لفلان عندنا وزن أى قدر و منزلة و يوصف الجاهل بأنه لا وزن له لخفته بسرعة بطشه و قلة تثبته و روى فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة». ﴿ ذلِكَ جَزاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ معناه الأمر ذلك الذى ذكرت من حبوط أعمالهم و خيبة قدرهم ثم ابتدأ سبحانه فقال جزاؤهم جهنم ﴿ بِما كَفَرُوا وَ اتَّخَذُوا آياتِي وَ رُسُلِي هُزُواً ﴾ أى بكفرهم و اتخاذهم آياتى أى أدلتى الدالة على توحيدى يعنى القرآن و رسلى هزوا أى مهزوءا به.

***

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً ﴿١٠٧﴾ خالِدِينَ فِيها لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴿١١٠﴾

لما تقدم ذكر حال الكافرين عقبه سبحانه بذكر حال المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا الله و رسوله ﴿ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾ أى كان فى حكم الله و علمه لهم بساتين الفردوس و هو أطيب موضع فى الجنة و أوسطها و أفضلها و أرفعها عن قتادة و قيل هو الجنة الملتفة الأشجار عن قتادة و قيل هو البستان الذى فيه الأعناب عن كعب و روى عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم

قال: «الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء و الأرض الفردوس أعلاها درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس».

﴿ **نُزُلاً** ﴾ أى منزلا و مأوى و قيل ذات نزول ﴿ **خالِدِينَ فِيها** ﴾ أى دائمين فيها ﴿ **لا يَبْغُونَ عَنْها حِوَلاً** ﴾ أى لا يطلبون عن تلك الجنات تحولا إلى موضع آخر لطيبتها و حصول مرادهم فيها ثم أمر سبحانه نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فقال ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد صلى الله عليه و آله و سلم لجميع المكلفين ﴿ **لَوْ كانَ الْبَحْرُ** ﴾ و هو اسم الجنس أى لو كان البحر بمائه ﴿ **مِداداً لِكَلِماتِ رَبِّي** ﴾ أى مدادا ليكتب به ما يقدر الله عليه من الكلام و الحكم و قيل أراد بالكلمات ما يقدر سبحانه على أن يخلقه من الأشياء و يأمر به كما قال فى عيسى عليه السلام ﴿ **وَ كَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ** ﴾ و قيل أراد بالكلمات ما وعد لأهل الثواب و أوعد لأهل العقاب عن أبى مسلم.

﴿ **لَنَفِدَ الْبَحْرُ** ﴾ أى لفنى ماء البحر ﴿ **قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِماتُ رَبِّي** ﴾ و قيل أن كلماته المراد بها مقدوراته و حكمته و عجائبه و قوله ﴿ **وَ لَوْ جِئْنا بِمِثْلِهِ مَدَداً** ﴾ أى و لو جئنا بمثل البحر مددا له أى عونا و زيادة لما نفد ذلك و قيل أراد بكلمات ربى معانى كلمات ربى و فوائدها و هى القرآن و سائر كتبه و لم يرد بذلك أعيان الكلمات لأنه قد فرغ من كتابتها فيكون تقدير قل لو كان البحر مدادا لكتابة معانى كلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كتابة معانى كلمات ربى فحذف لأن المعنى مفهوم و المداد هو الجائى و الآتى شيئا بعد شىء قال ابن الأنبارى: سمى المداد مدادا لإمداده الكاتب و يقال للزيت الذى يوقد به السراج مدادا و روى عكرمة عن ابن عباس قال: لما نزل قوله ﴿ **وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً** ﴾ قالت اليهود أوتينا علما كثيرا أوتينا التوراة و فيها علم كثير فأنزل الله هذه الآية و لذلك قال الحسن: أراد بالكلمات العلم فإنه لا يدرک و لا يحصى و نظيره ﴿ **وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ** ﴾ الآية.

ثم قال ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد صلى الله عليه و آله و سلم ﴿ **إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ** ﴾ قال ابن عباس: علم الله نبيه التواضع لئلا يزهى على خلقه فأمره أن يقر على نفسه بأنه آدمى كغيره إلا أنه أكرم بالوحى و هو قوله ﴿ **يُوحى إِلَيَّ أَنَّما إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ** ﴾ لا شريک له أى لا فضل لى عليكم إلا بالدين و النبوة و لا علم لى إلا ما علمنيه الله تعالى ﴿ **فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ رَبِّهِ** ﴾ أى فمن كان يطمع فى لقاء ثواب ربه و يأمله و يقر بالبعث إليه و الوقوف بين يديه و قيل معناه فمن كان يخشى لقاء عقاب ربه و قيل إن الرجاء يشتمل على كلا المعنيين الخوف و الأمل و أنشد فى ذلک قول الشاعر:

فلا كل ما ترجو من الخير كائن و لا كل ما ترجو من الشر واقع

﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً ﴾ أى خالصا لله تعالى يتقرب به إليه ﴿ وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ غيره من ملک أو بشر أو حجر أو شجر عن الحسن و قيل معناه لا يرائى فى عبادته أحدا عن سعيد بن جبير و قال مجاهد: جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال إنى أتصدق و أصل الرحم و لا أصنع ذلک إلا لله فيذكر ذلک منى و أحمد عليه فيسرنى ذلک و أعجب به فسكت رسول‌الله صلى الله عليه و آله و لم يقل شيئا فنزلت الآية قال عطاء عن ابن عباس إن الله تعالى قال: ﴿ وَ لا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ و لم يقل و لا يشرک به لأنه أراد العمل الذى يعمل لله و يحب أن يحمد عليه قال و لذلک يستحب للرجل أن يدفع صدقته إلى غيره ليقسمها كيلا يعظمه من يصله بها و روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال: «قال الله عز و جل: أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا أشرک فيه غيري فأنا منه برىء فهو للذي أشرک» أورده مسلم فى الصحيح و روى عن عبادة بن الصامت و شداد بن أوس قالا سمعنا رسول‌الله صلى الله عليه و آله يقول: «من صلى صلاة يرائي بها فقد أشرک و من صام صوما يرائي به فقد أشرک». ثم قرأ هذه الآية و روى أن أبا الحسن الرضا عليه السلام: «دخل يوما على المأمون فرآه يتوضأ للصلاة و الغلام يصب على يده الماء فقال لا تشرک بعبادة ربك أحدا فصرف المأمون الغلام و تولى إتمام وضوئه بنفسه» و قيل إن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن و روى الشيخ أبو جعفر بن بابويه بإسناده عن عيسى بن عبدالله عن أبيه عن جده عن على عليه السلام قال: «ما من عبد يقرأ ﴿ قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ إلى آخره إلا كان له نورا في مضجعه إلى بيت الله الحرام فإن كان من أهل البيت الحرام كان له نورا إلى بيت المقدس». و قال أبوعبدالله عليه السلام: «ما من أحد يقرأ آخر الكهف عند النوم إلا يتيقظ في الساعة التي يريدها».

سورة مریم

سورة مريم

مكية و آياتها ثمان و تسعون

أبى بن كعب عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم قال: «من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدق بزكريا و كذب به و يحيى عليه السلام و مريم عليها السلام و عيسى عليه السلام و موسى عليه السلام و هارون عليه السلام و إبراهيم عليه السلام و إسحاق عليه السلام و يعقوب عليه السلام و إسماعيل عليه السلام عشر حسنات و بعدد من دعي لله ولدا و بعدد من لم يدع له ولدا» و قال الصادق عليه السلام: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه و ماله و ولده و كان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليهما السلام و أعطي من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود عليه السلام في الدنيا».

ختم الله سبحانه سورة الكهف بذكر التوحيد و الدعاء إليه و افتتح هذه السورة بذكر الأنبياء الذين كانوا على تلك الطريقة بعثا على الاقتداء بهم و الاهتداء بهديهم و حثا عليه فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

﴿ كهيعص ﴾ قد بينا فى أول البقرة اختلاف العلماء فى الحروف المعجم التى فى أوائل السور و شرحنا أقوالهم هناك و حدث عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: أن كاف من كريم و ها من هاد و ياء من حكيم و عين من عليم و صاد من صادق و فى رواية عطا و الكلبى عنه أن معناه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق فى وعده و على هذا فإن كل واحد من هذه الحروف يدل على صفة من صفات الله عز و جل و روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال فى دعائه: «أسألك يا كهيعص».

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ أى هذا خبر رحمة ربك زكريا عبده و يعنى بالرحمة إجابته إياه حين دعاه و سأله الولد و زكريا اسم نبى من أنبياء بنى إسرائيل كان من أولاد هارون بن عمران أخى موسى بن عمران و قيل إن معناه ذكر ربك عبده بالرحمة ﴿ إِذْ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا ﴾ أى حين دعا ربه دعاء خفيا خافيا سرا غير جهر يخفيه فى نفسه لا يريد به رياء و فى هذا دلالة على أن المستحب فى الدعاء الإخفاء و إن ذلك أقرب إلى الإجابة و فى الحديث: «خير الدعاء الخفي و خير الرزق ما يكفي» و قيل إنما أخفاه لئلا يهزأ به الناس فيقول انظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر ﴿ قالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أى ضعف و إنما أضاف الوهن إلى العظم لأن العظم مع صلابته إذا ضعف و تناقص فكيف باللحم و العصب و قيل إنما خص العظم لأنه شكا ضعف البطش و البطش إنما يكون بالعظم دون اللحم و غيره.

﴿ وَ اشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ معناه أن الشيب قد عم الرأس و هو نذير الموت عن أبى مسلم و قيل معناه تلألأ الشيب فى رأسى لكثرته عن ابن الأنبارى وصف حاله خضوعا و تذللا لا تعريفا ﴿ وَ لَمْ أَكُنْ بِدُعائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ أى و لم أكن بدعائى إياك فيما مضى مخيبا محروما و المعنى أنك قد عودتنى حسن الإجابة و ما خيبتنى فيما سألتك و لا حرمتنى الاستجابة فيما دعوتك فلا تخيبنى فيما أسألك و لا تحرمنى إجابتك فيما أدعوك يقال شقى فلان بحاجته إذا تعب بسببها و لم يحصل مطلوبه منها ﴿ وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ ﴾ و هم الكلالة عن ابن عباس و قيل العصبة عن مجاهد و قيل: «**هم العمومة و بنو العم**» عن أبى جعفر عليه السلام و قيل بنو العم و كانوا أشرار بنى إسرائيل عن الجبائى و قيل هم الورثة عن الكلبى ﴿ مِنْ وَرائِي ﴾ أى من خلفى.

﴿ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ﴾ أى عقيما لا تلد ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ أى ولدا يلينى فيكون أولى بميراثى ﴿ يَرِثُنِي ﴾ إن قرأته بالجزم فالمعنى أن تهبه لى يرثنى و إن رفعته جعلته صفة لولى و المعنى وليا وارثا لى ﴿ وَ يَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ و هو يعقوب بن ماتان و أخوه عمران بن ماتان أبو مريم عن الكلبى و مقاتل و قيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم لأن زكريا كان متزوجا بأخت أم مريم بنت عمران و نسبها يرجع إلى يعقوب لأنها من ولد سليمان بن داود عليهما السلام و هو من ولد يهوذا بن يعقوب و زكريا من ولد هارون و هو من ولد لاوى بن يعقوب عن السدى ثم اختلف فى معناه قيل معناه يرثنى مالى و يرث من آل يعقوب النبوة عن أبى صالح و قيل معناه يرث نبوتى و نبوة آل يعقوب عن الحسن و مجاهد و استدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال و أن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم و النبوة بأن قالوا إن لفظ الميراث فى اللغة و الشريعة لا يطلق إلا على ما ينتقل من الموروث إلى الوارث كالأموال و لا يستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز و التوسع و لا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة أيضا فإن زكريا عليه السلام قال فى دعائه.

﴿ وَ اجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ أى اجعل يا رب ذلك الولى الذى يرثنى مرضيا عندك ممتثلا لأمرك و متى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى و كان لغوا عبثا أ لا ترى أنه لا يحسن أن يقول أحد اللهم ابعث لنا نبيا و اجعله عاقلا مرضيا فى أخلاقه لأنه إذا كان نبيا فقد دخل الرضا و ما هو أعظم من الرضا فى النبوة و يقوى ما قلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله ﴿ وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي ﴾ و إنما يطلب وارثا لأجل خوفه و لا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة و العلم لأنه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى

من أن يخاف أن يبعث نبيا من ليس بأهل للنبوة و أن يورث علمه و حكمته من ليس لهما بأهل و لأنه إنما بعث لإذاعة العلم و نشره فى الناس فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض فى بعثته فإن قيل إن هذا يرجع عليكم فى وراثة المال لأن فى ذلک إضافة الضن و البخل إليه قلنا معاذ الله أن يستوى الأمران فإن المال قد يرزق المؤمن و الكافر و الصالح و الطالح و لا يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغى بل فى ذلک غاية الحكمة فإن تقوية الفساق و إعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين فمن عد ذلک بخلا و ضنا فهو غير منصف و قوله ﴿ خِفْتُ الْمَوالِيَ مِنْ وَرائِي ﴾ يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم و أفعالهم و معانى فيهم لا من أعيانهم كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه فالمراد به خفت تضييع الموالى مالى و إنفاقهم إياه فى معصية الله تعالى.

***

يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴿٩﴾ قالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

﴿ يا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ ﴾ هاهنا حذف معناه فاستجاب الله دعاء زكريا و أوحى إليه يا زكريا إنا نخبرک على ألسنة الملائكة بخبر يرى السرور به فى وجهک و هو أن يولد لک ابن ﴿ اسْمُهُ يَحْيى ﴾ و قد تقدم تفسيره فى سورة آل عمران ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم يسم أحد قبله باسمه عن قتادة و ابن جريج و السدى و ابن زيد و فى هذا تشريف له من وجهين (أحدهما) إن الله سبحانه تولى تسميته و لم يكلها إلى الأبوين و الآخر أنه سماه باسم لم يسبق إليه يدل ذلک الاسم على فضله و قال أبو عبدالله عليه السلام: «و كذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من قبل سميا و لم تبك السماء إلا عليهما أربعين صباحا قيل له و ما كان بكاؤها قال كانت تطلع حمراء و تغيب حمراء و كان قاتل يحيى ولد زنا و قاتل الحسين عليه السلام ولد زنا». و روى سفيان بن عيينة عن على بن زيد عن على بن الحسين عليهما السلام قال: «خرجنا مع الحسين عليه السلام

فما نزل منزلا و لا ارتحل منه إلا ذكر يحيى بن زكريا و قال يوما و من هوان الدنيا على الله عز و جل أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل».

و قيل إن معنى قوله ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ لم تلد العواقر مثله ولدا و هو كقوله ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أي مثلا عن ابن عباس و مجاهد ﴿ قالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ فسرناه في سورة آل عمران ﴿ وَ كانَتِ امْرَأَتِي عاقِراً ﴾ قال الحسن: إنما قال ذلك على جهة الاستخبار أي أ تعيدنا شابين أم ترزقنا الولد شيخين ﴿ وَ قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ معناه و قد بلغت من كبر السن إلى حال اليبس و الجفاف و نحول العظم عن قتادة و مجاهد قال قتادة: كان له بضع و تسعون سنة ﴿ قالَ كَذلِكَ ﴾ أي قال الله سبحانه الأمر على ما أخبرتك من هبة الولد على الكبر ﴿ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أرد عليك قوتك حتى تقوى على الجماع و افتق رحم امرأتك بالولد عن ابن عباس ﴿ وَ قَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي من قبل يحيى ﴿ وَ لَمْ تَكُ شَيْئاً ﴾ أي أنشأتك و أوجدتك و لم تك شيئا موجودا فإزالة عقر زوجتك و إزالة ما يمنع قبول الولد أيسر في الاعتبار من ابتداء الإنشاء و روى الحكم بن عيينة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إنما ولد يحيى بعد البشارة له من الله بخمس سنين».

﴿ قالَ ﴾ زكريا يا ﴿ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴾ أي دلالة و علامة استدل بها على وقت كونه ﴿ قالَ ﴾ الله تعالى ﴿ آيَتُكَ ﴾ أي علامتك على ذلك ﴿ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيالٍ سَوِيًّا ﴾ أي و أنت سوي صحيح سليم من غير علة قال ابن عباس: اعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيام و قال قتادة و السدي: اعتقل لسانه من غير بأس و لا خرس فإنه كان يقرأ الزبور و يدعو إلى الله و يسبحه و لا يمكنه أن يكلم الناس و هذا أمر خارج عن العادة ﴿ فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرابِ ﴾ أي من مصلاه عن ابن زيد و سمي المحراب محرابا لأن المتوجه إليه في صلاته كالمحارب للشيطان على صلاته و الأصل فيه مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذبا عن أهله قالوا و كان زكريا قد أخبر قومه بما بشر به فلما خرج عليهم و امتنع من كلامهم علموا إجابة دعائه فسروا به ﴿ فَأَوْحى إِلَيْهِمْ ﴾ أي أشار إليهم و أومأ بيده و قيل كتب لهم في الأرض عن مجاهد ﴿ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴾ أي صلوا بكرة و عشيا عن الحسن و قتادة و تسمى الصلاة سبحة و تسبيحا لما فيها من التسبيح و قيل أراد التسبيح بعينه و قال ابن جريج أشرف عليهم زكريا من فوق غرفة كان يصلي فيها لا يصعد إليها إلا بسلم و كانوا يصلون معه الفجر و العشاء فكان يخرج إليهم فيأذن لهم بلسانه فلما

اعتقل لسانه خرج على عادته و أذن لهم بغير كلام فعرفوا عند ذلک أنه قد جاء وقت حمل امرأته بيحيى فمكث ثلاثة أيام لا يقدر على الكلام معهم و يقدر على التسبيح و الدعاء.

***

يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا وَ زَكاةً وَ كانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

ثم قال سبحانه ﴿ يا يَحْيى خُذِ الْكِتابَ بِقُوَّةٍ ﴾ هاهنا اختصار عجيب تقديره فوهبنا له يحيى و أعطيناه الفهم و العقل و قلنا له يا يحيى خذ الكتاب يعنى التوراة بما قواک الله عليه و أيدک به و معناه و أنت قادر على أخذه قوى على العمل به و قيل معناه بجد و صحة عزيمة على القيام بما فيه ﴿ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ أى آتيناه النبوة فى حال صباه و هو ابن ثلاث سنين عن ابن عباس و روى العياشى بإسناده عن على بن أسباط قال: «قدمت المدينة و أنا أريد مصر فدخلت على أبي جعفر محمد بن علي الرضاعليه السلام و هو إذ ذاك خماسي فجعلت أتأمله لأصفه لأصحابنا بمصر فنظر إلي فقال لي يا علي إن الله قد أخذ في الإمامة كما أخذ في النبوة قال: ﴿ وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً ﴾» و قال ﴿ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ فقد يجوز أن يعطى الحكم ابن أربعين سنة و يجوز أن يعطاه الصبى و قيل إن الحكم الفهم و هو أنه أعطى فهم الكتاب حتى حصل له عظيم الفائدة عن مجاهد و عن معمر قال: «إن الصبيان قالوا ليحيى اذهب بنا لنلعب فقال ما للعب خلقنا فأنزل الله فيه ﴿ وَ آتَيْناهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾» و روى ذلک عن أبى الحسن الرضاعليه السلام.

﴿ وَ حَناناً مِنْ لَدُنَّا ﴾ و الحنان العطف و الرحمة أى و آتيناه رحمة من عندنا عن ابن عباس و قتادة و الحسن و قيل معناه تحننا على العباد و رقة قلب عليهم ليدعوهم إلى طاعة الله تعالى عن الجبائى و قيل معناه محبة منا عن عكرمة و أصله الشفقة و الرقة و منه حنين الناقة و هو صوتها إذا اشتاقت إلى ولدها و قيل «معناه تحنن الله عليه كان إذا قال يا رب قال الله لبيك يا يحيى» و هو المروى عن الباقرعليه السلام. و قيل معناه تعطفا منا عن مجاهد فهذه خمسة أقوال ﴿ وَ زَكاةً ﴾ أى و عملا صالحا زاكيا عن قتادة و الضحاک و ابن جريج و قيل زكاة لمن قبل دينه حتى يكونوا أزكياء عن الحسن و قيل يعنى بالزكاة طاعة الله و الإخلاص عن ابن

عباس و قيل معناه و صدقة تصدق الله به على أبويه عن الكلبى و قيل معناه و زكيناه بحسن الثناء عليه كما يزكى الشهود الإنسان عن الجبائى فهذه خمسة أقوال ﴿ وَ كانَ تَقِيًّا ﴾ أى مخلصا مطيعا متقيا لما نهى الله عنه قالوا و كان من تقواه أنه لم يعمل خطيئة و لم يهم بها سؤال يقال لم أضاف الله سبحانه كونه زكاة إلى نفسه و هو إنما كان مطيعا زكيا بفعله و جوابه إنه إنما صار كذلك بألطاف من الله لا سيما فى تلك الحالة من الصغر و لأنه إنما اهتدى بهداية الله إياه.

﴿ وَ بَرًّا بِوالِدَيْهِ ﴾ أى بارا بوالديه محسنا إليهما مطيعا لهما لطيفا بهما طالبا مرضاتهما ﴿ وَ لَمْ يَكُنْ جَبَّاراً ﴾ أى متكبرا متطاولا على الخلق و قيل الجبار الذى يقتل و يضرب على الغضب عن ابن عباس ﴿ عَصِيًّا ﴾ أى عاصيا لربه فعيل بمعنى فاعل ﴿ وَ سَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَ يَوْمَ يَمُوتُ وَ يَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى سلام عليه منا فى هذه الأيام عن عطاء و قيل و سلامة و أمان له منا عن الكلبى و معناه سلامة و أمن له يوم ولد من عبث الشيطان به و إغوائه إياه و يوم يموت من بلاء الدنيا و من عذاب القبر و يوم يبعث حيا من هول المطلع و عذاب النار و إنما قال ﴿ حَيًّا ﴾ تأكيدا لقوله ﴿ يُبْعَثُ ﴾ و قيل يعنى أنه يبعث مع الشهداء لأنهم وصفوا بأنهم أحياء قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان فى ثلاثة مواطن يوم ولد فيرى نفسه خارجا مما كان فيه و يوم يموت فيرى قوما لم يكن عاينهم و أحكاما ليس له بها عهد و يوم يبعث فيرى نفسه فى محشر عظيم فخص الله سبحانه يحيى بالكرامة و السلام و السلامة فى المواطن الثلاثة و قيل إن السلام الأول يوم الولادة تفضل و الثانى و الثالث على وجه الثواب و الجزاء.

***

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

ثم عطف سبحانه قصة مريم و عيسى عليهما السلام على قصة زكريا و يحيى عليهما السلام فقال ﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ ﴾ أى فى كتابك هذا و هو القرآن ﴿ مَرْيَمَ ﴾ أى حديث مريم و ولادتها عيسى و صلاحها ليقتدى الناس بها و لتكون معجزة لک ﴿ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِها مَكاناً شَرْقِيًّا ﴾ أى انفردت من أهلها إلى مكان فى جهة المشرق

و قعدت ناحية منهم قال ابن عباس: إنما اتخذت النصارى المشرق قبلة لأنها انتبذت مكانا شرقيا و قيل اتخذت مكانا تنفرد فيه للعبادة لئلا تشتغل بكلام الناس عن الجبائى و قيل تباعدت عن قومها حتى لا يرونها عن الأصم و أبى مسلم و قيل إنها تمنت أن تجد خلوة فتفلى رأسها فخرجت من يوم شديد البرد فجلست فى مشرقة للشمس عن عطا ﴿ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً ﴾ أى فضربت من دون أهلها لئلا يروها سترا و حاجزا بينها و بينهم.

﴿ فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا ﴾ يعنى جبرائيل عليه السلام عن ابن عباس و الحسن و قتادة و غيرهم و سماه الله روحا لأنه روحانى و أضافه إلى نفسه تشريفا له ﴿ فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا ﴾ معناه فأتاها جبرائيل فانتصب بين يديها فى صورة آدمى صحيح لم ينقص منه شىء و قال أبو مسلم: إن الروح الذى خلق منه المسيح تصور لها إنسان و الأول هو الوجه لإجماع المفسرين عليه و قال عكرمة: كانت مريم إذا حاضت خرجت من المسجد و كانت عند خالتها امرأة زكريا أيام حيضها فإذا طهرت عادت إلى بيتها فى المسجد فبينا هى فى مشرقة لها فى ناحية الدار و قد ضربت بينها و بين أهلها سترا لتغتسل و تمتشط إذ دخل عليها جبرائيل فى صورة رجل شاب أمرد سوى الخلق فأنكرته فاستعاذت بالله منه ﴿ قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ معناه إنى أعتصم بالرحمن من شرك فاخرج من عندى إن كنت تقيا. «سؤال» يقال كيف شرطت فى التعوذ منه أن يكون تقيا و التقى لا يحتاج أن يتعوذ منه و إنما يتعوذ من غير التقى و «الجواب» إن التقى إذا تعوذ بالرحمن منه ارتدع عما يسخط الله ففى ذلك تخويف و ترهيب له و هذا كما تقول إن كنت مؤمنا فلا تظلمنى فالمعنى إن كنت تقيا فاتعظ و اخرج و روى عن على عليه السلام أنه قال: «علمت إن التقي ينهاه التقى عن المعصية». و قيل إن معنى قوله ﴿ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ ما كنت تقيا حيث استحللت النظر إلى و خلوت بى فلما سمع جبرائيل عليه السلام منها هذا القول ﴿ قالَ ﴾ لها ﴿ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ و قد بينا معنى القراءتين.

﴿ غُلاماً زَكِيًّا ﴾ أى ولدا طاهرا من الأدناس و قيل ناميا فى أفعال الخير و قيل يريد نبيا عن ابن عباس ﴿ قالَتْ ﴾ مريم ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ ﴾ أى كيف يكون لى ولد ﴿ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ على وجه الزوجية ﴿ وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى و لم أكن زانية و إنما قالت ذلك لأن الولد فى العادة يكون من إحدى هاتين الجهتين و المعنى أنى لست بذات زوج و غير ذات الزوج لا تلد إلا عن فجور و لست فاجرة و إنما يقال للفاجرة بغى بمعنى أنها تبغى الزنا أى تطلبه و فى هذه الآيات دلالة على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء لأن من المعلوم أن مريم ليست بنبية و إن رؤية الملك على صورة البشر و بشارة الملك إياها و ولادتها من

غير وطئ إلى غيرها من الآيات التى أتاها الله بها من أكبر المعجزات و من لم يجوز إظهار المعجزات على غير النبى اختلفت أقوالهم فى ذلک قال الجبائى: و ابنه أنها معجزات لزكريا عليه السلام و قال البلخى: إنها معجزات لعيسى عليه السلام على سبيل الإرهاص و التأسيس لنبوته.

***

قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلاَّ تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قالَ إِنِّي عبد الله آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾

﴿ قالَ كَذلِكِ ﴾ أى قال لها جبرائيل حين سمع تعجبها من هذه البشارة الأمر كذلک أى كما وصفت لک ﴿ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل متأت لا يشق على ﴿ وَ لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ ﴾ معناه و لنجعله علامة ظاهرة و آية باهرة للناس على نبوته و دلالة على براءة أمه ﴿ وَ رَحْمَةً مِنَّا ﴾ له و لنجعله نعمة منا على الخلق يهتدون بسببه ﴿ وَ كانَ أَمْراً مَقْضِيًّا ﴾ أى و كان خلق عيسى من غير ذكر أمرا كائنا مفروغا عنه محتوما قضى الله سبحانه بأن يكون و حكم به ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أى فحملت مريم بعيسى فحبلت فى الحال قيل إن جبرائيل أخذ ردن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت مريم من ساعتها و وجدت حس الحمل و قيل نفخ فى كمها فحملت عن ابن جريج و روى عن الباقر عليه السلام: «إنه تناول جيب مدرعتها فنفخ فيه نفخة فكمل الولد في الرحم من ساعته كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر فخرجت من المستحم و هي حامل محج مثقل فنظرت إليها خالتها فأنكرتها و مضت مريم على وجهها مستحية من خالتها و من زكريا». ﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكاناً قَصِيًّا ﴾ أى تنحت بالحمل إلى مكان بعيد و قيل معناه انفردت به مكانا بعيدا من قومها حياء من أهلها و خوفا من أن يتهموها بسوء و اختلفوا فى مدة حملها فقيل

ساعة واحدة قال ابن عباس: لم يكن بين الانتباذ و الحمل إلا ساعة واحدة لأنه تعالى لم يذكر بينهما فصلا لأنه قال ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ ﴾.

﴿ فَأَجاءَهَا ﴾ و الفاء للتعقيب و قيل حملت به فى ساعة و صور فى ساعة و وضعته فى ساعة حين زاغت الشمس من يومها و هى بنت عشر سنين عن مقاتل و قيل: «كانت مدة حملها تسع ساعات» و هذا مروى عن أبى عبدالله عليه السلام. و قيل ستة أشهر و قيل ثمانية أشهر و كان ذلک آية و ذلک أنه لم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره ﴿ فَأَجاءَهَا الْمَخاضُ ﴾ أى ألجأها الطلق أى وجع الولادة ﴿ إِلى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ فالتجأت إليها لتستند إليها عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و السدى و قيل أجاءها أى جاء بها قال ابن عباس: نظرت مريم إلى أكمة فصعدت مسرعة إليها فإذا عليها جذع نخلة نخرة ليس لها سعف و الجذع ساق النخلة و الألف و اللام دخلت للعهد لا للجنس أى النخلة المعروفة فلما ولدت ﴿ قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَ كُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا ﴾ أى شيئا حقيرا متروكا عن ابن عباس و قيل شيئا لا يذكر و لا يعرف عن قتادة و قيل حيضة ملقاة عن عكرمة و الضحاک و مجاهد قال ابن عباس: فسمع جبرائيل كلامها و عرف جزعها ﴿ فَناداها مِنْ تَحْتِها ﴾ و كان أسفل منها تحت أكمة ﴿ أَلَّا تَحْزَنِي ﴾ و هو قول السدى و قتادة و الضحاک أن المنادى جبرائيل ناداها من سفح الجبل و قيل ناداها عيسى عن مجاهد و الحسن و وهب و سعيد بن جبير و ابن زيد و ابن جرير و الجبائى و إنما تمنت عليها السلام الموت كراهية لأن يعصى الله فيها و قيل استحياء من الناس أن يظنوا بها سوءا عن السدى و روى عن الصادق عليه السلام: «لأنها لم تر في قومها رشيدا ذا فراسة ينزهها من السوء».

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ أى ناداها جبرائيل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ليزول ما عندها من الغم و الجزع لا تغتمى قد جعل ربک تحت قدميک نهرا تشربين منه و تتطهرين من النفاس عن ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير قالوا و كان نهرا قد انقطع الماء عنه فأرسل الله الماء فيه لمريم عليها السلام و أحيا ذلک الجذع حتى أثمر و أورق و قيل ضرب جبرائيل عليه السلام برجله فظهر ماء عذب و قيل: «بل ضرب عيسى عليه السلام برجله فظهرت عين ماء تجري» و هو المروى عن أبى جعفر عليه السلام. و قيل السرى عيسى عليه السلام عن الحسن و ابن زيد و الجبائى و السرى و هو الشريف الرفيع قال الحسن كان و الله عبدا سريا ﴿ وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ معناه اجذبى إليک بجذع النخلة و الباء مزيدة و قال الفراء: العرب تقول هزه و هز به ﴿ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا ﴾ مر معناه و قال الباقر عليه السلام: «لم تستشف النفساء بمثل الرطب إن الله أطعمه مريم في نفاسها». و

قالوا إن الجذع كان يابسا لا ثمر عليه إذ لو كان عليه ثمر لهزته من غير أن تؤمر به و كان فى الشتاء فصار معجزة بخروج الرطب فى غير أوانه و بخروجه دفعة واحدة فإن العادة أن يكون نورا أولا ثم يصير بلحا ثم بسرا و روى أنه لم يكن للجذع رأس فضربته برجلها فأورقت و أثمرت و انتثر عليها الرطب جنيا و الشجرة التى لا رأس لها لا تثمر فى العادة و قيل إن تلك النخلة كانت برنية و قيل: «كانت عجوة» و هو المروى عن أبى عبدالله عليه السلام.

﴿ فَكُلِي وَ اشْرَبِي ﴾ أى كلى يا مريم من هذا الرطب و اشربى من هذا الماء ﴿ وَ قَرِّي عَيْناً ﴾ جاء فى التفسير و طيبى نفسا و قيل معناه لتقر عينک سرورا بهذا الولد الذى ترين لأن دمعة السرور باردة و دمعة الحزن حارة و قيل معناه لتسكن عينک سكون سرور برؤيتک ما تحبين ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً ﴾ فسألک عن ولدک ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمنِ صَوْماً ﴾ أى صمتا عن ابن عباس و المعنى أوجبت على نفسى لله أن لا أتكلم و قيل صوما أى إمساكا عن الطعام و الشراب و الكلام عن قتادة و إنما أمرت بالصمت ليكفيها الكلام ولدها بما يبرئ به ساحتها عن ابن مسعود و ابن زيد و وهب و قيل كان فى بنى إسرائيل من أراد أن يجتهد صام عن الكلام كما يصوم عن الطعام فلا يتكلم الصائم حتى يمسى يدل على هذا قوله ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ أى إنى صائم فلن أكلم اليوم أحدا و كان قد أذن لها أن تتكلم بهذا القدر ثم تسكت و لا تتكلم بشىء آخر عن السدى و قيل كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله الصمت و إذا كلمها أحد تومئ بأنها نذرت لله صمتا لأنه لا يجوز أن يأمرها بأن تخبر بأنها نذرت و لم تنذر لأن ذلک كذب عن أبى على الجبائى ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ ﴾ أى فأتت مريم بعيسى حاملة له و ذلک أنها لفته فى خرقة و حملته إلى قومها ﴿ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ﴾ أى أمرا عظيما بديعا إذ لم تلد أنثى قبلک من غير رجل عن مجاهد و قتادة و السدى و قيل أمرا قبيحا منكرا من الافتراء و هو الكذب عن الجبائى.

﴿ يا أُخْتَ هارُونَ ﴾ قيل فيه أقوال (أحدها) «أن هارون هذا كان رجلا صالحا في بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح» عن ابن عباس و قتادة و كعب و ابن زيد و المغيرة بن شعبة يرفعه إلى النبى صلى الله عليه وآله و قيل إنه لما مات شيع جنازته أربعون ألفا كلهم يسمى هارون فقولهم يا أخت هارون معناه يا شبيهة هارون فى الصلاح ما كان هذا معروفا منک (و ثانيها) أن هارون كان أخاها لأبيها ليس من أمها و كان معروفا بحسن الطريقة عن الكلبى (و ثالثها) أن هارون أخو موسى عليه السلام فنسبت إليه لأنها من ولده كما

يقال يا أخا تميم عن السدى (و رابعها) أنه كان رجلا فاسقا مشهورا بالعهر و الفساد فنسبت إليه و قيل لها يا شبيهته فى قبح فعله عن سعيد بن جبير ﴿ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَ ما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ أى كان أبواك صالحين فمن أين جئت بهذا الولد ﴿ فَأَشارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أى فأومت إلى عيسى عليه السلام بأن كلموه و استشهدوه على براءة ساحتى فتعجبوا من ذلک ثم ﴿ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ معناه كيف نكلم صبيا فى المهد و قيل صبيا فى الحجر رضيعا و كان المهد حجر أمه الذى تربيه فيه إذ لم تكن هيأت له مهدا عن قتادة و قيل إنهم غضبوا عند إشارتها إليه و قالوا لسخريتها بنا أشد علينا من زناها فلما تكلم عيسى عليه السلام قالوا إن هذا الأمر عظيم عن السدى.

﴿ قالَ ﴾ عيسى عليه السلام ﴿ إِنِّي عبدالله ﴾ قدم إقراره بالعبودية ليبطل به قول من يدعى له الربوبية و كان الله سبحانه أنطقه بذلک لعلمه بما يقوله الغالون فيه ثم قال ﴿ آتانِيَ الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ أى حكم لى بإتيان الكتاب و النبوة و قيل إن الله تعالى أكمل عقله فى صغره و أرسله إلى عباده و كان نبيا مبعوثا إلى الناس فى ذلک الوقت مكلفا عاقلا و لذلک كانت له تلک المعجزة عن الحسن و الجبائى و قيل إنه كلمهم و هو ابن أربعين يوما عن وهب و قيل يوم ولد عن ابن عباس و أكثر المفسرين هو الظاهر و قيل إن معناه أنى عبدالله سيؤتينى الكتاب و سيجعلنى نبيا و كان ذلک معجزة لمريم عليها السلام على براءة ساحتها.

***

وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحانَهُ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

ثم بين سبحانه تمام كلام عيسى عليه السلام فقال ﴿ وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ ﴾ أى و جعلنى معلما للخير عن مجاهد و قيل نفاعا حيث ما توجهت و البركة نماء الخير و المبارک الذى ينتمى الخير به و قيل ثابتا دائما على الإيمان و الطاعة و أصل البركة الثبوت عن الجبائى ﴿ وَ أَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ﴾ أى بإقامة الصلاة و أداء الزكاة ﴿ ما دُمْتُ ﴾ أى ما بقيت ﴿ حَيًّا ﴾ مكلفا ﴿ وَ بَرًّا بِوالِدَتِي ﴾ أى و اجعلنى بارا بها

أؤدى شكرها فيما قاسته بسبى ﴿ وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً ﴾ أى متجبرا ﴿ شَقِيًّا ﴾ و المعنى أنى بلطفه و توفيقه كنت محسنا إلى والدتى متواضعا فى نفسى حتى لم أكن من الجبابرة الأشقياء ﴿ وَ السَّلامُ عَلَيَّ ﴾ أى و السلامة على من الله ﴿ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ أى فى هذه الأحوال الثلاث و قد مر تفسيرها قبل فى قصة يحيى و فى هذه الآيات دلالة على أنه يجوز أن يصف الإنسان نفسه بصفات المدح إذا أراد تعريفها إلى غيره لا على وجه الافتخار قيل و لما كلمهم عيسى عليه السلام بهذا علموا براءة مريم عليها السلام ثم سكت عيسى عليه السلام فلم يتكلم بعد ذلک حتى بلغ المدة التى يتكلم فيها الصبيان ﴿ ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ معناه ذلک الذى قال إنى عبدالله عيسى بن مريم لا ما يقوله النصارى من أنه ابن الله و أنه إله ﴿ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ مر معناه فى الحجة ﴿ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون يعنى اليهود و النصارى فزعمت اليهود أنه ساحر كذاب و زعمت النصارى أنه ابن الله و ثالث ثلاثة و قيل و هو افتراء النصارى و اختلافهم فبعضهم قالوا هو الله و قال بعضهم ابن الله و قال بعضهم ثالث ثلاثة ثم كذبهم الله تعالى فقال ﴿ ما كانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ ﴾ معناه ما كان ينبغى لله أن يتخذ من ولد أى ما يصلح له و لا يستقيم عن ابن الأنبارى قال فنابت اللام عن الفعل و ذلک أن من اتخذ ولدا فإنما يتخذه من جنسه لأن الولد مجانس للوالد و الله تعالى ليس كمثله شىء فلا يكون له سبحانه ولد و لا يتخذ ولدا و قوله ﴿ مِنْ وَلَدٍ ﴾ من هذه هى الذى تدل على نفى الواحد و الجماعة فالمعنى أنه لا يجوز أن يتخذ ولدا واحدا و لا أكثر ثم نزه سبحانه نفسه عن ذلک فقال ﴿ سُبْحانَهُ ﴾ ثم بين السبب فى كون عيسى من غير أب فقال ﴿ إِذا قَضى أَمْراً فَإِنَّما يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ و قد مر تفسيره فيما مضى و المعنى أنه لا يتعذر عليه إيجاد شىء على الوجه الذى أراده.

***

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

قوله ﴿ وَ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَ رَبُّكُمْ ﴾ من فتح الهمزة ففيه أربعة أوجه (أحدها) أن المعنى و قضى أن الله ربى و ربكم عن أبى عمرو بن العلاء (و الثانى) أنه معطوف على كلام عيسى أى و أوصانى بأن الله ربى و ربكم (و الثالث) ذلك عيسى بن مريم عليه السلام و ذلك أن الله ربى و ربكم عن الفراء (و الرابع) أن العامل فيه فاعبدوه و التقدير و لأن الله ربى و ربكم ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فحذف الجار و من كسر الهمزة جاز أن يكون معطوفا على قوله ﴿ قالَ إِنِّي عبدالله ﴾ أى و قال إن الله ربى و ربكم و جاز أن يكون ابتداء كلام من الله تعالى أو أمر من الله لرسوله أن يقول ذاك و قوله ﴿ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ معناه هذا طريق واضح فالزموه و قيل إن المعنى هذا الذى أخبرتكم إن الله أمرنى به هو الدين المستقيم الذى لا اعوجاج فيه.

﴿ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ الاختلاف فى المذهب أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقده الآخرون و الأحزاب جمع حزب و هو الجمع المنقطع فى رأيه عن غيره و تحزبوا أى صاروا أحزابا فالمعنى أن الأحزاب من أهل الكتاب اختلفوا فى عيسى عليه السلام فقال قوم منهم هو الله و هم اليعقوبية و قال آخرون هو ابن الله و هم النسطورية و قال آخرون هو ثالث ثلاثة و هم الإسرائيلية و قال المسلمون هو عبدالله عن قتادة و مجاهد و إنما قال من بينهم لأن منهم من ثبت على الحق و قيل إن من زائدة و المعنى اختلفوا بينهم ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ أى فشدة عذاب و هى كلمة وعيد ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بالله بقولهم فى المسيح ﴿ مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ المشهد بمعنى الشهود و الحضور أى من حضورهم ذلك اليوم و هو يوم القيامة و سمى عظيما لعظم أهواله و قيل ويل لهم من مجمع يوم أى من الفضيحة على رءوس الجمع يومئذ ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَ أَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنا ﴾ قيل فيه وجهان (أحدهما) أن التقدير صاروا ذوى سمع و بصر و الجار و المجرور فى موضع رفع لأنه فاعل أسمع و المعنى ما أسمعهم و أبصرهم يوم القيامة و إن كانوا فى الدنيا صما و بكما عن الحق عن الحسن و معناه الإخبار عن قوة علومهم بالله تعالى فى تلك الحال و مثله قوله ﴿ فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾.

﴿ لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ يعنى أن الكافرين فى الدنيا آثروا الهوى على الهدى فهم فى ذهاب عن الدين و عدول عن الحق و المراد أنهم فى الدنيا جاهلون و فى الآخرة عارفون حيث لا تنفعهم المعرفة و قال أبو مسلم: و هذا يدل على أن قوله سبحانه ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ ﴾ ليس معناه الآفة فى الأذن و اللسان و العين بل هو أنهم لا يتدبرون ما يسمعون و يرون و لا يعتبرون أ لا ترى أنه جعل قوله ﴿ لكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴾ فى مقابلته فأقام السمع و البصر مقام الهدى إذ جعله فى مقابلة الضلال

المبين (و الثانى) أن معناه أسمعهم و أبصرهم أى بصرهم و بين لهم أنهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء سيكونون فى ضلال مبين عن الجنة و الثواب عن الجبائى قال و يجوز أن يكون المعنى أسمع الناس بهؤلاء الأنبياء و أبصرهم بهم ليعرفوهم و يعرفوا خبرهم فيؤمنوا بهم لكن من كفر بهم من الظالمين اليوم يعنى يوم القيامة فى ضلال عن الجنة و هذا بعيد و قد استدرک على الجبائى فى قوله و الأولى و الأظهر فى الآية الوجه الأول ﴿ وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ الخطاب للنبى صلى الله عليه و آله و المعنى خوف يا محمد صلى الله عليه و آله كفار مكة يوم يتحسر المسىء هلا أحسن العمل و المحسن هلا ازداد من العمل و هو يوم القيامة و قيل إنما يتحسر المستحق للعقاب فأما المؤمن فلا يتحسر و روى مسلم فى الصحيح بالإسناد عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله: «إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار قيل يا أهل الجنة فيشرئبون و ينظرون و قيل يا أهل النار فيشرئبون و ينظرون فيجاء بالموت كأنه كبش أملح فيقال لهم تعرفون الموت فيقولون هذا هذا و كل قد عرفه قال فيقدم فيذبح ثم يقال يا أهل الجنة خلود فلا موت و يا أهل النار خلود فلا موت و قال و ذلك قوله ﴿ وَ أَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ الآية». و رواه أصحابنا عن أبى جعفر عليه السلام و أبى عبدالله عليه السلام ثم جاء فى آخره: «فيفرح أهل الجنة فرحا لو كان أحد يومئذ ميتا لماتوا فرحا و يشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتا لماتوا».

﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أى فرغ من الأمر و انقطعت الآمال و أدخل قوم النار و قوم الجنة و قيل معناه انقضى أمر الدنيا فلا يرجع إليها الاستدراک الفائت و قيل معناه حكم بين الخلائق بالعدل و قيل قضى على أهل الجنة بالخلود و قضى على أهل النار بالخلود ﴿ وَ هُمْ فِي غَفْلَةٍ ﴾ فى الدنيا عن ذلک و معناه إنهم مشغولون اليوم بما لا يعنيهم غافلون عن أحوال الآخرة ﴿ وَ هُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى لا يصدقون بذلک ثم أخبر سبحانه عن نفسه فقال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَ مَنْ عَلَيْها ﴾ أى نميت سكانها فنرثها و من عليها من العقلاء لأنا نميتهم و نهلكهم فلا يبقى فيها مالک و متصرف ﴿ وَ إِلَيْنا يُرْجَعُونَ ﴾ أى إلينا يردون بعد الموت أى إلى حيث لا يملک الأمر و النهى غيرنا.

***

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَ لا يُبْصِرُ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴿٤٢﴾ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يا

أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يا إِبْراهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

ثم ذكر سبحانه قصة إبراهيم عليه السلام فقال ﴿ وَ اذْكُرْ ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ فِي الْكِتابِ ﴾ أى القرآن ﴿ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً ﴾ أى كثير التصديق فى أمور الدين عن الجبائى و قيل صادقا مبالغا فى الصدق فيما يخبر عن الله تعالى عن أبى مسلم ﴿ نَبِيًّا ﴾ أى عليا رفيع الشأن برسالة الله تعالى ﴿ إِذْ قالَ لِأَبِيهِ ﴾ آزر ﴿ يا أَبَتِ ﴾ أى يا أبى و دخلت التاء للمبالغة فى تحقيق الإضافة ﴿ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ﴾ دعاء من يدعوه ﴿ وَ لا يُبْصِرُ ﴾ من يتقرب إليه و يعبده ﴿ وَ لا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً ﴾ من أمور الدنيا أى لا يكفيك شيئا فلا ينفعك و لا يضرك ﴿ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بالله و المعرفة ﴿ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي ﴾ على ذلك و اقتد بى فيه ﴿ أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ﴾ أى أوضح لك طريقا مستقيما معتدلا غير جائر بك عن الحق إلى الضلال ﴿ يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ ﴾ أى لا تطعه فيما يدعوك إليه فتكون بمنزلة من عبده و لا شبهة أن الكافر لا يعبد الشيطان و لكن من أطاع شيئا فقد عبده ﴿ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ﴾ أى عاصيا.

﴿ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ ﴾ أى يصبك عذاب من جهة الله سبحانه لإصرارك على الكفر ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ﴾ أى فتكون موكولا إلى الشيطان و هو لا يغنى عنك شيئا عن الجبائى و قيل معناه فتكون لا حقا بالشيطان باللعن و الخذلان و اللاحق يسمى التالى و الذى يتلو الشىء و الذى يليه سواء عن أبى مسلم و قيل فتكون له قرينا فى النار و قيل معناه فيكون الشيطان ولى نصرتك و لم يقل فيكون الشيطان وليك لأنه أبلغ فى الفضيحة و إنما أراد زجره عن موالاة الشيطان لا تحقيق النصرة يعنى إذا لم يكن لك إلا نصرته فأنت مخذول لا ناصر لك و قد بينا فيما مضى أن الذى يقوله أصحابنا أن هذا الخطاب من إبراهيم عليه السلام إنما توجه إلى من سماه الله أبا له لأنه كان جدا لإبراهيم عليه السلام لأمه و أن أباه الذى ولده كان اسمه تارخ لإجماع الطائفة على أن آباء نبينا صلى الله عليه وآله وسلم إلى آدم عليه السلام كلهم مسلمون موحدون و لما

روى عنه ﷺ أنه قال: «لم يزل ينقلني الله تعالى من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا». و الكافر غير موصوف بالطهارة لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾.

﴿ قالَ ﴾ آزر مجيبا لإبراهيم عليه السلام حين دعاه إلى الإيمان ﴿ أَ راغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ أى أ معرض أنت عن عبادة آلهتى التى هى الأصنام ﴿ يا إِبْراهِيمُ ﴾ و تارک لها و زاهد فيها ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ ﴾ أى لئن لم تمتنع عن هذا ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ بالحجارة عن الحسن و الجبائى و قيل لأرمينک بالذنب و العيب و أشتمنک عن السدى و ابن جريج و قيل معناه لأقتلنک ﴿ وَ اهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ أى فارقنى دهرا طويلا عن الحسن و مجاهد و سعيد بن جبير و السدى و قيل مليا سويا سليما عن عقوبتى عن ابن عباس و قتادة و عطاء و الضحاک من قولهم فلان ملى بهذا الأمر إذا كان كاملا فيه مضطلعا به ﴿ قالَ ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ ﴾ سلام توديع و هجر على ألطف الوجوه و هو سلام متاركة و مباعدة منه عن الجبائى و أبى مسلم و قيل هذا سلام إكرام و بر فقابل جفوة أبيه بالبر تأدية لحق الأبوة أى هجرتک على وجه جميل من غير عقوق.

﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ قيل فيه أقوال (أحدها) أنه إنما وعده بالاستغفار على مقتضى العقل و لم يكن بعد قد استقر قبح الاستغفار للمشركين (و ثانيها) أنه قال سأستغفر لک ربى على ما يصح و يجوز من تركک عبادة الأوثان و إخلاص العبادة لله تعالى عن الجبائى (و ثالثها) أن معناه سأدعو الله أن لا يعذبک فى الدنيا عن الأصم ﴿ إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًّا ﴾ أى بارا لطيفا رحيما عن ابن عباس و مقاتل و قيل إن الله عودنى إحسانه و كان لى مكرما و قيل كان عالما بى و بما أبتغيه من مجالدتک لعله يهديک ﴿ وَ أَعْتَزِلُكُمْ وَ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى و أتنحى منكم جانبا و اعتزل عبادة ما تدعون من دونه من الأصنام.

﴿ وَ أَدْعُوا ﴾ أى و أعبد ﴿ رَبِّي عَسى أَلَّا أَكُونَ بِدُعاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ كما شقيتم بدعاء الأصنام و إنما ذكر عسى على وجه الخضوع و قيل معناه لعله يقبل طاعتى و عبادتى و لا أشقى بالرد فإن المؤمن بين الرجاء و الخوف ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ ما يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى فارقهم و هاجرهم إلى الأرض المقدسة ﴿ وَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ﴾ ولدا ﴿ وَ يَعْقُوبَ ﴾ ولد ولد ﴿ وَ كُلاً جَعَلْنا نَبِيًّا ﴾ أى آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد كرام على الله و كلا من هذين جعلناه نبيا يقتدى به فى الدين ﴿ وَ وَهَبْنا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنا ﴾ أى نعمتنا سوى الأولاد النبوة من نعم الدين و الدنيا ﴿ وَ جَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى ثناء حسنا فى الناس عليا مرتفعا سائرا فى الناس و كل أهل الأديان يتولون إبراهيم و ذريته و يثنون عليهم و يدعون أنهم على دينهم و قيل

معناه و أعلينا ذكرهم بأن محمداﷺ و أمته يذكرونهم بالجميل إلى قيام القيامة و قيل هو ما يتلى فى التشهد كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيمعليهم السلام.

***

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْناهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

ثم ذكر سبحانه حديث موسىعليه السلام فقال ﴿ وَ اذْكُرْ ﴾ يا محمدﷺ ﴿ فِي الْكِتابِ ﴾ الذى هو القرآن ﴿ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً ﴾ أخلص العبادة لله تعالى و أخلص نفسه لأداء الرسالة و بفتح اللام يكون معناه أخلصه الله بالنبوة و اختاره للرسالة ﴿ وَ كانَ رَسُولاً ﴾ إلى فرعون و قومه ﴿ نَبِيًّا ﴾ رفيع الشأن عالى القدر ﴿ وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ الطور جبل بالشام ناداه الله تعالى من جانبه اليمين و هى يمين موسىعليه السلام و قيل من جانب اليمين من الطور يريد حيث أقبل من مدين و رأى النار فى الشجرة و هو قوله ﴿ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ ﴾.

﴿ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا ﴾ أى مناجيا كليما قال ابن عباس: قربه الله و كلمه و معنى هذا التقريب أنه أسمعه كلامه و قيل قربه حتى سمع صرير القلم الذى كتبت به التوراة و قيل قربناه أى و رفعنا منزلته و أعلينا محله حتى صار محله منا فى الكرامة و المنزلة محل من قربه مولاه فى مجلس كرامته فهو تقريب كرامة و اصطفاء لا تقريب مسافة و إدناء إذ هو سبحانه لا يوصف بالحلول فى مكان فيقرب من بعد أو يبعد من قرب أو يكون أحد أقرب إليه من غيره ﴿ وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا ﴾ أى أنعمنا عليه بأخيه هارون حيث قال: ﴿ وَ اجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هارُونَ ﴾ و جعلناه نبيا أشركناه فى أمره و شددنا به أزره ﴿ وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ ﴾ الذى هو القرآن ﴿ إِسْماعِيلَ ﴾ بن إبراهيمعليه السلام أيضا.

﴿ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ ﴾ إذا وعد بشىء وفى به و لم يخلف ﴿ وَ كانَ ﴾ مع ذلك ﴿ رَسُولاً نَبِيًّا ﴾ إلى جرهم و قد مضى معناه قال ابن عباس: «أنه واعد رجلا أن ينتظره في مكان و نسي الرجل فانتظره سنة حتى أتاه الرجل» و ذلك مروى عن أبى عبداللهعليه السلام. و قيل أقام ينتظره ثلاثة أيام عن مقاتل و قيل أن

إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام مات قبل أبيه إبراهيم عليه السلام «و إن هذا هو إسماعيل بن حزقيل بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة وجهه و فروة رأسه فخيره الله فيما شاء من عذابهم فاستعفاه و رضي بثوابه و فوض أمرهم إلى الله تعالى في عفوه و عقابه» و رواه أصحابنا عن أبى عبدالله عليه السلام ثم قال فى آخره: «أتاه ملك من ربه يقرئه السلام و يقول قد رأيت ما صنع بك و قد أمرني بطاعتك فمرني بما شئت فقال يكون لي بالحسين عليه السلام أسوة». ﴿ وَ كانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ أى قومه و عترته و عشيرته و قيل أمته عن الحسن ﴿ بِالصَّلاةِ وَ الزَّكاةِ ﴾ و قيل أنه كان يأمر أهله بصلاة الليل و صدقة النهار ﴿ وَ كانَ ﴾ مع ذلک ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ قد رضى أعماله لأنها كلها طاعات لم تكن فيها قبائح و قيل مرضيا معناه صالحا زكيا رضيا فحصل له عنده المنزلة العظيمة.

***

وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا ﴿٥٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلاَّ مَنْ تابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴿٦٠﴾

ثم ذكر سبحانه حديث إدريس فقال ﴿ وَ اذْكُرْ ﴾ يا محمد صلى الله عليه وآله ﴿ فِي الْكِتابِ ﴾ الذى هو القرآن ﴿ إِدْرِيسَ ﴾ و هو جد أب نوح عليه السلام و اسمه فى التوراة أخنوخ و قيل أنه سمى إدريس لكثرة درسه الكتب و هو أول من خط بالقلم و كان خياطا و أول من خاط الثياب و قيل إن الله تعالى علمه النجوم و الحساب و علم الهيأة و كان ذلک معجزة له ﴿ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ﴾ مر معناه ﴿ وَ رَفَعْناهُ مَكاناً عَلِيًّا ﴾ أى عاليا رفيعا و قيل إنه رفع إلى السماء الرابعة عن أنس و أبى سعيد الخدرى و كعب و مجاهد و قيل إلى السماء السادسة عن ابن عباس و الضحاک قال مجاهد: رفع إدريس عليه السلام كما رفع عيسى عليه السلام و هو حى لم يمت و قال آخرون: «أنه قبض روحه بين السماء الرابعة و الخامسة» و روى ذلک عن أبى جعفر عليه السلام.

و قيل إن معناه و رفعنا محله و مرتبته بالرسالة كقوله تعالى ﴿ **وَ رَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ** ﴾ و لم يرد به رفعة المكان عن الحسن و الجبائى و أبى مسلم و لما فصل سبحانه ذكر النبيين و وصف كلا منهم بصفة تخصه جمعهم فى المدح و الثناء فقال ﴿ **أُولئِكَ** ﴾ تقدم ذكرهم ﴿ **الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ** ﴾ بالنبوة و قيل بالثواب و بسائر النعم الدينية و الدنيوية ﴿ **مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْراهِيمَ وَ إِسْرائِيلَ** ﴾ إنما فرق سبحانه ذكر نسبهم مع أن كلهم كانوا من ذرية آدم عليه السلام لتبيان مراتبهم فى شرف النسب فكان لإدريس شرف القرب لآدم لأنه جد نوح عليه السلام و كان إبراهيم من ذرية من حمل مع نوح لأنه من ولد سام بن نوح و كان إسماعيل و إسحاق و يعقوب من ذرية إبراهيم لما تباعدوا من آدم حصل لهم شرف إبراهيم و كان موسى و هارون و زكريا و يحيى و عيسى و من ذرية إسرائيل ﴿ **وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا** ﴾ قيل إنه تم الكلام عند قوله ﴿ **إِسْرائِيلَ** ﴾ ثم ابتدأ فقال ﴿ **وَ مِمَّنْ هَدَيْنا وَ اجْتَبَيْنا** ﴾ من الأمم قوم ﴿ **إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وَ بُكِيًّا** ﴾ فحذف لدلالة الكلام عليه عن أبى مسلم و روى عن على بن الحسين عليه السلام أنه قال: «**نحن عنينا بها**». و قيل بل المراد به الأنبياء الذين تقدم ذكرهم من ذرية آدم و ممن هديناهم و اجتبيناهم أى هديناهم إلى الحق فاهتدوا و اخترناهم من بين الخلق.

ثم وصفهم فقال ﴿ **إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ** ﴾ أى تقرأ عليهم ﴿ **آياتُ الرَّحْمنِ** ﴾ و هو القرآن عن ابن عباس ﴿ **خَرُّوا سُجَّداً** ﴾ أى ساجدين لله ﴿ **وَ بُكِيًّا** ﴾ أى باكين متضرعين إليه بين الله سبحانه أنهم مع جلالة قدرهم كانوا يبكون عند ذكر آيات الله و هؤلاء العصاة ساهون لاهون مع إحاطة السيئات بهم ثم أخبر سبحانه فقال ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ** ﴾ و الخلف البدل السيئ معناه من بعد النبيين المذكورين قوم سوء و قيل هم اليهود و من تبعهم لأنهم من ولد إسرائيل و قيل هم من هذه الأمة عند قيام الساعة عن مجاهد و قتادة ﴿ **أَضاعُوا الصَّلاةَ** ﴾ تركوها عن محمد بن كعب و «**قيل أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها من غير أن تركوها أصلا عن ابن مسعود و إبراهيم و عمر بن عبد العزيز و الضحاك**» و هو المروى عن أبى عبدالله عليه السلام.

﴿ وَ اتَّبَعُوا الشَّهَواتِ ﴾ أى انفذوا الشهوات فيما حرم الله عليهم فقال وهب: فخلف من بعدهم خلف شرابون للقهوات لعابون بالكعبات ركابون للشهوات متبعون للذات تاركون للجمعات مضيعون للصلوات ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ أى يلقون مجازاة الغى عن الزجاج و هذا كقوله ﴿ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ يَلْقَ أَثاماً ﴾ أى مجازاة الآثام و قيل يلقون غيا أى شرا و خيبة عن ابن عباس و ابن زيد و منه قول الشاعر: «و من يغو لا يعدم

على الغي لائما» أى يخب و قيل الغى واد فى جهنم عن ابن مسعود و عطاء و كعب ﴿ إِلَّا مَنْ تابَ ﴾ أى ندم على ما سلف ﴿ وَ آمَنَ ﴾ فى مستقبل عمره ﴿ وَ عَمِلَ صالِحاً ﴾ من الواجبات و المندوبات ﴿ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾ و من قرأ يدخلون بضم الياء و فتح الخاء أراد أن الله سبحانه يدخلهم الجنة بأن يأمرهم بدخولها و هذا يطابق قوله ﴿ وَ لا يُظْلَمُونَ ﴾ و من قرأ ﴿ يَدْخُلُونَ ﴾ أراد أنهم يدخلونها بأمر الله و المعنيان واحد و لا يبخسون شيئا من ثوابهم بل يوفيه الله إليهم على التمام و الكمال و فى هذا دلالة على أن الله لا يمنع أحدا ثواب عمله و لا يبطله لأنه سبحانه سمى ذلك ظلما.

***

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً إِلَّا سَلاماً وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما فَاعْبُدْهُ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

ثم وصف سبحانه الجنة فقال ﴿ **جَنَّاتِ عَدْنٍ** ﴾ أى جنات إقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به و وحد فى الآية المتقدمة و جمع هاهنا فكأنه جنة تشتمل على جنات و قيل لأن لكل واحد من المؤمنين جنة تجمعها الجنة العظماء ﴿ **الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ عِبادَهُ بِالْغَيْبِ** ﴾ المراد بالعباد المؤمنون كما قال ﴿ **فَادْخُلِي فِي عِبادِي وَ ادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ و قيل إنه يتناول المؤمن و الكافر و لكن بشرط رجوع الكافر عن كفره و قال ﴿ **بِالْغَيْبِ** ﴾ لأنهم غابوا عما فيها مما لا عين رأت و لا أذن سمعت عن ابن عباس و المعنى أنه وعدهم أمرا لم يكونوا يشاهدونه فصدقوه و هو غائب عنهم ﴿ **إِنَّهُ كانَ وَعْدُهُ** ﴾ أى موعوده ﴿ **مَأْتِيًّا** ﴾ أى آتيا لا محالة و المفعول هنا بمعنى الفاعل لأن ما آتيته فقد أتاك و ما أتاك فقد أتيته يقال أتيت على خمسين سنة و أتت على خمسون سنة و قيل إن الموعود هو الجنة و الجنة مأتية يأتيها المؤمنون ﴿ **لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً** ﴾ أى لا يسمعون فى تلك الجنات القول الذى لا معنى له يستفاد و هو اللغو و قيل قد يكون اللغو الهزل و ما يلغى من الكلام مثل الفحش و الأباطيل ﴿ **إِلَّا سَلاماً** ﴾ أى إلا سلام الملائكة عليهم و سلام بعضهم على بعض قال الزجاج: السلام اسم جامع لكل خير لأنه يتضمن السلامة أى يسمعون ما يسلمهم.

﴿ وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا ﴾ قال المفسرون ليس فى الجنة شمس و لا قمر فيكون لهم بكرة و عشيا و المراد أنهم يؤتون برزقهم على ما يعرفونه من مقدار الغداء و العشاء و قيل كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء و العشاء لعجبت به و كانت تكره الوجبة و هى الأكلة الواحدة فى اليوم فأخبر الله تعالى أن لهم فى الجنة رزقهم بكرة و عشيا على قدر ذلک الوقت و ليس ثم ليل و إنما هو ضوء و نور عن قتادة و قيل إنهم يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب و إغلاق الأبواب و مقدار النهار برفع الحجب و فتح الأبواب ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ﴾ هى مذكورة فى قوله ﴿ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ التى ﴿ نُورِثُ مِنْ عِبادِنا مَنْ كانَ تَقِيًّا ﴾ أى إنما نملک تلک الجنة من كان تقيا فى دار الدنيا بترک المعاصى و فعل الطاعات و إنما قال ﴿ نُورِثُ ﴾ مع أنه ليس بتمليک نقل من غيرهم إليهم لأنه شبه بالميراث من جهة أنه تمليک بحال استؤنفت عن حال قد انقضت من أمر الدنيا كما ينقضى حال الميت من أمر الدنيا عن الجبائى و قيل إنه تعالى أورثهم من الجنة المساكن و المنازل التى كانت لأهل النار لو أطاعوا الله تعالى و أضاف العباد إلى نفسه لأنه أراد المؤمنين ﴿ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾. قال ابن عباس إن النبى ﷺ قال لجبرائيل ما منعک أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزل ﴿ وَ ما نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ الآية. أى إذا أمرنا نزلنا عليک و هو قول مجاهد و قتادة و الضحاک و قيل إنه قول أهل الجنة إنا لا نتنزل موضعا من الجنة إلا بأمر الله تعالى عن أبى مسلم.

﴿ لَهُ ما بَيْنَ أَيْدِينا وَ ما خَلْفَنا وَ ما بَيْنَ ذلِكَ ﴾ معناه له ما بين أيدينا من أمر الآخرة و ما خلفنا أى ما مضى من أمر الدنيا و ما بين ذلک أى ما بين النفختين عن ابن عباس و قتادة و الضحاک و الربيع قال مقاتل: و ما بين النفختين أربعون سنة و قيل معناه ابتداء خلقنا و منتهى آجالنا و مدة حياتنا و قيل ما بين أيدينا ما بقى من أمر الدنيا و ما خلفنا ما مضى من الدنيا و ما بين ذلک من حياتنا أى هو المدبر لنا فى الأوقات الماضية و الآتية و الذاهبة و قيل ما بين أيدينا أى الأرض عند نزولنا و ما خلفنا السماوات إذ نزلنا منها و ما بين ذلک السماء و الأرض ﴿ وَ ما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ قيل هذا تمام حكاية قول الملائكة و قول أهل الجنة و قيل بل تم الكلام قبله ثم أخبر الله سبحانه عن نفسه و معناه أنه سبحانه ليس ممن ينسى و يخرج عن كونه عالما لأنه عالم لذاته و تقديره و ما نسيک يا محمد ﷺ و إن أخر الوحى عنک و قيل ما كان ربک ناسيا لأحد حتى لا يبعثه يوم القيامة عن أبى مسلم ﴿ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ ﴾ أى خالقهما و مدبرهما ﴿ وَ ما بَيْنَهُما ﴾ من الخلائق و الأشياء ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ وحده لا شريک له ﴿ وَ اصْطَبِرْ لِعِبادَتِهِ ﴾ أى اصبر على تحمل مشقة عبادته. ثم قال لنبيه ﷺ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ أى مثلا و شبيها عن ابن عباس و

مجاهد و ابن جريج و سعيد بن جبير و قيل هل تعلم أحدا يستحق أن يسمى إلها إلا هو عن الكلبى و قيل هل تعلم أحدا يسمى إلها خالقا رازقا محييا مميتا قادرا على الثواب و العقاب سواه حتى تعبده فإذا لم تعلم ذلک فالزم عبادته و هذا استفهام بمعنى النفى أى لا تعلم من يسمى بلفظة الله.

***

وَيَقُولُ الْإِنْسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّياطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

لما تقدم ذكر الوعد و الوعيد و البعث و النشور حكى سبحانه عقيبه قول منكرى البعث و رد عليهم بأوضح بيان و أجلى برهان فقال ﴿ وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ هذا استفهام المراد به الإنكار و الاستهزاء أى أ إذا ما مت أعادنى الله حيا فقال سبحانه مجيبا لهذا الكافر ﴿ أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى أ و لا يتذكر هذا الجاحد حال ابتداء خلقه فيستدل بالابتداء على الإعادة و قيل أن الإنسان هنا مفرد فى اللفظ مجموع فى المعنى يريد جميع منكرى البعث ﴿ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ معناه و لم يک شيئا كائنا أو مذكورا «سؤال» قيل كيف تدل النشأة الأولى على النشأة الثانية و الواحد منا يقدر على أفعاله كالحركات و السكنات و الأصوات و غيرها و لا يقدر على إعادتها و «الجواب» من وجوه (أحدها) أنه سبحانه خلق الأجسام و الحياة فيها و البقاء جائز عليها فيجب أن يقدر على إعادتها بخلاف أفعالنا فإنها لا تبقى و لا يصح الإعادة عليها (و الثانى) أن الابتداء أصعب من الإعادة فإذا كان قادرا على الابتداء فلأن يكون قادرا على الإعادة أولى (و الثالث) أنه سبحانه استدل بخلق الأجسام على أنه قادر لذاته إذ القادر بقدرة لا يصح منه فعل الأجسام و إذا كان قادرا لذاته و يقدر على إيجاد ما يصح وجوده وقتين قدر على إعادته ثم حقق سبحانه أمر الإعادة فقال ﴿ فَوَ رَبِّكَ ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَ الشَّياطِينَ ﴾ أى لنجمعنهم و نبعثنهم من قبورهم مقرنين بأوليائهم من الشياطين و قيل لنحشرنهم و لنحشرن الشياطين أيضا. ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ أى مستوفزين على الركب عن قتادة و المعنى يجثون حول جهنم متخاصمين و يتبرأ بعضهم من بعض لأن المحاسبة تكون بقرب جهنم و قيل جثيا أى جماعات جماعات عن

ابن عباس كأنه قيل زمرا و هو جمع جثوة و جثوة هى المجموع من التراب و الحجارة و قيل معناه قياما على الركب و ذلک لضيق المكان بهم لا يمكنهم أن يجلسوا عن السدى ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أى لنستخرجن من كل جماعة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا ﴾ أى الأعتى فالأعتى منهم قال قتادة: لننزعن من كل أهل دين قادتهم و رءوسهم فى الشر و العتى هاهنا مصدر كالعتو و هو التمرد فى العصيان و قيل يبدأ بالأكثر جرما فالأكثر عن مجاهد و أبى الأحوص ﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلى بِها صِلِيًّا ﴾ أى لنحن أعلم بالذين هم أولى بشدة العذاب و أحق بعظيم العقاب و أجدر بلزوم النار.

***

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً وَأَضْعَفُ جُنْداً ﴿٧٥﴾

ثم بين سبحانه أحوالهم يوم الحشر فقال ﴿ وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ﴾ أى ما منكم أحد إلا واردها و الهاء فى واردها راجعة إلى جهنم و اختلف العلماء فى معنى الورود على قولين (أحدهما) أن ورودها هو الوصول إليها و الإشراف عليها لا الدخول فيها و هو قول ابن مسعود و الحسن و قتادة و اختاره أبومسلم و استدلوا على ذلک بقوله تعالى ﴿ وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ و قوله تعالى ﴿ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلى دَلْوَهُ ﴾ و بأنک تقول وردت بلد كذا و ماء كذا أى أشرفت عليه دخلته أو لم تدخله و فى أمثال العرب «إن ترد الماء بماء أكيس» و قال زهير:

فلما وردن الماء زرقا جمامة وضعن عصى الحاضر المتخيم

أراد فلما بلغن الماء أقمن عليه قال الزجاج: و الحجة القاطعة فى ذلک قوله سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى أُولئِكَ عَنْها مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها ﴾ فهذا يدل على أن أهل الحسنى لا يدخلونها

قالوا فمعناه إنهم واردون حول جهنم للمحاسبة و يدل عليه قوله ﴿ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾ ثم يدخل النار من هو أهلها و قال بعضهم معناه إنهم واردون عرصة القيامة التى تجمع كل بر و فاجر (و الآخر) أن ورودها بمعنى دخولها بدلالة قوله تعالى ﴿ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ﴾ و قوله ﴿ أَنْتُمْ لَها وارِدُونَ لَوْ كانَ هؤُلاءِ آلِهَةً ما وَرَدُوها ﴾ و هو قول ابن عباس و جابر و أكثر المفسرين و يدل عليه قوله ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا ﴾ و لم يقل و ندخل الظالمين و إنما يقال نذر و نترك للشيء الذى قد حصل فى مكانه ثم اختلف هؤلاء فقال بعضهم إنه للمشركين خاصة و يكون قوله ﴿ وَ إِنْ مِنْكُمْ ﴾ المراد به منهم كما قال سبحانه ﴿ وَ سَقاهُمْ رَبُّهُمْ شَراباً طَهُوراً إِنَّ هذا كانَ لَكُمْ جَزاءً ﴾ أى لهم و روى فى الشواذ عن ابن عباس أنه قرأ و إن منهم و قال الأكثرون إنه خطاب لجميع المكلفين فلا يبقى بر و لا فاجر إلا و يدخلها فيكون بردا و سلاما على المؤمنين و عذابا لازما للكافرين.

قال السدى: سألت مرة الهمدانى عن هذه الآية فحدثنى أن عبدالله بن مسعود حدثهم عن رسول الله ﷺ قال: «يرد الناس النار ثم يصدرون بأعمالهم فأولهم كلمع البرق ثم كمر الريح ثم كحضر الفرس ثم كالراكب ثم كشد الرجل ثم كمشيه». و روى أبو صالح غالب بن سليمان عن كثير بن زياد عن أبى سمينة قال: «اختلفا في الورود فقال قوم لا يدخلها مؤمن و قال آخرون يدخلونها جميعا ثم ينجي الله الذين اتقوا فلقيت جابر بن عبدالله فسألته فأومى بإصبعيه إلى أذنيه و قال صمتا إن لم أكن سمعت رسولالله ﷺ يقول الورود الدخول لا يبقى بر و لا فاجر إلا يدخلها فتكون على المؤمنين بردا و سلاما كما كانت على إبراهيم حتى أن للنار أو قال لجهنم ضجيجا من بردها».

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيًّا ﴾ و روى مرفوعا عن يعلى بن منبه عن رسول الله ﷺ قال: «تقول النار للمؤمن يوم القيامة جز يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبي». و روى عن النبى ﷺ: «أنه سئل عن معنى الآية فقال إن الله تعالى يجعل النار كالسمن الجامد و يجمع عليها الخلق ثم ينادي المنادي أن خذي أصحابك و ذري أصحابي قال ﷺ فو الذي نفسي بيده لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها». و روى عن الحسن أنه رأى رجلا يضحک فقال هل علمت أنک وارد النار قال نعم قال و هل علمت أنک خارج منها قال لا قال فبم هذا الضحک و كان الحسن لم ير ضاحكا قط حتى مات و قيل أن الفائدة فى ذلک ما روى فى بعض الأخبار: «أن الله تعالى لا يدخل أحدا الجنة حتى يطلعه على النار و ما فيها من العذاب ليعلم تمام فضل الله عليه و كمال لطفه و إحسانه إليه فيزداد لذلك فرحا و

سرورا بالجنة و نعيمها و لا يدخل أحد النار حتى يطلعه على الجنة و ما فيها من أنواع النعيم و الثواب ليكون ذلك زيادة عقوبة له حسرة على ما فاته من الجنة و نعيمها». و قال مجاهد: الحمى حظ كل مؤمن من النار ثم قرأ ﴿ وَ إِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وارِدُها ﴾ فعلى هذا من حم من المؤمنين فقد وردها و قد ورد فى الخبر «أن الحمى من قيح جهنم». و روى أن رسول الله ﷺ عاد مريضا فقال: «أبشر إن الله عز و جل يقول الحمى هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن في الدنيا لتكون حظه من النار».

و قوله ﴿ كانَ عَلى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيًّا ﴾ أى كائنا واقعا لا محالة قد قضى بأنه يكون و على كلمة وجوب فمعناه أوجب الله ذلک على نفسه و فيه دلالة على أنه يجب عليه سبحانه أشياء من طريق الحكمة خلافا لم يذهب إليه أهل الجبر ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرک و صدقوا عن ابن عباس ﴿ وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ أى و نقر المشركين و الكفار على حالهم ﴿ فِيها ﴾ أى فى جهنم ﴿ جِثِيًّا ﴾ أى باركين على ركبهم و قيل جماعات على ما مر تفسيره و قيل المراد بالظالمين كل ظالم و عاص ثم قال سبحانه ﴿ وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ﴾ و معناه و إذا يتلى على الكافرين آياتنا المنزلة فى القرآن ظاهرات الحجج و الأدلة يمكن تفهم معانيها.

﴿ **قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً** ﴾ أى قال الذين جحدوا وحدانية الله و كذبوا أنبياءه للذين صدقوا بذلک مستفهمين لهم و غرضهم الإنكار أى الفريقين أى أ نحن أم أنتم خير منزلا و مسكنا أى موضع إقامة ﴿ **وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا** ﴾ أى مجلسا و إنما تفاخروا بالمال و زينة الدنيا و لم يتفكروا فى العاقبة و لبسوا على الضعفة بأن من كان ذا مال فى الدنيا فكذلک يكون فى الآخرة ثم نبههم سبحانه على فساد هذا الاعتقاد بأن قال ﴿ **وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً** ﴾ قال ابن عباس: الأثاث المتاع و زينة الدنيا و الرئى المنظر و الهيأة و المعنى أن الله تعالى قد أهلک قبلهم أمما و جماعات كانوا أكثر أموالا و أحسن منظرا منهم فأهلک أموالهم و أفسد عليهم صورهم و لم تغن عنهم أموالهم و لا جمالهم كذلک لا يغنى عن هؤلاء و قيل إن المعنى بالآية النضر بن الحارث و ذووه و كانوا يرجلون شعورهم و يلبسون خز ثيابهم و يفتخرون بشارتهم و هيأتهم على أصحاب النبى ﷺ.

ثم قال سبحانه لنبيه ﷺ ﴿ **قُلْ** ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ **مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ** ﴾ عن الحق و العدول عن اتباعه ﴿ **فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا** ﴾ هذا لفظ أمر معناه الخبر و تأويله أن الله سبحانه جعل جزاء ضلالته أن يمد له

بأن يتركه فيها كما قال ﴿ **وَ نَذَرُهُمْ فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ إلا أن لفظ الأمر يؤكد معنى الخبر فكأن المتكلم يقول أفعل ذلک و أمر نفسی به فالمعنی فلیعش ما شاء و أضاف ذلک إلی نفسه لأنه سبحانه یبقیه فی الدنیا أی فلیعش ما شاء الله من السنین و الأعوام فإنه لا ینفعه طول عمره ﴿ **حَتَّى إِذا رَأَوْا ما يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذابَ** ﴾ أی عذاب الاستئصال عن الأصم و قیل عذاب وقت البأس و قیل عذاب القبر و قیل عذاب السیف ﴿ **وَ إِمَّا السَّاعَةَ** ﴾ أی القیامة و عذاب النار ﴿ **فَسَيَعْلَمُونَ** ﴾ حین یرون العذاب ﴿ **مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكاناً** ﴾ أی أ هم أم المؤمنون لأن مکانهم جهنم و مکان المؤمنین الجنة ﴿ **وَ أَضْعَفُ جُنْداً** ﴾ أی و یعلمون أ جندهم أضعف أم جند النبی ﷺ و المسلمین و هذا رد لقولهم ﴿ **أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقاماً وَ أَحْسَنُ نَدِيًّا** ﴾.

***

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً وَالْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَوَلَداً ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴿٧٨﴾ كَلاَّ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ ما يَقُولُ وَيَأْتِينا فَرْداً ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

ثم بین سبحانه حال المؤمن فقال سبحانه ﴿ وَ يَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً ﴾ قیل معناه و یزید الله الذین اهتدوا بالمنسوخ هدی بالناسخ عن مقاتل و قیل یزیدهم هدی بالمعونة علی طاعاته و التوفیق لابتغاء مرضاته و هو ما یفتحه لهم من الدلالات و ما یفعله بهم من الألطاف المقربة من الحسنات ﴿ وَ الْباقِياتُ الصَّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً ﴾ قد مر تفسیره فی سورة الکهف و جملته أن الأعمال الصالحة التی تبقی ببقاء ثوابها و تنفع صاحبها فی الدنیا و الآخرة خیر ثوابا من مقامات الکفارات التی یفتخرون بها کل الافتخار ﴿ وَ خَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أی خیر عاقبة و منفعة یقال هذا الشیء أرد علیک أی أنفع و أعود علیک لأن العمل الصالح ذاهب عنه بفقده له فیرده الله تعالی علیه برد ثوابه إلیه حتی یجده فی نفسه ﴿ أَ فَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآياتِنا ﴾ أ فرأیت کلمة تعجیب و معناه أ رأیت هذا الکافر الذی کفر بأدلتنا من القرآن و غیره و هو العاص بن وائل عن ابن عباس و مجاهد و قیل الولید بن المغیرة عن الحسن و قیل هو عام فیمن له هذه الصفة عن أبی مسلم ﴿ وَ قالَ لَأُوتَيَنَّ مالاً وَ وَلَداً ﴾ استهزاء أی لأعطین مالا و ولدا فی الجنة عن الکلبی و قیل أعطی فی الدنیا أی

إن أقمت على دين آبائى و عبادة آلهتى أعطيت مالا و ولدا ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ هذه همزة الاستفهام دخلت على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل و معناه أعلم الغيب حتى يعلم أ هو فى الجنة أم لا عن ابن عباس و مجاهد و قيل معناه أنظر فى اللوح المحفوظ عن الكلبى و تأويله أشرف على علم الغيب حتى علم أنه سنؤتيه مالا و ولدا و أنه إن بعث رزق مالا و ولدا.

﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴾ أى اتخذ عند الله عهدا بعمل صالح قدمه عن قتادة و قيل معناه أم عهد الله إليه أنه يدخل الجنة عن الكلبى و قيل معناه أم قال لا إله إلا الله فيرحمه الله بها عن ابن عباس ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر على ما قال من أنه يؤتى المال و الولد و يجوز أن يكون المعنى كلا إنه لم يطلع الغيب و لم يتخذ عند الله عهدا ﴿ سَنَكْتُبُ ما يَقُولُ ﴾ أى سنأمر الحفظة بإثباته عليه لنجازيه به فى الآخرة و نوافقه عليه ﴿ وَ نَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذابِ مَدًّا ﴾ أى نصل له بعض العذاب بالبعض و نزيده عذابا فوق العذاب فلا ينقطع عذابه أبدا و أكد الفعل بالمصدر كما يؤكد بالتكرير ﴿ وَ نَرِثُهُ ما يَقُولُ ﴾ أى ما عنده من المال و الولد بإهلاكنا إياه و إبطال ملكه عن ابن عباس و قتادة و ابن زيد ﴿ وَ يَأْتِينا فَرْداً ﴾ أى يأتى الآخرة وحيدا بلا مال و لا ولد و لا عدة و لا عدد ﴿ وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ﴾ يعنى أن هؤلاء الكفار الذين وصفتهم اتخذوا آلهة أى أصناما عبدوها ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ أى ليكونوا لهم شفعاء فى الآخرة عن الفراء و هذا معنى قول ابن عباس ليمنعوهم منى و ذلك أنهم رجوا منها الشفاعة و النصرة و المراد ليصيروا بهم إلى العز قال الله سبحانه ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا بل صاروا بهم إلى الذل و العذاب.

﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ﴾ أى سيجحدون بأن يكونوا عبدوها و يتبرءون منها لما يشاهدون من سوء عاقبة أمرهم و يقولون ﴿ وَ اللَّهِ رَبِّنا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ و قيل معناه أن المعبودين سيكفرون بعبادة المشركين لها و يكذبونهم فيها كما قال حكاية عنهم ﴿ تَبَرَّأْنا إِلَيْكَ ما كانُوا إِيَّانا يَعْبُدُونَ ﴾ عن الجبائى ﴿ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ قال الأخفش: الضد يكون واحدا و جمعا كالرسول و العدو و معناه و يكونون عونا عليهم و أعداء لهم يخاصمونهم و يكذبونهم و قيل و يكونون قرناء لهم فى النار و يلعنونهم و يتبرءون منهم عن قتادة و قيل و يكونون أعداءهم يوم القيامة و كانوا فى الدنيا أولياءهم عن القتيبى.

***

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴿٨٦﴾ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴿٨٧﴾ وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً ﴿٩١﴾ وَما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴿٩٢﴾

ثم خاطب سبحانه نبيه ﷺ فقال ﴿ **أَ لَمْ تَرَ** ﴾ يا محمد ﷺ ﴿ **أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ** ﴾ أي خلينا بينهم و بين الشياطين إذا وسوسوا إليهم و دعوهم إلى الضلال حتى أغووهم و لم نحل بينهم و بينهم بالإلجاء و لا بالمنع و عبر عن ذلك بالإرسال على سبيل المجاز و التوسع كما يقال لمن خلى بين الكلب و غيره أرسل كلبه عليه عن الجبائي و قيل معناه سلطناهم عليهم و يكون في معنى التخلية أيضا على ما ذكرناه ﴿ **تَؤُزُّهُمْ أَزًّا** ﴾ أي تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية عن ابن عباس و قيل تغريهم إغراء بالشر تقول امض امض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار عن سعيد بن جبير ﴿ **فَلا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّما نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا** ﴾ معناه فلتطب نفسك يا محمد ﷺ و لا تستعجل لهم العذاب فإن مدة بقائهم قليلة فإنا نعد لهم الأيام و السنين و ما دخل تحت العد فكان قد نفد و قيل معناه نعد أنفاسهم في الدنيا فهي معدودة إلى الأجل الذي أجلناه لعذابهم عن ابن عباس و هذا من أبلغ الوعيد و قيل معناه نعد أعمالهم على ما ذكرناه قبل ﴿ **يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمنِ وَفْداً** ﴾ أي اذكر لهم يا محمد ﷺ اليوم الذي نجمع فيه من اتقى الله في الدنيا بطاعته و اجتنب معاصيه إلى الرحمن أي إلى جنته و دار كرامته وفودا و جماعات عن الأخفش و «**قيل ركبانا يؤتون بنوق لم ير مثلها عليها رحائل الذهب و أزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة**». عن أمير المؤمنين عليه السلام و ابن عباس.

﴿ **وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلى جَهَنَّمَ وِرْداً** ﴾ أي و نحث المجرمين على المسير إلى جهنم عطاشا كالإبل التي ترد عطاشا مشاة على أرجلهم عن ابن عباس و الحسن و قتادة و سمي العطاش وردا لأنهم يردون لطلب الماء و قيل الورد النصيب أي هم نصيب جهنم من الفريقين و المؤمنون نصيب الجنة عن أبي مسلم ﴿ **لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ** ﴾ أي لا يقدرون على الشفاعة فلا يشفعون و لا يشفع لهم حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض لأن ملك الشفاعة على وجهين (أحدهما) أن يشفع للغير (و الآخر) أن يستدعى الشفاعة من غيره

لنفسه فبين سبحانه أن هؤلاء الكفار لا تنفذ شفاعة غيرهم فيهم و لا شفاعة لهم لغيرهم ثم استثنى سبحانه فقال ﴿ **إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً** ﴾ أى لا يملكون الشفاعة إلا هؤلاء و قيل لا يشفع إلا لهؤلاء و العهد هو الإيمان و الإقرار بوحدانية الله تعالى و تصديق أنبيائه و قيل هو شهادة أن لا إله إلا الله و أن يتبرأ إلى الله من الحول و القوة و لا يرجو إلا الله عن ابن عباس و قيل معناه لا يشفع إلا من وعد له الرحمن بإطلاق الشفاعة كالأنبياء و الشهداء و العلماء و المؤمنين على ما ورد به الأخبار و

قال على بن إبراهيم بن هاشم فى تفسيره حدثنى أبى عن الحسن بن محبوب عن سليمان بن جعفر عن أبى عبدالله عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «من لم يحسن وصيته عند الموت كان نقصا في مروءته قيل يا رسولالله و كيف يوصي الميت قال إذا حضرته وفاته و اجتمع الناس إليه قال اللهم فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة الرحمن الرحيم إني أعهد إليك في دار الدنيا أني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك و أن محمدا صلى الله عليه و آله و سلم عبدك و رسولك و أن الجنة حق و أن النار حق و أن البعث حق و الحساب حق و القدر و الميزان حق و أن الدين كما وصفت و أن الإسلام كما شرعت و أن القول كما حدثت و أن القرآن كما أنزلت و أنك أنت الله الحق المبين جزى الله محمدا عنا خير الجزاء و حيا الله محمدا صلى الله عليه و آله و سلم و آله عليهم السلام بالسلام اللهم باعدني عند كربتي و يا صاحبي عند شدتي و يا ولي نعمتي و إلهي و إله آبائي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين فإنك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشر و أبعد من الخير و آنس في القبر وحشتي و اجعل له عهدا يوم ألقاك منشورا ثم يوصي بحاجته و تصديق هذه الوصية في سورة مريم في قوله ﴿ لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً ﴾». فهذا عهد الميت و الوصية حق على كل مسلم و حق عليه أن يحفظ هذه الوصية و يعلمها و قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «علمنيها رسولالله صلى الله عليه و آله و سلم و قال علمنيها جبرائيل عليه السلام».

﴿ وَ قالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَداً ﴾ هذا إخبار عن اليهود و النصارى و مشركى العرب فإن اليهود قالوا: عزير ابن الله و قالت النصارى: المسيح ابن الله و قال مشركو العرب: الملائكة بنات الله ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدًّا ﴾ هاهنا حذف تقديره قل لهم يا محمد صلى الله عليه و آله و سلم لقد جئتم بشىء منكر عظيم شنيع فظيع فلما حذف الباء وصل الفعل إليه فنصبه ﴿ تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى أرادت السماوات أن تنشق لعظم فريتهم إعظاما لقولهم و معناه لو انشقت السماوات بشىء عظيم لكانت تنشق من هذا ﴿ وَ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أى و كادت الأرض تنشق ﴿ وَ تَخِرُّ الْجِبالُ ﴾ أى كادت الجبال تسقط ﴿ هَدًّا ﴾ أى كسرا شديدا عن ابن عباس و قيل هدما عن عطاء ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمنِ وَلَداً ﴾ أى لأن دعوا للرحمن ولدا أو من دعوا للرحمن ولدا أى بسبب

دعوتهم أو تسميتهم له ولدا ﴿ وَ ما يَنْبَغِي لِلرَّحْمنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ أى ما يصلح للرحمن و لا يليق به اتخاذ الولد و ليس من صفته ذلک لأن إثبات الولد له يقتضى حدوثه و خروجه من صفة الإلهية و اتخاذ الولد يدل على الحاجة تعالى عن ذلک و تقدس.

***

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴿٩٨﴾

ثم قال سبحانه ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمنِ عَبْداً ﴾ أى ما كل من فى السماوات و الأرض من الملائكة و الإنس و الجن إلا و يأتى الله سبحانه عبدا مملوكا خاضعا ذليلا و مثله قوله ﴿ وَ كُلٌّ أَتَوْهُ داخِرِينَ ﴾ و المعنى أن الخلق عبيده خلقهم و رباهم و جرى عليهم حكمه و أن عيسى و عزيرا و الملائكة من جملة العبيد و فى هذا دلالة على أن البنوة و العبودية لا يجتمعان و أنه إذا ملک الإنسان ابنه عتق عليه ﴿ لَقَدْ أَحْصاهُمْ وَ عَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ أى علم تفاصيلهم و أعدادهم فكأنه سبحانه عدهم إذ لا يخفى عليه شيء من أحوالهم ﴿ وَ كُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَرْداً ﴾ أى كل واحد منهم يأتى المحشر و الموضع الذى لا يملک الأمر فيه إلا الله فردا وحيدا مفردا ليس له مال و لا ولد و لا ناصر مشغولا بنفسه لا يهمه هم غيره ثم ذكر سبحانه المؤمنين فقال ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ﴾ قيل فيه أقوال (أحدها) أنها خاصة فى على بن أبى طالب عليه السلام فما من مؤمن إلا و فى قلبه محبة لعلى عليه السلام عن ابن عباس و فى تفسير أبى حمزة الثمالى حدثنى أبو جعفر الباقر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه و آله لعلي عليه السلام قل اللهم اجعل لي عندك عهدا و اجعل لي في قلوب المؤمنين ودا فقالهما علي عليه السلام فنزلت هذه الآية». و روى نحوه عن جابر بن عبدالله الأنصارى.

(و الثانى) أنها عامة فى جميع المؤمنين يجعل الله لهم المحبة و الألفة و المقة فى قلوب الصالحين قال هرم بن حبان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقهم مودتهم و رحمتهم و

محبتهم و قال الربيع بن أنس: إن الله إذا أحب مؤمنا قال لجبرائيل إنى أحببت فلانا فأحبه فيحبه جبرائيل ثم ينادى فى السماء ألا إن الله أحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء ثم يوضع له قبول فى أهل الأرض فعلى هذا يكون المعنى يحبهم الله و يحببهم إلى الناس (و الثالث) أن معناه يجعل الله لهم محبة فى قلوب أعدائهم و مخالفيهم ليدخلوا فى دينهم و يعتزوا بهم (الرابع) يجعل بعضهم يحب بعضا فيكون كل واحد منهم عضدا لأخيه المؤمن و يكونون يدا واحدة على من خالفهم (و الخامس) أن معناه سيجعل لهم ودا فى الآخرة فيحب بعضهم بعضا كمحبة الوالد لولده و فى ذلک أعظم السرور و أتم النعمة عن الجبائى و يؤيد القول الأول ما صح عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني و لو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني و ذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي أنه قال لا يبغضك مؤمن و لا يحبك منافق**».

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه و آله ﴿ **فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ** ﴾ أى يسرنا القرآن بأن أنزلناه بلسانک و هى لغة العرب ليسهل عليهم معرفته و لو كان بلسان آخر ما عرفوه عن أبى مسلم و قيل معناه يسرناه قراءة القرآن على لسانک و مكناک من قراءته عن الجبائى ﴿ **لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ** ﴾ أى لتبشر بالقرآن الذين يتقون الشرک و الكبائر أى تخبرهم بما تسرهم مما أعده الله لهم ﴿ **وَ تُنْذِرَ بِهِ قَوْماً لُدًّا** ﴾ أى شدادا فى الخصومة عن ابن عباس يعنى قريشا و قيل قوما ذوى جدل مخاصمين عن قتادة ثم أنذرهم سبحانه و خوفهم بقوله ﴿ **وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ** ﴾ أى قبل هؤلاء من قرن مكذبين للرسل و فيه تسلية للنبى صلى الله عليه و آله و المعنى لا يهمنک كفرهم و شقاقهم فإن وبال ذلک راجع إليهم و قد أهلكنا قبلهم من كان مثلهم ﴿ **هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ** ﴾ أى هل تبصر منهم أحدا ﴿ **أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً** ﴾ أى صوتا عن ابن عباس و قتادة و قيل حسا عن ابن زيد و المعنى أنهم ذهبوا فلا يرى لهم عين و لا يسمع لهم صوت و كانوا أكثر أموالا و أعظم أجساما و أشد خصاما من هؤلاء فلم يغنهم ذلک لما أردنا إهلاكهم فحكم هؤلاء الكفار حكم أولئک فى أنه لا يبقى منهم عين و لا أثر و الحمد لله رب العالمين.